

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
مركز البحوث والدراسات



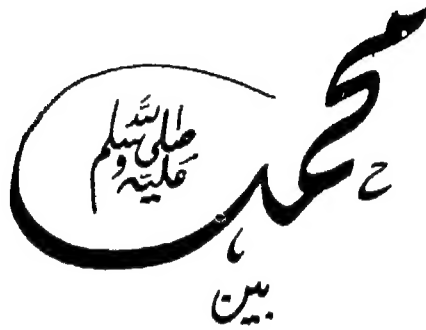
البوصيري وتعرائنا المعاصرين

تأليف
الدكتور إبراهيم عوض

القاهرة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
الجواسن الأعلى للتشوية الإسلامية
مركز البيرة والسنة



البوصيري وشعرنا المعاصرين

تأليف
الدكتور إبراهيم حوضين

القاهرة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة ١٢٨]

﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
وكفى بالله شهيداً
محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً
سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر
السجود﴾ [الفتح ٢٨-٢٩]

مقدمة

الحمد لله أنعم علينا بجعلنا من أمة محمد ﷺ ، الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، هداانا الله به ، وشرفنا بالانتساب إليه ، ونرجو إكرامه إيانا بشفاعته لنا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه .

أما بعد .. فلقد شرف الشعر العربى بما قدمه الشعراء فى مدح المصطفى ﷺ ، لينقوا به ظمأ نفوسهم ، ونفوس المؤمنين فى شتى بقاع الأرض ، لما فى هذا الشعر من تعاون للمسلم على أن يستحضر صورة أحب خلق الله إليه ، وأن يتمثل هيئته فى مجلسه ، وفى حديثه ، وفى مشيته ، وفى مثابرتة على إنفاذ أمر ربه ، والنهوض داعياً إلى الله الواحد الأحد ، وفى تفكيره ، وفى تدبيره ، وفى قيادته العسكرية ، وريادته السلمية .. وفى كل شئون حياته صلى الله عليه وسلم !.

فالشعراء - بما قدموه فى هذا الميدان - هم فى حقيقة أمرهم يسهمون بدور كبير فى ربط المسلم برسوله الكريم ، ليتمكن من الاقتداء والتأسى ، فيتمكن إيمانهم واستجابتهم للتوجيه القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

ومن هنا .. اختلف الشاعر - فى مدحه المصطفى ﷺ - عن الشاعر فى مدحه إنساناً آخر ؛ لأن المدح فى رحاب المصطفى ﷺ موظف فى مقصد آخر غير مقاصد الشعراء من مدحهم العام .

كما اختلف الشعر نفسه ؛ فشعر المديح الدائر حول سيدنا محمد ﷺ ، يختلف تمام الاختلاف عن شعر المديح الدائر حول غيره من الناس !

وقد بدا ذلك الاختلاف منذ تقدم كعب بن زهير بقصيدته اللامية لسيدنا محمد ﷺ مادحاً معتذراً ، فلقد تحول فيها بفن المديح تحولاً بارزاً ، رأى فيه الشعراء من بعده والدارسون أنهم أصبحوا - مع فن المديح - أمام فنين متميزين ، أما أحدهما ، فهو فن المديح على إطلاقه ، وأما الآخر فهو فن المديح النبوي بخصوصه ؛ وذلك لأن ما يطلق عليه (المديح النبوي) يمتاز في مقوماته عن المديح العام ، بما يكاد يفردة عنه ، حيث يقدم في المديح النبوي وصف النبي ﷺ كما يراه الشاعر ، وتاريخه العام والخاص ، يقيناً من الشاعر أنه صلى الله عليه وسلم مزيج من السمائل والقيم ، والسلوك الخاص والعام .. وحيث يدفع الشاعر إلى مدحه صلى الله عليه وسلم حرصه على أن يتلمس في كل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم هديه ، وأن يبرز هذا الهدى وأثره في عز المسلم ، ودعم الأمة الإسلامية ، وإنقاذ الإنسان - في عمومه - من مصائبه .!

بخلاف المديح العام ، الذي يعتمد على انتقاء الشاعر بعض شمائل الممدوح وصفاته ، أو نعت الممدوح ببعض الصفات التي يرى الشاعر أنها ترضى الممدوح ، حتى لو لم تكن من شمائله .!

فالشاعر - في مدح النبي ﷺ - لا يهتم بإرضاء ممدوحه - فحسب - ولكنه بالدرجة الأولى يهتم بأن يضع يده ويد المتلقى على تلك السمائل والقيم والسلوكيات ، ليقدم الدواء الناجع في إنقاذ الإنسان وتوجيهه .!

أى أن الشاعر - في المديح النبوي - لا يمدح النبي ، لأنه يتصف بتلك الصفات ، بل يصفه بما قامت عليه ذاته من خلال وطبائع وسجايا ، وبما صدر عنه من سلوك .. ليكون المتلقى على بينة بما يدعم مسيرته ، ويسدد خطاه في حياته .!

ولا ريب في أن الفارق بين الوجهتين جلي شاسع ، فالصفة في المدح العام عارضة طارئة ، أو منحولة مجتلبة ، أما الصفة في مدحه صلى الله عليه وسلم ، فهي طبيعية فطرية أصيلة ، أو مكتسبة ثابتة ملازمة في الأحوال المختلفة .!

ومن أشهر ما قدمه الشعراء في مدح المصطفى ﷺ مطولة البوصيري الميمية التي سميت (البردة)؛ فقد كان لها من القبول والذيع ما جعل الشعراء - منذ قدمها البوصيري إلى يومنا هذا - يحرصون على محاذاته فيها بشتي ألوان المحاذاة ، من تشطير ، وترييع ، وتخميم ، ومعارضة ..!

والشعراء - في محاداتهم البوصيري - لم يسلسوا له قيادهم كاملاً ؛ فقد كان لكل منهم - مع رسول الله ﷺ - وجهة ، فرضتها عليهم ظروفهم الخاصة ، ودفعهم إليها منطلقهم الخاص في معاشته صلى الله عليه وسلم ، وأغراهم بها ظلالهم الخاصة التي لازمتهم في أثناء مصاحبته الوجدانية ، على ضوء المسار البوصيري في قالبه الفني .!

ومن هذا المنطلق .. رأيت أن أقدم من أبرز اللوحات العصرية - مع بردة البوصيري - ست قصائد حديثة حاذى فيها الشعراء الستة المعاصرون ، إمام المديح النبوي (البوصيري) ، كان لكل شاعر منهم لونه الخاص ، ومذاقه المتميز ، على الرغم من توحده المدوح ، واتفاق القلب الفني .!

وفي سبيل إلى ذلك رأيت أن أشفع كل قصيدة بتعليق موجز ، يلفت النظر إلى محتواها ، وينبه إلى مسار الشاعر فيها ؛ حتى تكون قريبة من القارئ ، أيا كان مستواه الثقافي والفكري .!

وإني لأرجو أن أكون بذلك قد جلوت صورة المصطفى ﷺ في آفاق هؤلاء الشعراء السبعة ومراثيهم - على اختلاف بيئاتهم ومشاربهم - وأن أكون - في الوقت نفسه - قد تمكنت من فتح مجال الحوار والمناقشة ، والبحث والتأمل في ذلك المنهج الفني ، من مناهج التعبير ؛ توطيداً للعلاقة بين روحانية البحث وفنيته . وأن أكون قد يسرت الوقوف على تلك القصائد ، بعد أن هتكت عنها - بذلك - ستر الغفلة والنسيان . والله من وراء القصد ، عليه التوكل ، ومنه التوفيق .

رمضان ١٤١٤هـ

فبراير ١٩٩٤م

دكتور إبراهيم عوضين



أولا البوصيري في بردته^[١]

(١) هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبدالله بن صنهاج .. كانت أمه من (أبو صير) من أعمال بني سويف ، وأبوه من (دلاص) ، فركبت له نسبة منها ، وقيل : (الدلاصيري) ، لكنه أشهر بالبوصيري ، ولد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢ م ، وتولى سنة ٦٩٦ / ١٢٩٦ بالإسكندرية ، وله بها قبر مشهور ، يتصل به مسجد كبير . وكان شاعرا حسن الديباجة ، إلى جانب معاناته صناعة الكتابة ، وكان إلى هذا وذاك يتولى أمر الشرقية ببليس ، فاطلع على سوءات العمال والموظفين الإداريين ، وسجل ما كشفه من ذلك في شعره ، على نحو ما نرى في قصيدته المطولة التروية التي يقول في مطلعها :

نقدت طوالف المستخذيما فلم أر فيهم رجلا أميناً
فقد عاشرتهم ولشيت فيهم مع التجريب من عمرى سنيماً

انظر : فوات الوفيات محمد بن شاكر الكتيبي ج ٣ ص ٣٦٢ بتحقيق إحسان عباس ، وخطط على مبارك ج ٧ ص ٧٠ ، والوفاء بالوفيات ج ٣ ص ١٠٥ ، والأعلام للزركلي ج ٦ ص ١٣٩

بوردة البوصيرى

للبوصيرى فى مدح النبى ﷺ قصائد عديدة ، منها الحمزية التى يبدوها بقوله :

كيف ترقى رقيق الأنبياء

وقصيدته التى عارض فيها لامية كعب بن زهير ، وفى مطلعها يقول :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمته مسؤول

وكان أشهر مدائحه النبوية قصيدته الميمية المعروفة بالبردة ، وترجع شهرتها إلى طولها ، وما تضمنته من معاني وأفكار قدم فيها صورة مقربة للمصطفى ﷺ .. وإلى ما ذكره البوصيرى فى سبب نظمها .

فقد قال : كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله ﷺ ، منها ما كان اقترحه على الصباح زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق أن أصابنى فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه (البردة) فعملتها ، واستشفعت به إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة ، وألقى على بردة فانتبهت ، ووجدت فى نهضة ، فقممت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ ، فقلت : أياها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشئ بين يدي رسول الله ﷺ ، فرأيت رسول الله ﷺ يتأيل ، وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة .

قال البوصيرى : فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام .. إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا ، فبعث إلى ، وأخذها ، وحلف أن لا يسمعها إلا قائماً حافياً ، مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته .

ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارق ، الموقّع ، رمداً أشرف منه على العمى ، فرأى في المنام قائلاً يقول له : اذهب إلى صاحب ، وخذ البردة واجعلها على عينيك ، فتعافى بإذن الله عز وجل ، فأتى إلى صاحب وذكر منامه ، فقال : ما أعرف عندى من أثر النبي ﷺ بردة ؛ ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى . يا يا قوت افتح الصندوق الذى فيه الآثار ، وأخرج القصيدة ، وأت بها ، فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعوفى^(١).

وقد نقل الدكتور زكى مبارك حديث البوصيرى عن البردة ، ثم علق عليه بقوله^(٢):

« وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة ، وكأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما يرى البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية – لا سمح الله – ما استغنى بالبردة عن الطبيب ».

وصدور مثل هذا الكلام من مثل الدكتور ليس مفاجأة ولا مثيراً للدهشة ؛ لأن الدكتور كان يعيش تحت تأثير أفيون العقل والعقليين ، الذين هزتهم الكشوف العلمية الحديثة ، ورأوا أن دور العقل فيها ، يؤهله للتأليه والخضوع له فى كل ما يعين ، والرجوع إليه فى كل أمر ، فما قبله سلموا به ، وما رفضه رفضوه .. وغفلوا عن أن الإنسان ليس بالعقل وحده يكشف ، ولا به وحده يعيش ، ولكنه وسيلة من وسائل الله الخالق الإنسان كى يستعين بها على أداء وظيفة الخلافة فى الأرض .

ولو أن الدكتور ومن على شاكلته رجعوا فى ذلك إلى كبار الأطباء المختصين لسمعوا منهم – فى مجال العلاج والتطبيب – ما لا يخطر على البال من معجزات تلفت الأنظار إلى أن العقل ليس كل شيء .

بل لو أنهم رجعوا بأنفسهم بضع عشرات من السنين ، وسمعوا من يقول لهم إن هناك جهازاً مصنوعاً ينقل صوت المتكلم وصورته من أقصى الأرض إلى أقصاها ، لسارعوا بإنكار ذلك ، متعللين بالعلة نفسها : « ليس من المعقول حدوث مثل ذلك ».

وأما ما ساقه على سبيل التهكم والسخرية ، من أن مفتى الديار لا يستطيع أن يستغنى بالبردة عن الطبيب ؛ فهو إن دل على شيء . فإنما يدل على سذاجة الدكتور نفسه – لا على سذاجة البوصيرى – وعلى مدى خضوعه لسلطان المادة الذى يعمى عن الحقيقة .

(١) فوات الوفيات ج ٣ ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ .

(٢) أحمد شوقي للدكتور زكى مبارك ص ١٥٩ طبع الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٦٧ .

فما قال أحد باستغناء مريض بالبردة عن الطبيب ، ولا قال أحد بأن مفتي الديار المصرية أقرب الناس إلى الله بحكم وظيفته ؛ فقد تكون وظيفته تلك سبباً في بعده عن الله ، كما قد تكون سبباً في قربه من الله .!

فإذا كان عقل الدكتور يقرر أن القلم في يده يفعل ما لا يفعله القلم نفسه في يد رجل أمي ، فكيف يغيب عنه أن الدعاء من فم عمر رضى الله عنه يفعل ما لا يفعله الدعاء من فم زكى مبارك ؟!

وليت الدكتور وقف عند ذلك الحد في تهكمه من البوصيرى .!

لقد استسلم الدكتور لنزوات عقله فأنحى باللوم على البوصيرى لذكره كلمة (ﷺ) كلما ذكر اسم الرسول ﷺ ، حتى كررها في الفقرة التي نقلها عنه الدكتور خمس مرات . ورأى أن هذا التكرار من وساوس المتأخرين^(١) ، ولا أدري بأى عقل سوغ تلك الرؤية ، وكان يكفيه أن يتذكر قول الحكيم العليم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » . حتى يعرف أن المؤمنين مأمورون بذلك على إطلاقه ، وليس في موقف دون موقف ، ولا في حالة دون حالة .!

ولو أن الدكتور وأمثاله استغلوا عقولهم في النظر الشامل .. إذن لرأوا ما بين طيات الماضي من وقائع تكشف عن أثر الغرور في الإنسان ، وكيف أوصله إلى البطر والطفغان ، فلم يفق إلا بعد فوات الأوان ؟!

« إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » [٦ ، ٧ العلق]

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » [٢٢ ، ٢٣ يونس]

وبعد فإلى مصاحبة البوصيرى فى برده !

لنجد أنه أقام قصيدته على عشر أفكار ، ضمنها طرفاً من خصائصه ومناقبه ﷺ ، تلك التى بدت فى سلوكه وطباطه منذ ولادته ، حتى وفاته ..

ونجده - فى أثناء ذلك - تناول بالعرض بعض معجزاته ﷺ التى كان أهمها القرآن الكريم ، ثم ختمها مبتهلاً متوسلاً به ﷺ أن يكون شفيعه لينال رحمة ربه ومغفرته .

(١) المصدر نفسه ص ١٦٠

وفي سبيله إلى ذلك بدأ بمقدمة غزلية ، يمهّد بها لإعلان حبه الصافي ، الذي لا يجد فيه ما يلام عليه ، فهو يحب إنساناً يعتز بحبه إياه :

أمن تذكر جيران بلدى سلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
أحسب الصب أن الحب منكم
لولا الهوى لم تُرق دمعاً على طلل
فكيف تنكر حبا بعدما شهدت
وألبت الوجد خطئى غيرة وضى
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
يا لائى فى الهوى العذرى معذرة
عذتك حالى ، لاسرى بمُنستير
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم^(١)
وأومض البرق فى الظلماء من إضم^(٢)
وما لقلبك إن قلت استفق بهم^(٣)
ما بين منسجم منه ، ومُنظرم^(٤)
ولا أرقى لذكر البان والعلم^(٥)
به عليك عدول الدمع والسقم^(٦)
مثل البهار على خديك والعنم^(٧)
والحب يعرض اللذات بالألم
منى إليك ، ولو أنصفت لم تلم
عن الوشاة ، ولا دأتى بمنحسم

النفس البشرية مأتى الشيطان ،

ثم ينتقل - فى براعة - من الحديث عن الحب الصافى إلى التحذير من هوى النفس ، وذلك حين وقف يعلن عن إصراره على التعذب فى الحب ، وعدم إصغائه لنصح النصيح ، فيقول :

محضتى النصيح لكن لسث أسمع
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عدل
فإن أمارق بالسوء ما اتعظت
إن الحب عن العدل فى صمم^(٦)
والشيب أبعد فى نصيح عن التهم^(٧)
من جهلها بنذير الشيب والهزم

وبذلك البيت الثالث ينتقل الشاعر إلى الحديث عن النفس ، فى وقفة متأملّة ، تبدو من خلالها وصاياها الحكيمة ، ونظراته العميقة ، وغوصه فى أعماق النفس البشرية ، ومعرفته باتجاهاتها وإغراءاتها ونزواتها ، ومدى سطوتها على الإنسان ، ومدى ضعف الإنسان أمام سلطانها إذا ما استسلم لها ، ومدى قوته إذا هو أدرك أسباب تلك القوة ، واستعان بها فى السيطرة على تلك النفس ، وكبح جماحها ، من غير أن يصطدم بحاجاتها الفطرية .

(١) ذو سلم : مكان بين مكة والمدينة .

(٢) كاظمة : موضع ، وإضم مثل عب : الوادى الذى فيه المدينة النبوية .

(٣) همت العين : سال دمعها ، وهام القلب بيم : أصابه جنون العشق .

(٤) الطلل : آثار الديار الباقية ، والبان : نوع من الشجر ، والعلم : جبل .

(٥) البهار : نبت طيب الرائحة ، والعنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخطوب .

(٦) محضتى : أخلصت النصيح .

(٧) نصيح الشيب : خالصه من الشوائب . والعدل - بفتحين - : اللوم .

كما يبدو - من خلال تلك الآيات - إدراك الشاعر قوة العلاقة بين النفس الهابطة وبين الشيطان ، حيث يتوج نصائحه بالحض على مخالفتها ، مهما كانت دعواتها ، حتى لو تزينت بالنصح والحكمة ، لأن وراء ذلك شيطاناً رجيماً يجيد التخفى وراء النفس البشرية ، ليبلغ من الإنسان ما تحدى به الخالق جل وعلا ، حين قال : ﴿لَأَقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ثم لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٠﴾ .

ففى تصوير تلك النفس وخطرها قال :

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	ضيف ألم برأسى غير محتشم
لو كنت أعلم أنى ما أوقره	كتمت سرا بدا لى منه بالكم ^(١)
من لى برد جهاج من غوايتها	كما يرد جماح الخيل باللجم ^(٢)
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها	إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على	حب الرضاع ، وإن تطفمه ينطم
فاصرف هواها ، وحاذر أن توليه	إن الهوى ما تولئى يضم أو يصم ^(٣)
وراعها وهى فى الأعمال سائمة	وإن هى استحتلت المرعى فلا تيسم ^(٤)
كم حسنت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع	فرب مخمصة شر من التخم ^(٥)
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من الحارم ، والزم جفية الندم ^(٥)
وخالف النفس والشيطان واعصهما	وإن هما معصاك النصح فانهما
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قول بلا عمل	لقد نسيت به نسلاً لدى عقم

مع الشمائل النبوية :

ثم يتأهب البوصيرى لتقديم الفكرة الثالثة فى رشاقة مدهشة ، تعلن عن تمكن الشاعر ، ووضوح الرؤية ودقة الهندسة الفنية .. حيث يأخذ فى لوم نفسه على أمره غيره بما لم يأتمر هو به ، حتى إنه لا يأتى من العبادة إلا الفرائض . وبذلك يرى أنه أهون شأناً من أن يأمر غيره بفعل الخير ، وأنه - فى ضعفه ذلك - يظلم سنة رسول الله ﷺ ؛ متخلصاً بذلك إلى الحديث عن الرسول ﷺ ، إذ يقول :

(١) الكم - بفتحين - : نبت يخلط بالحناء لتبيث خضاب الشعر .

(٢) يضم - بضم الياء وسكون الصاد - : يقتل ، ويفتح الياء وكسر الصاد : يصيب .

(٣) السوم : الرعى .

(٤) الخمصة : الجماعة ، والخمعة : كثرة الطعام فى المعدة لدرجة الفساد .

(٥) الحمية - بكسر فسكون - : التخلص مما يضر .

أمرئك الخير ، لكن ما ائتمرت به وما استقمْتُ . فما قولي لك استقم !؟
ولا تزودك قبل الموت نافلة ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحياء الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضّر من ورم
فهو بوقفته تلك مع نفسه يتخلص من أدران الغرور ، ويتجرد من أسباب الزهو ، تهبوا
للإقدام على الحديث عن رسول الله ﷺ ؛ إذ يرى أنه لا يليق به الحديث عن رسول الله ﷺ إلا
وهو طاهر البدن ، خالص النفس من أسباب الانحراف .

ومن حديثه عن قيام الرسول ﷺ الليل مصلياً حتى تورمت قدماه ، ولحق بها الضر ،
فجأرت بالشكوى .. من هذا الحديث يأخذ في استعراض بعض شمائله ﷺ وسلوكياته ، مبيناً
في ذلك تحمله الجوع في سبيل الدعوة ، وترفعه على مغريات الحياة المادية .. على الرغم من
 حاجته الشديدة إلى شيء منها ، معلناً أنه أرفع من أن يخضع لتلك الحاجات المادية ، وأنه أقوى
من أن يضعف أمام إغرائها .. وأنه لذلك ولغيره كان سيد الكونين ، وفاق النبيين ، واصطفاه

الباري جل وعلا لرسائله الخاتمة ، فجاء قوله :

وشد من سغب أحشاءه وطوى
ورأوده الجبال الشم من ذهب
وأكدت زهده فيها ضرورته
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
محمد سيد الكونين والثقلين
نينا الأمر الناهي ، فلا أحد
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
دعا إلى الله ، فالمستمسكون به
فاق النبيين في خلق وفي خلق
وكلهم من رسول الله ملتصق
وواقفون لديه عند حدهم
فهو الذي تم معناه وصورته

تحت الحجارة كشحاً متصرف الأدم^(١)
عن نفسه ، فأراها أيماً شم
إن الضرورة لاتعدو على العصم^(٢)
لولا لم تُخرج الدنيا من العدم
من والفريقين من غرْب ومن عجم^(٣)
أبر في قول (لا) منه ، ولا (نعم)
لكل هول من الأهوال مقتحم^(٤)
مستمسكون بحبل غير منفصم
ولم يدانوه في علم ولا كرم
غرفاً من البحر، أو رشفاً من الدم^(٥)
من نقطة العلم، أو من شكلية الحكم
ثم اصطفاه حبيباً باريء النسم^(٦)

(١) السغب - بفتح الفين - : الجوع ، والكشح - بفتح الكاف وسكون الشين - من الإنسان : ما بين الحاصرة إلى الضلع
الخلف ، وطوى عنه كشحه : تركه وأعرض عنه .

(٢) الضرورة : الحاجة . والعصم - بكسر العين - : جمع عصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها ، مع القدرة
عليها .

(٣) الثقلان : الجن والإنس .

(٤) اقتحم الأمر العظيم : رمى بنفسه فيه بغیر روية والهول المقتحم - بكسر الحاء - الهول الشديد الذي يفاجئ الإنسان
ولا يقدر على مواجهته ، والمراد : هول يوم القيامة .

(٥) الدم - بكسر ففتح - : جمع ديمة : المطر الذي يدوم وليس فيه رعد ولا برق .

(٦) باريء النسم : خالق النفوس .

وفى ثانيا تعداد مناقبه وصفاته ، يتنبه الشاعر إلى ضرورة الاحتراس والحرص من أن يجرفه الشيطان إلى الزيف في تقدير رسول الله ﷺ ، فيقع فيما وقع فيه النصارى ، حين أوصلهم تعظيم نبيهم إلى الزيف عن الجادة ، فجعلوه إلها . وفى ذلك يقول :

منزّه عن شريك فى محاسنه فجوهـ الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

ثم يستأنف الشاعر مسيرته فى تعداد مناقبه ﷺ ، وذكر ما أثر من صفاته ونعوته التى كانت فيه سجايا فطرية ، تقوم عليها ذاته ، وأخلاقه فى سلوكياته ، وألفاظه ، وتفكيره ، وتصورات ، حتى كان أدق تعبير عنها هو قول الحق تبارك وتعالى^(١) : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، مما ينبىء بأنه ﷺ متمكن من الخلق - على إطلاقه - وأنه فى حياته كلها يقوم على هذا الخلق .

ولذا رأى البوصيرى أن فضل رسول الله ﷺ شامل غير محدود ، تلمسه فى كل نبضة ، وتدركه فى كل لفظة ، حتى حارت العقول فى متابعة فضائله ، واضطربت الأفكار فى تفسير حقائقه :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيغرب عنه ناطق بفم^(٢)
لو ناسبت قدره آياته عظمها أحيا اسمه - حين يدعى دارس الرّم^(٣)
لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا ، فلم نرتب ، ولم نهم^(٤)
أعيا الورى فهم معناه ؛ فليس يرى للقرب والبعد منه غير متفحّم^(٥)
كالشمس تظهر للعينين - من بُعد - صغيرة ، وتكبل الطرف من أم^(٦)
وكيف يدرك فى الديـا حقيقته فوهم ينام تسلوا عنه بالعلم^(٧)

فمبلغ العلم فيه أنه بشرّ وأنه خير خلق الله كلهم
ويربط البوصيرى بين المصطفى عليه الصلاة والسلام فى تميزه هذا ، وبين غيره من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فيقرر أن معجزات الرسل السابقين منبثقة من نوره ﷺ ، وأنه شمس ورسل الله حولها الكواكب التى تعكس نورها للناس فيبديد الظلام .

(١) القلم ٤

(٢) أعرب الرجل عن الشئ : أبانه .

(٣) الرّم الدارسة : العظام البالية . يقول : لو أن آياته وأماراته التى تدل على رفعة كانت تماثل عظم قدره ، إذن لكان من هذه الآيات إحياء الموتى ، بأن يتوسل بك يا محمد إلى الله فى إحياء الميت ، فيحيه الله .

(٤) لم نرتب : لم نشك ، ولم نهم : لم نغفل ولم نسه .

(٥) لحم فلان - بفتحين - : سكت وعجز عن الجواب بسبب عيه أو لزومه الحجة .

(٦) البعد - بضمين - البعيد ، أكله - بتضعيف اللام : أضعفه ، الأمم : القرب .

(٧) يعلل الشاعر عدم إدراك بعض الناس حقيقته ﷺ بانصرافهم عن الطريق السوى ، واعتمادهم على الخرافات والأوهام .

وكل آى أنى الرسل الكرام بها
فإنه شمس فضل هم كواكبها

ثم يأخذ فى ذكر بعض شمائله المادية ، وأفضاله الجسمية ، التى زانتها شمائله الروحية ،
وأفضاله الخلقية ، متوسلاً فى ذلك بشئ الأساليب البيانية ، فى انطلاقة صادقة خالصة :

أكرم بخلق نبي زانه خلُق
بالحسن مشتمل ، بالبشر مُتَّسِم
كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف
والبحر فى كرم ، والدهر فى هم^(١)
كأنه - وهو فرد من جلالته -
فى عسكر حين تلقاه ، وفى حشم^(٢)
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف
من مَعْدِنَى منطلق منه ومَتَّسِم
لا طيب يعدل ثربا ضم أعظمه
طوى لمنشَق منه وملتَم

فلقد ألقت عليه تلك الشمائل - فى عمومها - وتلك المكارم فى أصالتها .. من المهابة
والجلال ما جعله يبدو - فى انفراده - كأنه قائد فارس تحوطه الجنود ، ويحف به الحشم والخدم
من كل جانب ؛ فإذا ما نطق أو ابتسم تنائر اللؤلؤ الخالص من أصدافه التى تكنه وتحفظه ...
ولقد بدت تلك الشمائل والمكارم - فى أعظمه بعد دفنه - طيباً يفوق ما عرفه الناس من ألوان
الطيب ، حتى غبط عليه كل من يستنشِق رائحته أو يلثم ترابه !

مولده وما لبسه من أحداث .

ومن هنا يعود البوصيرى إلى تذكر مولده ، وما كان له من آثار وأمارات ، دلت على
مكانته ، ونبت إلى ما يعنيه هذا الميلاد لأهل الأرض جميعاً ؛ فلقد كان مولده نذيراً بنهاية
الطغيان الفارسى ، حيث زلزل إيوان كسرى ، إيماء إلى تفريق شمله وشمل من حوله ، وخمدت
نار الفرس التى ظلت مشتعلة ألف عام ، تنبئها إلى خمود سلطانهم ، وغاصت بحيرة ساوى ،
إشارة إلى تقلص ملكهم ، وزواله بعد هذا الانتشار والذيع :

أبان مولده عن طيب عُصره
يوم تفرسَ فيه الفرس أنهم
يا طيب مبتدأ منه ونحتم
قد أنذروا بحلول البؤس والثَّقم^(٣)
وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى ، غير ملتَم^(٤)
والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه ، والنهر ساهى العين من سَدَم^(٥)

(١) ترف النبات : كثر ماؤه ونضر . وشرف المكان : ارتفع .

(٢) حشم الرجل : خاصته الذين يفضون لفضبه من أهل أوجيرة أو عبيد .

(٣) تفرس فى الشئ : نظر فيه وثبت .

(٤) الإيوان : مجلس كبير على هيئة صفة واسعة ، لها سقف محمول من الأمام على عقد ، يجلس فيها كبار القوم . وانصدع
الإيوان : إنشققه .

(٥) النار : هى نار الفرس التى كانوا يعبدونها ، انطفأت حين ولد المصطفى بعد أن ظلت مشتعلة ألف عام ، والنهر : نهر
الفرات ، ساهى العين : ساكن عن الجريان ، من سدم : من حزن وهم .

وساء ساوة أن غاضت بجيرئها ورؤد واردها بالغيط حين ظمى^(١)
 كأن بالنار ما بالماء من بلل حُزنا ، وبالماء ما بالنار من ضرم^(٢)

من هنا سجل البوصيري بعض أمارات الفرحة التي عمت الكون لمقدم هذا الوليد الكريم ،
 فرأى تلك الفرحة بادية على الجن في هتافهم المرحب ، ورآها من خلال ما سطع في تلك اللحظة
 من أنوار أضاءت ما بين المشرق والمغرب ، إيماء إلى ما يعنيه مولده من تبديد للظلام ، ونشر
 لنور الفكر والعلم والعقيدة ، وإظهار للحق ونصر له ، ودحض للباطل وخلاص منه .

والجن تهتف ، والأنوار ساطعة والحق يظهر من معنى ومن كلم
 ومع توافر أسباب الظهور ، فإن الكثرة الكاثرة لم تلتفت إلى شيء من تلك الأمارات ،
 حتى كأنهم أصيبوا بالعمى ، فلم يروها على وضوحها ، أو أصيبوا بالصمم ، فلم يسمعوها شيئاً
 من هتاف الفرحة التي تردد صداها في كل مكان ، ولم يستجيبوا لما رددته كهانهم من أخبار تنبئ
 بأن دينهم المعوج لم يعد له وجود ، ولم يلتفتوا إلى ما كان من ظواهر كونية طارئة :

غمُوا وصمُوا ، فإعلان البشائر لم تُسمع ، وبارقة الإنذار لم تُشم^(٣)
 من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم بأن دينهم المعوج لم يَقُمْ
 وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب منقضة وفق ما في الأرض من صنم

لقد كان مولده ﷺ بداية عهد جديد ، أوقفت فيه الشياطين عند حدودها ، ونالهم
 بمقدمه هزيمة لم تخطر لهم ببال ، فأصبحوا عاجزين عن اختراق الفضاء ، تسمعا للغيب ، ولم يعد
 لهم على الإنس ما كان لهم من سلطان :

حتى عبدا عن طريق الوحي منهزم من الشياطين يقفو إثر منهزم
 كأنهم - هربا - أبطال أبرهة أو عسكر بالحصى من راحيته رُمى
 نبذاً به بعد تسيح بطنهما نبد المسبح من أحشاء ملتقم^(٤)

من المعجزات التي واكبت مولده صلى الله عليه وسلم ،

ومن هنا .. أخذ في ذكر أطراف من معجزاته ﷺ ، التي واكبت مولده ، لفنا لأنظار
 الناس إليه ، وتمهيدا لبعثته .. كي يخلص من ذلك إلى الحديث عن المعجزة الكبرى - وهي
 القرآن الكريم - حديثاً مستفيضاً ، فقال :
 فجاءت لدعوتيه الأشجار ساجدة تمشى إليه على ساق بلا قدم

(١) ساوة : مدينة من مدن الفرس كانت تضم بحيرة مقدسة عندهم . وغاضت البحيرة : جف ماؤها وذهب ، ووارد الماء :
 طالبه .

(٢) الضرم : شدة الحر ، أو شدة الانقاد والاشتغال .

(٣) شام السحاب : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره .

(٤) الملتقم : الحوت الذي التقم يونس عليه السلام ، والمسيح : هو يونس عليه السلام .

- كأنما سَطَّرت سَطَرا لما كَتَبت
مثل الغمامة أنَّى سار سائرة
أقسمت بالقمر المنشق إنَّ له
وما حوى الغار من خير ، ومن كرم
فالصدق في الغار ، والصدق ، لم يرما
ظنوا الحمام ، وظنوا العنكبوت على
وقاية الله أغنت عن مضاعفة
ما سامنى الدهر ضيما ، واستجرت به
ولا التمسست غنى الدارين من يده
لا تنكر الوحى من رؤياه ، إن له
وذاك حين بلوغ من نبوته
تبارك الله ما وُحى بمكسب
كم أبرأت وصبا باللمس راحته
وأحييت السنة الشهباء دعوته
بعارض جاد ، أو خلَّت البطاح بها
- فروغها من بديع الخط باللقم^(١)
تقيه حر وطيس للهجير حتى^(٢)
من قلبه نسبة مبرورة القسم^(٣)
وكل طرف من الكفار عنه عمى
وهم يقولون ما بالغار من أرم^(٤)
خير البرية لم تسج ، ولم تحم
من الدروع ، وعن عال من الأطم^(٥)
إلا ونلت جوارا منه لم يضم^(٦)
إلا استلمت الندى من خير مُستلم^(٧)
قلبا ، إذا نامت العينان لم ينم^(٨)
فليس ينكر فيه حال محتمل
ولا نبى على غيب بمتهم^(٩)
وأطلقت أربأ من ربة اللهم^(١٠)
حتى حكَّت عُرة في الأعصر الدهم^(١١)
سَيَّب من اليم ، أو سيل من العرم^(١٢)

وقد ذكر البوصيرى تلك الطائفة من معجزاته ﷺ في براعة فنية رائعة ، حيث قدمها
مزوجة بالحياة ، مقرر أنها واقع ، فالأشجار جاءت مقرة بدعوته ، معلنة - بما خطته
أغصانها - ترحيبها بالداعى والدعوة ، والغمامة لازمته ﷺ في تنقلاته ، لتقيه شدائد الحر ،
وتجاوب القمر مع مبعثه فلم يتالك نفسه من الاستجابة الخالصة ، وقام الغار - حين حل فيه مع

- (١) اللقم - بالتحريك - : الطريق الواضح .
(٢) الوطيس : حفرة يختبئ فيها ، والمركة ، والهجير : نصف النهار في القيظ خاصة .
(٣) القسم المبرور : الصادق .
(٤) رام ، يرم : برح ، لم يرما : لم يرحا ، أرمت الأرض - بفتح فكسر - : لم تبت شيئا ، والمقصود هنا : الأثر ، وأراد
- بالصدق رسول الله ﷺ ، وبالصدق : أبأ بكر رضى الله عنه .
(٥) الأطم - بضمين - : الحصن ، والبيت المرتفع .
(٦) سامه ذلا : أولاه إياه وأراده عليه ، الضيم : الدل والظلم .
(٧) الداران : الدنيا والآخرة .
(٨) يقول : إن محمدا له قلب لا ينم إذا نامت عيناه ، فلا يصح لأحد يعرف ذلك أن ينكر رؤياه الوحى في منامه .
(٩) يشير إلى ما يدعيه بعض الناس من أن النبوة مكتسبة ، مقرر أن النبوة وحى من الله تعالى واصطفا .
(١٠) الوصب - بالتحريك - : التعب ، وبكسر الصاد : المريض ، والأرب - بكسر الراء - : العاقل ، واللمم : الصغير
من الذنوب .
(١١) السنة الشهباء : السنة ذات القحط والجذب ، الغرة من كل شيء : أوله وأكرمه ، والدهم - جمع أدهم - : الأسود ،
يريد : أن دعوة محمد ﷺ حولت الجذب وحاء ، وجعلت الأيادى السود بيضاء .
(١٢) العارض : ما اعترض في الأفق من سحب ، والسبب : مجرى الماء ، العرم - بفتح فكسر - : السيل الجارف .

الصديق - بدوره على خير وجه ، فكانت تلك الظواهر الكونية معزوفة كونية ترحب بالوليد الكريم ، وتؤيده في الوقت نفسه ، وتؤدي وظيفة الحياطة له والحفظ^(١) استجابة لأمر الله إياها ، ثم عرج على ما تحقق بمقدمه ﷺ من خير ، فذكر بعض هذه الأحداث ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن المعجزة الكبرى - وهي القرآن الكريم - حديثاً مستفيضاً ، تعرض فيه لما تضمن من أسباب الإعجاز ومظاهره ، وفي سبيله إلى الخلو للحدث عن المعجزة القرآنية ، تسلل في خفة ، مجمل الحديث عن آيات نبوته ﷺ التي ظهرت في وضوح لا يحتمل الشك ، معتذراً عن عدم تقديم تلك الآيات مرتبة ، بأن تلك الآيات - كالدر - الذي إن زاده الانتظام حسناً ، فإن عدم انتظامه لا يفقده قيمته ، وعذر البوصري في ذلك يرجع إلى العجز الذي يصيب كل من يطمح إلى استيعاب شمائله ﷺ ، فذاك لا يخرج عن نطاق الآمال .

دغنى ووصفى آيات له ظهرت ظهور نار القري ليلا على علم^(١)
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قلداً غير منتظم
فما تطاول آمال المدح إلى ما فيه من كرم الأحلام والشم^(٢)

المعجزة القرآنية ،

ومن هنا يخلص إلى الحديث عن الآية الكبرى ، والمعجزة الخالدة ، حديثاً مستفيضاً ، مشيراً إلى بعض ما دار حوله من نقاش فكري مثل (حدوث القرآن وقدمه) ، مبدئياً ما يرتاح إليه من تلك الآراء في لباقة فنية ، اعتمد فيها على المقابلة :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة ، صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان ، وهي تجربنا عن المعاد ، وعن عاد ، وعن إرم^(٢)

ثم يوميء إلى ما تمتاز به المعجزة القرآنية عن معجزات الأنبياء السابقين : ويأخذ في الحديث عن بعض مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، فهو - إلى دوامه - كلام محكم ، لا يُبقى لذي عقل واع شبهة ، ولا يصمد أمامه خصم ، فسرعان ما يعود محاربه مستسلماً ، ولا يقوى على معارضته أديب - مهما كانت مقدرته الفنية - فسرعان ما ترده بلاغة القرآن على عقبه خاسماً مهزوماً ، وأنى لمخلوق بأن يأتي بشيء من مثل هذه الآيات ، ومعانيها ممتدة متوالية ، لا تتوقف عن العطاء ، بحيث تفي كل إنسان - في بيئته الخاصة ، وظروفه المتفردة - بكل حاجاته ، فهي كموج البحر في مددها المستمر الذي لا يتوقف ، وهذا هو سر عجز المحصين عن إحصاء عجائب تلك الآيات ، كما هو سر تجدد الدائم ، بحيث لا يلحق تاليها أى ملل على الرغم من

(١) العلم : الجبل ، والقري - بكسر القاف - : طعام الضيفان ، كان من عادة العرب إيقاد النار على مرتفع ليراهم الطائر والغريب ، فيتدى بها ، وينزل بهم ضيفاً .

(٢) إرم - بكسر الفتح - : قصر شاقق ، كان مقر ملك عاد قوم هود عليه السلام .

إكبابه على تلاوتها ، وتكرار ذلك مراراً ، بل إن هذه الآيات لتتقربها عين من يقرأها ؛ إذ يجدها فيها راحة الروح ، وطمأنينة النفس ، ورضا العقل واقتناعه ، حتى أصبحت تلك الآيات ظفراً للمؤمن ، توثق علاقته بالله ، وتبدد عنه المخاوف من حر نار جهنم ، حتى كأنها الماء البارد الذي تطفأ به النيران ، بل كأنها الحوض المشتعل على وسائل النقاء والصفاء ، تزال به عن العصاة خطاياهم ، ويوجهون به إلى ما يرىء ساحنهم ، وينأى بهم عن الخطأ ؛ فتبيض به وجوههم بعد أن وردوا عليه سود الوجوه من كثرة خطاياهم ومعاصيهم . وعلى الرغم من أنها - إلى هذا وذاك - أصل العدالة والاستقامة والتوازن ، لم تسلم من حسود راح ينكر قيمتها إما متجاهلاً حقيقتها الحاجة في نفسه ، وإما جهلاً منه بها ، كما يحول الرمد بين العين ، ورؤية الحقيقة الصارخة ، ويحول طول المرض بين المريض وتذوق المطعومات حتى ينكر طعم الماء .

دامت لدينا ، ففاقت كل معجزة محكمات ، فما ييقن من شبه ما حوربت قط إلا عاد من حرب قدّرت بلاغتها دعوى معارضها لها معان كموج البحر في مدد فما تعد ولا تحصى عجائبها قرّت بها عين قاريها ، فقلّ له إن تتلها خيفة من حر نار لظى كأنها الحوض ببيض الوجوه به وكالصراط ، وكالميزان معدلة لا تعجب من حسود راح ينكرها

من النسيين ، إذ جاءت ، ولم تدم لدى شقاق ، وما يثغين من حكم أعدى الأعداء إليها ملقى السلم^(١) ردّ الغيور يد الجاني عن الحرم^(٢) وفوق جوهرة في الحسن والقيم^(٣) ولا تسأم على الإكثار بالسأم^(٤) لقد ظفرت بجمل الله فاعتصم^(٥) أطفأت حرّ لظى من وردها الشيم^(٦) من العصاة ، وقد جاءوه كالخمم^(٧) فالقسط من غيرها في الناس لم يقم^(٨) تجاهلاً ، وهو عين الحاذق الفهم^(٩)

(١) الحرب - بفتح الحاء والراء - : الويل والهلاك ، السلم - بالتحريك - الاستسلام .

(٢) المعارض : الذي يدعى أنه يأتي بمثل القرآن ، الحرم - بضم ففتح - جمع حرمة : ما لا يحل انتهاكه من ذمة ، أو حق ، أو صحة ، أو نحو ذلك .

(٣) الجوهر : ما خلقت عليه جملة الشيء .

(٤) السأم : الملل ، وسامه الشيء : ألزمه إياه ، والمعنى : لا توصف الآيات القرآنية بالملل إذا أكثر التالون تلاوتها .

(٥) قرّ ، يقرّ - بكسر العين - : برد ، وسكن ، وعلى المعين قرّت عينه : سكنت وبردت ، اعتصم بالله : لجأ إليه واعتر به .

(٦) اللظى : لهب النار الخالص لا دخان فيه ، ولظى : اسم من أسماء جهنم ، وهو علم لا ينون ، شيم - بفتح فكسر - فهو شيم - بكسر العين - : برد ، يقال : ماء شيم : بارد .

(٧) الحوض : مجتمع الماء ، والخمم - بضم ففتح - : الفحم ، وكل ما احترق من النار .

(٨) عدل في أمره - بفتح العين - والعدل - عدلاً ، وعدالة ، ومعدلة بكسر الدال - : استقام ، والقسط - بكسر القاف - العدل ، وهو من المصادر الموصوف بها ، يوصف به الواحد والجمع نحو قوله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ .

(٩) حذق - بفتح حين - يحذق - بكسر العين - ، يقال : حذق فلان الشيء أو حذق فيه : أوغل في ممارسته حتى مهر فيه .

والفهم - بكسر الفاء - من جاد استعداده للتصور والاستنباط .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمَد ويُنكرُ الفم طعم الماء من سَقَم (١)

الأسراء والمعراج ،

ومن هذا الحديث عن القرآن الكريم يحس البوصيري أنه مهد بذلك لينال شرف الالتقاء بالمصطفى ﷺ ، فليفت إليه موجهاً خطابه له ببناء ندى ، يرجو به أن ينال ما يصبو إليه من رضوان وتكريم ؛ ولذلك كنى عنه ﷺ ببعض صفاته التي تناسب المقام ، فرآه خير من يقصده طالبو المعروف ، ورآه الآية الكبرى ، والنعمة العظمى . ثم أخذ في استذكار طرف من مظاهر تكريم الله إياه وتعظيمه ، قاصداً بذلك عرض إحدى معجزاته التي كانت من دلائل صدقه ، وإعزاز الله إياه ، وهى معجزة الإسراء والمعراج ، حيث أسرى به من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى في رحلة ليلية قطع فيها تلك المسافة في جزء يسير من الليل ، ثم عرج به مجتازاً السماوات العلا ، منتقلاً من سماء إلى سماء إلى أن نال المنزلة التي تقف دونها الرغبات والآمال ، بعد أن صلى بأنبياء الله إماماً ، وبارتقائه ﷺ إلى ذلك المكان وتلك المكانة فاز بما لم يفز به غيره . وحاز من الفخار ما لا يشاركه فيه أحد ، ونال جليل الرتب ، وعظيم النعم ، مما يُعد لنا نحن - أمته - مفخرة نثية بها ، فكتابه أكرم الأمم ، ومما يثقل كاهلنا بما يملئه علينا من واجبات ، حتى نظل محتفظين بما أوصلنا إليه من مكانة :

يا خير من يُمّم العافون ساحتَه	سعيًا ، وفوق مُثُون الأينقُ الرسم (٢)
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر	ومن هو النعمة العظمى لمغتَم
سريت من حرم ليللا إلى حرم	كما سرى البدر في داج من الظلم (٣)
وبث ترقى إلى أن نلت منزلة	من قاب قوسين لم تُدرك ولم تُرَم (٤)
وقدمتكم جميع الأنبياء لها	والرسل ، تقديم مخدوم على خدم
وأنت تحترق السبع الطبايق بهم	في موكب ، كنت فيه صاحب العلم (٥)
حتى إذا لم تدغ شأوا لمستبق	من الدنو ، ولا مرقى لمُسْتَيْم (٦)
خففت كل مقام بالإضافة ، إذ	نوديت بالرفع ، مثل المفرد العلم (٧)

(١) الرمذ : داء يصيب العين ، يقال : رمدت العين : انتفخت وتورمت ، والسقم : - بالتحريك بالفتح - المرض المزمن .

(٢) يمه : قصده ، العافون : طالبو المعروف ، الساحة : فضاء يكون بين الدور ، السعى : المشى ، متون جمع متن : الظهر ، الأينق جمع ناقة والأينق الرسم : التي تعدو عدوا شديدا يحدث الأثر في الأرض من شدة الوطء .

(٣) سرى : سار ليلا ، الظلام الداجى : الشديد الظلمة .

(٤) القاب : المقدار ، والقاب من القوس : ما بين المقبض وطرف القوس ، وهما قابان ، ويقال : بينهما قاب قوسين ، كناية عن القرب ، واهم يرومه : طلبه .

(٥) السبع الطبايق : السماوات السبع ، صاحب العلم : كناية عن التقدم والريادة .

(٦) الشأو : الشوط ، والأمد والغاية ، الدنو : القرب ، المرق : المصعد ، والمستم : طالب السنام والرافعة .

(٧) خففت كل مقام بالإضافة : كل من يقارن بك أو يضاف إليك يكون أقل منك ، وذلك لأن رفعتك كانت ببناء ربانى ، فأصبحت في رفعتك مثل الجبل المفرد في ارتفاعه .

كيمبا تفوز بوصل أى مستر
فحزت كل فخار غير مشترك
وجل مقدار ما ولت من رتب
بشرى لنا معشر الإسلام ، إن لنا
لما دعا الله داعينا لطاعته
عن العيون ، وسر أى مكنم^(١)
وجزت كل مقام غير مزدحم^(٢)
وعز إدراك ما أوليت من نعم^(٣)
من العناية ركننا غير منهمد^(٤)
بأكرم الرسل ، كنا أكرم الأمم

موقف المشركين من البعثة ،

ويخلص من الحديث عن تكريم الله رسوله ، وإكرام أمته ببعثته ، إلى الحديث عن موقف المشركين من تلك البعثة ، وتصوير ما نالهم من فزع حين وصلتهم تلك الأنباء ، على الرغم من الخير العميم الذى جاءهم به ، مصوراً ما نشأ عن معارضة المشركين له ، ومعاداتهم إياه ، من حروب توالى في مواقع مختلفة ، واجه فيها هؤلاء المشركون من الموت والإذلال ما أفقدهم الوعي ، وأسلمهم للخوف والاضطراب ، حتى أصبحوا يتمنون الموت ليستريحوا مما أوقعوا أنفسهم فيه من معاناة ، ووصلوا إليه من حرج ؛ إذ فوجئوا بما لم يخطر لهم على بال ، حين واجههم محمد ﷺ بهذا الجيش الصامد القوى ، على الرغم من قلة عددهم وعنادهم ، فأذهلتهم فعالهم في الحروب ، واستبسأهم الذى لم يعرف له مثيل . وكأني بالبوصيرى يرسم بهذه اللوحة وما قبلها صورتين متقابلتين ، ليثير بهذا التقابل سخرية المتلقين من هؤلاء المشركين ؛ إذ يكشف بتلك المقابلة خطئ رأى المشركين ، وسوء تقديرهم ، وجهلهم الأعمى ، الذى دفع بهم إلى هذا الموقف الهزيل ، ففضح نواياهم ومقاصدهم :

راعت قلوب العدا أبناء بعثته
مازال يلقاهاهم في كل معترك
وذكوا الفرار فكادوا يغبطون به
كناية أجفلك غفلا من الغم^(٥)
حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم^(٦)
أشلاء شالت مع العقبان والرخم^(٧)

- (١) كيمبا : كى التعليلية . وما حرف وصل يفيد التأكيد ، أى مستر : وصل مستر استاراً شديداً .
(٢) حاز : نال وملك ، وجاز المكان : سار فيه وقطعه .
(٣) جل : عظم ، الرتب جمع رتبة : المنزلة والمكانة . ولاء الأمر ، وأولاه الأمر : جعله والياً عليه ، وتممكتا منه .
(٤) المعشر : كل جماعة أمرهم واحد ، والركن : ما يتقوى به من ملك وجند وقوم ، ويكنى بالعناية عن الله سبحانه وتعالى ، تنبها إلى رضاه عنا ، ومناصرته إيانا .
(٥) راعه : أفرعه ، البأة : الصوت ، أجفله : أزعجه وأفرعه ، الغم الغفل : الغم الغافلة غير المتبهة .
(٦) المعرك : المعركة ، القنا : بفتح القاف - : الرماح ، جمع قنات ، الرضم : ما يوضع عليه اللحم من خشب وغيره حتى يتمكن الجزار من تقطيعه .
(٧) غبط فلانا : غنى مثل ماله من النعمة . أشلاء - جمع شلو بكسر الشين - : العضو . شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، والعقبان - جمع عقاب - والرخم نوعان من الطيور القوية آكلة اللحوم ، يقول : إنهم من شدة معاناتهم ورعبهم أصبحوا يتمنون أن لو كانوا قطعاً من اللحم ارتفعت بها الطيور المفترسة .

تمضى الليالى ، ولا يدرون عدتها ما لم تكن من لىالى الأشهر الحرم^(١)
 كأنما الدين ضيف حل ساحتهم بكل قرم إلى لحم العدا قرم^(٢)
 يجير بحر خميس فوق ساجحة يرمى موج من الأبطال ملتطم^(٣)
 من كل منتدب لله محتسب يسطو بمستأصل للكفر مضطلم^(٤)

لقد اندفع أعداء الحق من غير وعى يحاولون أن يوقفوا مد الإسلام ، بعد أن صور لهم الوهم أن محمداً جاءهم بالشر الجارف الذى يقضى على زعاماتهم ، ويبدد سلطانهم ، فأشعلوها حرباً مستعرة ، قابلها الرسول فى مبتدأ الأمر بالحلم والصبر ، ولكن إصرارهم على المواجهة كان داعياً لمتاجزتهم الحرب ، وملاقاتهم فى مواطن عديدة . ذاقوا فيها مرارة الهزيمة ، ورأوا ظلام الخيبة ، خصوصاً حين أصبح للإسلام وللمسلمين دولة منيعة ، تواصل غموها وامتدادها فى كل وجهة ، يرفعها الله ، ويكفلها رسوله ، ويقودها صفوة الرجال ، وواجه هؤلاء المشركون فى حروبهم تلك جبلا رواسى ، لا يعرف صمودهم فى الحرب ، ولا مضاء عزائمهم إلا من اصطلى بنارهم ، وكتب عليه أن يلقاتهم ، حتى أصبحت ميادين المعارك شهوداً تنطق بمعجزات الحرب ، وما جرى فيها على أيدي هؤلاء الفرسان البواسل من أهوال ، زلزلت الشرك وأعوانه ، ومن شاء أن يتأكد من ذلك فليسأل حنيناً ، وبدرأ ، وأحدًا عما لاقاه المشركون ، حين كانت جيوش المسلمين تعود من المعركة وسيوفهم قد صبغت باللون الأحمر ، من كثرة ما شربت من دماء الأعداء :

حتى غدت ملء الإسلام ، وهى بهم من بعد غربتها ، موصولة الرحم
 مكفولة أبداً منهم بخير أب وغير بقل ، فلم يقيم ، ولم يقيم^(٥)
 هم الجبال ؛ فسل عنهم مضادقهم ماذا رأى منهم فى كل مضطلم
 وسل حنيناً ، وسل بدرأ ، وسل أحداً فصول خفف لهم أدهى من الوخم^(٦)
 المصدري البيض حمرًا ، بعدما وردت من العدا كل مسود من اللمم^(٧)

- (١) الأشهر الحرم (ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، رجب) .
 (٢) القرم - يفتح فسكون - : السيد ، والقرم - يفتح فكسر - شديد الشهوة إلى اللحم . يقول : لقد أذهلت المفاجأة أعداء الإسلام فأصبحوا لا يميزون الأيام ، ولا يدرون عديتها ، حتى لكان الإسلام رماهم بسادة مفترسين .
 (٣) الخميس : الجيش الجرار ، سمى بذلك لتكوينه من خمس فرق ، الساجحة : الخيل السريعة ، الموج المتطعم : ضرب بعضها بعضا ، والبيت كله كناية عن كثرة الجيش .
 (٤) المنتدب بكسر الدال : المستجيب لأمر الله ، اغتصب - بكسر السين - : الذى يدخر أجره عند الله ، سطا بالكفار : بطش بهم وقهرهم ، اضطلمه : استأصله وأباده .
 (٥) كفله : تعهده ورعاه ، البقل - يفتح فسكون المهملة - الزوج . يم الصبي - يفتح التاء فى الماضي وكسرها فى المضارع - : فقد أباه قبل البلوغ - ويم الصغير من الحيوان : مات أمه أو انقطع عنها . آمت المرأة تيم : فقدت زوجها ، أو أقامت بلا زوج بكرا أو نيا .
 (٦) الفصول جمع فصل : الفروع والأنواع ، الحلف : الهلاك . أدهى : أخذ بلاء . الوخم - يفتح الواو والحاء - : الوباء .
 (٧) أصدر : عاد بدوابه بعد أن أوردها وسقاها ، والمصدرو البيض : الراجعون من المعركة بالسيوف . وردت الدواب : شربت ، اللمم - بكسر اللام - جمع لمة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

ومن هذا البيت الأخير يسترسل البوصيرى في الحديث عن أبطال المسلمين ، الذين تحققت على أيديهم هزائم المشركين المتتالية ؛ فهؤلاء الأبطال الذين يقوم عليهم هذا الجيش ، والذين نهضوا مستجيبين لأمر الله - كما أوضح في الآيات السابقة - ومحتسين أجرهم على الله ، يخوضون الحروب فوق خيول قوية ، كأنهم الجبال الرواسى .. هؤلاء الفرسان يعودون من تلك المعارك وقد أصبحت سيوفهم حمراء اللون من كثرة ما أراقت من دماء ، حتى يخيل لمن يشاهد المعركة أنهم كاتبون يتقنون الكتابة كانت أقلامهم السيوف والرماح ، وكانت أوراقهم أجسام الأعداء التي لم يتركوا فيها مكاناً خالياً من خطوطهم . ولا غرابة في ذلك ؛ فهم جنود باعوا أنفسهم لله ، وهم - لذلك - دائمو الاستعداد لمواجهة العدو كاملاً ، حتى أصبحوا معروفين بعلاماتهم الخاصة التي تميزهم من غيرهم ، كما يميز الورد من غيره رائحته الفواحة ، فإذا هبت رياح النصر تحمل إلينا أنباء انتصاراتهم ، جاءتنا محملة بروائحهم الطيبة ، حتى لكأن كل جندي زهرة عطرة ، وكأنهم في ثباتهم على ظهور خيولهم مع حركتهم الدائبة نبت برز في قمم المرتفعات ، فملأوا قلوب العدا رعباً وفزعاً ، لم يجدوا إزاءه بديلاً من الهرب والفرار ، من غير تدبير ولا نظام :

(١) والكاتسين بشمر الخط ما تركت	أقلامهم حرف جسم غير متعجم
شاكى السلاح ، لهم سيما تميزهم	والورد يمتاز بالسيما من السلم
ثهدى إليك رياح النصر نشرهم	فحسب الزهر في الأكام كمي
كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا	من شدة الخزم ، لا من شدة الخزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا	فما تفرق بين البهم والبهم

والبوصيرى - في مدحه صحابة رسول الله ﷺ ، وجنود الإسلام - لا يمدحهم لأشخاصهم ، ولكنه يمدح فعالهم التي استمدوها من هدى المصطفى ﷺ ، وإخلاصه ، وحكيم قيادته ، ووطيد اتصاله بالله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك لم يستغرق في مدح أبطال المسلمين

- (١) السمر - بضم السين وسكون الميم - جمع أسمر : الرمح ، الخط : المنظر ، الكتابة ، الحرف من كل شيء : طرفه وجانبه ، المعجم ، يقال : غجم الحرف : أزال إبهامه بالنقط والشكل ، يقصد أن جنود المسلمين لم يتركوا في أجسام أعدائهم مكاناً خالياً من الحرب أو الطعن .
- (٢) شاكى السلاح : نام السلاح وكامل الاستعداد ، السيما : العلامة ، والسلم - بالتحريك بالفتح - شجر له ثوك يشبه شجر الورد .
- (٣) النشر : الرمح الطيبة ، الأكام جمع كم - بضم الكاف - وعاء النور ، والكمي - بفتح الكاف وكسر الميم - الشجاع المقدام الجريء ، كان عليه سلاح أم لم يكن ، وهو أيضاً لابس السلاح .
- (٤) الربا - بضم الراء - جمع روبة : ما ارتفع من الأرض ، الخزم في الأمر والزأى - بفتح فسكون - ضبطه وإتقانه ، جمعه خزمة بالتحريك ، والخزم - بضم الخاء والزأى - جمع حزام : ما حزم به من خيل ونحوه .
- (٥) البأس : الشدة في الحرب ، والفرق - بفتح الفاء والراء - : الحرف والرتب واشتداد الجزع ، البهم - بفتح فسكون - : جمع بجم بفتح الباء ، وتغلط البهائم ، والبهم - بضم الباء وفتح الهاء - جمع بجم - بضم الباء وسكون الهاء - : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته .

طويلا ، ثم عاد إلى موضوعه الأصيل ، فربط هذه البطولات الرائعة بصحبة رسول الله ﷺ ، وولايته إياهم ، وتوجيهه الرباني ، حتى جعل منهم سيوف الله المشرعة في وجه المعاندين والمشركين .

وبذلك الوعي الفني يبرهن البوصيري على أن موضوعه لم يغب عنه لحظة واحدة ، وأنه يتنقل فيه من فكرة إلى فكرة وفق تخطيط فني بارع ، يماثل في دقته التخطيط الهندسي ، ويؤكد أن قصيدته ذات وحدة موضوعية وفنية متواصلة ، تتلاحق فيها الدفقات النفسية ، والسبحات الروحية الواعية ، من غير شتات ولا تمزيق .

نعم .. إن البوصيري وظف مديحه جنود المسلمين ، في مديحه المصطفى ﷺ ؛ لأن العلاقة وطيدة بينهم في عالمهم الطيبة وبين رسول الله ﷺ ، فما يمدحون به ، إنما هو بعض ما نالوه بصحبته رسول الله ﷺ ، والتزامهم أثره وهده .

ومن هذا المنطلق رأى البوصيري أن كل جندي ينصره رسول الله ﷺ يصبح مصدر رعب للأسد في حصونها ، وأن كل جندي يواليه رسول الله ﷺ يلازمه النصر ، ولا غرو في ذلك ، فرسول الله ﷺ قد حصن أمته بقيم هذه الملة الخنيفية المستقيمة ، فنال كل فرد مسلم يتمسك بإسلامه كل أسباب النصر والعز ، كأنه ﷺ بذلك ليث قاد أشباله إلى حصنه الحصين :

ومن تكن برسول الله نصرته	إن تلقه الأسد في آجامها تجم
ولن ترى من ولي غير منتصر	به ، ولا من عدو غير منقضم
أحل أمته في حرز ملته	كالليث حل مع الأشبال في أجسم

غاية البوصيري من مدحته :

هذا الرسول الذي كان وراء تلك الانتصارات الباهرة ، وتلك التغييرات الجذرية التي حولت العرب البداة إلى مصادر إشعاع حضارى تزهو بهم الإنسانية .. هذا الرسول لم يسلم من طعن الطاعنين ، ومحاولاتهم الدائبة للانتقاص منه ، حتى كان موضع جدل دائم على مدى هذه القرون المتطاولة ، اشتبك فيها الطاعنون مع أنصار الحقيقة الذين توازروهم الآيات الكريمة في الكشف عن مكانه ومكانته وتصريح بما تمدهم به من براهين واضحة صادقة - في النهاية دائما - كل أولئك الجدلين .

وفي الحقيقة ... إن هؤلاء الجدلين لم يكونوا في حاجة إلى جدل وحوار - لو كانوا حريصين على الحقيقة - إذ هم سخروا عقولهم - بعد تجريدها من الهوى وأسباب الزيف - في النظر العقلي ، والبحث العلمي عن حقيقة محمد ﷺ في ثنايا الوقائع التاريخية منذ ولد بين الجاهليين يتيما ، لا راعى له إلا الله جل شأنه ، وتأملوا فيما قدمه من فكر وعلم خلق وآداب ، على الرغم من أميته !.

ثم يقرر أنه شرف بتجريد نفسه نهائياً لرسول الله ﷺ بتقديم تلك المداخل لحاجته هو إلى ما يعود عليه من ورائها ، لا لحاجة المصطفى ﷺ إلى مدح ماح ، فهو إنما يمدح الرسول الكريم ﷺ سعياً إلى تخلصه مما ارتكبه طوال عمره من ذنوب وآثام ، تمثلت في قوله الشعر في أغراض غير إسلامية ، ومدحه الآخرين بقصد التقرب إليهم ، والحصول على عطاياهم ، حتى كنت بهذا وذلك كالأنعام الضالة ، فقد كنت أثناء ذلك مستسلماً لغى الصبا ، فلم أحصل من مسعاه إلا على الآثام والندم على ما أضعته من عمرى في تلك التجارة الخاسرة ، وبيعى آخرقى بتلك الملاذ الدنيوية الفانية :

كم جدلت كلمات الله من جدل	فيه ، وكم خصم البرهان من خصم ^(١)
كفأك بالعلم في الأمى معجزة	في الجاهلية والتأديب في التيم
خدمته بمدح ، أستقيل به	ذنوب غفر مضى في الشعر والخدم ^(٢)
إذ قللاني ما تخشى عواقبه	كأنسى بهما هدي من النعم ^(٣)
أطعت غي الصبا في الحالتين ، وما	حصلت إلا على الآثام والندم ^(٤)
فيها خسارة نفس في تجارتها	لم تشتري الدين بالدنيا ، ولم تسم ^(٥)
ومن يبع أجلا منه بعاجلة	يئن له العبن في بيع وفي سلم ^(٦)

وبعد أن استعرض البوصيري بعض ما كان عليه في أوائل حياته ، مما تأسف له أخيراً ، وندم على صدوره منه ، ورجا الله أن يغفره له ، ويعفو عنه ، ويقبل عودته إلى الاستقامة ... كان له من الصفاء النفسي ، والروحي ، والذهني ، ما أنطقه بذلك الكلام الحكيم !

ثم انطلق - مع آماله في العفو والقبول - غامراً نفسه في جو تلفه تلك الآمال العريضة الباسمة ، مبدئاً حسرتة ، وخوفه الشديد من أن يتخلى عنه رسول الله ﷺ يوم المعاد ، معللاً ذلك الأمل بعودته إلى الاستقامة ، وإكرامه باسم محمد ، الذي قد يمنح به من الذمة لديه ﷺ ما يطمئنه إلى شفاعته له .

ولكنه يعود فيزيج عن نفسه استشعار القنوط واليأس ، وينتقل بها إلى جو تنتشر فيه رحمة

(١) جدلته : صرعه ، الجدل - بفتح فكسر - : من يبالغ في الجدل ، ويشط في الخصومة ، خصمه البرهان : غلبه في الخصام ، الخصم - بفتح فكسر - : العالم بالخصومة وإن لم يخاصم .

(٢) أستقيل : أطلب الإقالة من الذنوب ، بالعفو عنها ، والخدم - بكسر ففتح - جمع خدمة : القيام بحاجة الغير تقرباً إليه ، يريد أنه تقرب إلى رسول الله ﷺ بمدح يرجو به من الله أن يعفو عما سلف منه بشعره ، حين توسل به لتحقيق مكاسب دنيوية .

(٣) قلده : جعل القلادة في عنقه ، الهدى : ما يهدي إلى الحرم من النعم ، والنعم - بفتح النون والعين - : المال السام .

(٤) الغي - بالفتح - : الضلال .

(٥) سام المشتري السلعة : طلب ابتاعها .

(٦) غبه في البيع غبنا : غلبه ونقصه ، والسلم - بالتحريك - : نوع من البيع ، وهو بيع شيء موصوف في الذمة بشئ عاجل .

الله تعالى ، انتشاراً شاملاً ، ويتوسل في ذلك بالإقبال على رسول الله ﷺ ، منادياً ، مستجيراً ، راجياً من جاهه ﷺ ، وسعة صدره ، وكرمه الفيض العميم أن لا يضيق به ، وأن يشفع له عند الكريم المنتقم جل شأنه ؛ فإن جوده ﷺ شمل الدنيا والآخرة .. فيقول :

إن آت ذنباً ، فما عهدى بمنقضى
فإن لى ذمة منه بتسميتى
إن لم يكن فى معادى آخذاً ييدى
حاشاه أن يُحرم الراجى مكارمه
ومنذ ألزمت أفكارى مدائح
ولن يفوت الغنى منه يداً تربت
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت
يا أكرم الخلق ، ما لى من ألوذ به
ولن يضيق - رسول الله - جاهك بى
فإن من جودك الدنيا وضرتها

من النبى ، ولا حبل بمنصرم^(١)
محمداً ، وهو أوفى الخلق بالذم^(٢)
فضلاً ، وإلا فقل : يازلة القدم^(٣)
أو يرجع الجار منه غير محترم^(٤)
وجدته خلاصى خير ملتزم
إن الحيا يُنبت الأزهار فى الأكَم^(٥)
يدا زهير ، بما أثنى على هرم^(٦)
سواك عند حلول الحادث العمم^(٧)
إذا الكريم تحلى باسم منتقم
ومن علومك علم اللوح والقلم^(٨)

البوصيرى بين الأمان والغوف :

وفى هذا الجو الروحانى الشفيف ، يشعر البوصيرى - مع توجهه إلى رسول الله ﷺ - بشيء من الأمان والطمأنينة ؛ فيتجه إلى نفسه لينشر حولها ما شعر به ، ويطمئنها إلى حصولها على ما ترجوه من عفو ورحمة ، ويدعوها إلى أن تنضو عنها ثوب القنوط الذى ألقاه عليها خوفها من عذاب الله ، معللاً ذلك بأن الكبائر عند عفو الله تعالى ، تصير كالصغائر من الذنوب . والبوصيرى - فى هذا الموقف الروحانى الرخى - يخشى أن يبلغ به الأمل مبلغاً يغفله عن واقعه ، وينسيه ما وقع فيه من أخطاء وآثام .. فيعترف بما ارتكب من معاص ، ولكنه - بآماله الرحبية فى الله - يرجو أن يمنحه الله من الرحمة بقدر ما وقع فيه من عصيان ؛ اطمئناناً منه إلى سعة رحمة ربه .

(١) نقض العهد : نكته ، الخيل : يعنى ما به الوصل ، المنصرم : المقطع .

(٢) الذمة : العهد والأمان والكفالة ، والذم : جمع ذمة .

(٣) المعاد : المرجع والمصير ، والحياة الآخرة ، والفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، والزلة - بالفتح - : السقطة والخطيئة .

(٤) المكارم : جمع المكرمة .

(٥) ترب فلان - بفتح فكسر - : افتقر ، يقال فى الدعاء : تربت يداه : غمر ، الحيا : المطر ، والأكَم - جمع الأكمة - : الربوة .

(٦) زهير بن أبى سلمى ، الشاعر الجاهلى ، اشتهر بمديحته ، وهرم : ابن سنان ، أحد الساعين لإقرار السلم ، وقد نال الكثير من مدائح زهير .

(٧) لاذ بالشئ : لجأ إليه واستتر به ، واستغاث ، العمم - بفتح فكسر - والعميم : الشامل ، التام الطويل من كل شيء ، والحادث العمم : يقصد يوم القيامة .

(٨) الضرة - بفتح الضاد - : إحدى زوجتى الرجل ، والمقصود بضرة الدنيا : الآخرة

ولأنه يدرك أن ذلك على خلاف المعهود في تعامل المخلوقين ، يتجه بالنداء إلى الله ربه ، راجياً منه أن يحقق له ما يرجوه منه ، وما يؤمله فيه ، وأن يلطف به ، ولا يحاسبه على ذنبه ؛ فيعامله بالرحمة والفضل ، ولا يعامله بالقسطاس والعدل .

وحرصاً منه على استجابة الله تعالى لما يرجوه ، يتقرب إلى الله بسؤاله لنبه ﷺ الصلاة عليه صلاة دائمة ممتدة . وتنازر المشاعر الفنية مع المشاعر الروحية ، فيجعل من سؤاله هذا خاتمة مدحته ، مؤكداً أنه - في كل ما قدم - لم يشذ عن الصدق الفني ، ولا الصدق الروحي .. رضى الله تعالى عنه .. وذلك قوله :

يا نفسُ لا تقنطى من زلة عظمت	إن الكبائر في الغفران كالللم
لعسل رحمة ربي حين يقسمها	تأق على حسب العصيان في القسم
يارب ، واجعل رجائي غير منعكس	لديك ، واجعل حسابي غير منخرم
والطف بعبدك في الدارين ، إن له	صبراً ، متى ثدغه الأهوال ينهزم
وأذن لسحب صلاة منك دائمة	على النبي ، بمنهل ، ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا	وأطرب العيس حادى العيس بالنعيم

التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء لصحابته :

وهنا .. يجد البوصيرى فرصة سانحة ، ينطلق لسانه فيها بالدعاء لصحابة رسول الله ﷺ ، ورضى الله تعالى عنهم جميعاً ، متقرباً بذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ لعلمه بحبه إياهم ، طمعاً منه في أن يكون ذلك وسيلة لتحقيق آماله ، ويبدأ ذلك بتخصيص الخلفاء الراشدين الأربعة ، ثم يعمم ، فيذكر آل والصحب والتابعين ؛ فما كان عليه هؤلاء جميعاً من تقى وصلاح يؤهلهم لأن يتوسل إلى الله بالدعاء لهم ، وتكريمهم .

عندئذ يستشعر البوصيرى بواد رحمة ربه تنهل عليه ، فيتجه إلى الله بالرجاء متوسلاً بالمصطفى ﷺ أن يبلغه مقاصده ، وأن يحقق له آماله ، وأن يغفر له ما مضى . متعلقاً في ذلك

-
- (١) الكبائر - جمع الكبيرة - : الإثم الكبير المنهى عنه شرعاً واللمم - بالفتح - : الصغير من الذنوب .
 (٢) القسم - بكسر ففتح - جمع القسمة : النصيب .
 (٣) انعكس الشيء : ارتد آخره على أوله ، وانقلب ، والمراد : غير مخالف لأمل فيك . الحساب : التقدير والاعتقاد . المنخرم : المنقطع أو الناقص ، يقول : يا رب اجعل أمل حقيقة ، واعتقادي فيك واقعاً ، تنفيذاً لوعدك بالاستجابة .
 (٤) الداران : الدنيا والآخرة . الأهوال - جمع أهول - : الفزع والأمر الشديد ، يريد : إن صبري لا يحتمل الأهوال ، فأنا في حاجة إلى لطفك يا رب .
 (٥) السحب - بضم فسكون - جمع السحابة ، هل المطر : اشتد انصبابه ، المنهل : المطر نزل منصباً ، المطر المنسجم : المنصب .
 (٦) رنحت الريح الغصن : أمالته يميناً وشمالاً ، عذبات - جمع عذبة بفتحين - : طرف الشيء ، البان : ضرب من الشجر ، سبط القوام ، لين ، ورقه كورق الصفصاف ، ويشبه به الحسان في الطول واللين ، الصبا - بالفتح - : ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار ، العيس - جمع عيساء - من الإبل : الذي يخالط يياضه ذفرة ، الحادى : الذى يسوق الإبل بالحداء (وهو الغناء) .

بكرمه الواسع جل شأنه ، وتدفعه ثقته بالله إلى أن يعم المسلمين جميعاً بما يرجوه لنفسه من مغفرة ، متوسلاً في ذلك بكتاب الله المبين ، وجاه رسوله العظيم .

وبذلك يتبهاً لخم قصيدته ، ولكنه يجدها فرصة ليكمل إفراغ الشحنة الإيمانية الروحية فيحمد الله ابتداءً وانتهاءً على ما أمده به من منطق وقدرة بيانية استطاع بهما أن ينقل إلينا صورة من مشاعره الفياضة بحب رسول الله ﷺ ، فجاءت تلك المدحة على تلك الهيئة ، متضمنة ستين ومائة بيت ، أملاً منه في أن يفرج الله بها كرب المسلمين .

ثم الرضا عن أبى بكر ، وعن عمر	وعن علي ، وعن عثمان ذى الكرم
والآل ، والصحب ، ثم التابعين ؛ فهم	أهل الثقى والثقى والحلم ، والكرم ^(١)
يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا	واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهي لكل المسلمين بما	يتلون في المسجد الأقصى ، وفي الحرم ^(٢)
بجاه من يتبه في طيبة حرم	واسمه قسم من أعظم القسم ^(٣)
وهذه برودة اختار قد ختمت	والحمد لله في بدء وفي ختم
أيامها قد أتت ستين مع مائة	فرج بها كربنا يا واسع الكرم

من هنا ... يتبين للنظر المتأنى بحيدة أن البوصيري لم يكن المداح الذى يجلب المحاسن ليصقها بممدوحه ، ولا بالذى يعميه الغرض عن المعايير ، فلا يرى إلا محاسن ممدوحه ، ولا بالذى يتأثر بالموقف الطارئ فيرى في ممدوحه ما قد لا يراه في حالة أخرى إذا ما تغيرت ملاسبات الموقف ... ولكنه الوصاف ، دقيق الحس ، الذى لم يقف بوصفه عند حدود السطح ... ولكنه الإنسان المؤمن ، الأمين ، البصير ، اليقظ ، الذى تفيض نفسه بمشاعر الحب ، والذى يتحرك لسانه وقلمه بعواطفه ، ووجدانه ، وعقله ، في تلك الرحلة الإيمانية مع سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، في بعض مراحل الحيوة ، ليقدم لنا ما اجتمعت على رؤيته مشاعره وعواطفه ، ووجدانه ، وعقله ، وبصيرته ، وبصره ، حيث كانت تلك القصيدة .

ولذلك ... نرى أن البوصيري قد تحرر من أسر التاريخ والمؤرخين ، فقدم الحدث التاريخي بعد أن مزجه بروحه ووجدانه ، فسلم من جفاف المادة العلمية ، وبدأ لنا فيض وجدان ، ممزوجاً بتحليق خيال ، في أجواء تعبق بصفاء الروح ، فلا يدرى المتلقى أهو أمام مؤرخ شاعر ، أم هو أمام شاعر مصور ؟! أهو أمام أحداث تروى ، أم هو أمام عواطف تتدفق ؟! أهو أمام عقل ينطق بالحكمة ، أم هو أمام صوفي يخلق في الكون بأبعاده ؟!

فإذا ما رجع بصره ، واستقرأ بصيرته تبين له أنه أمام هذا كله !

(١) النقى : الصفاء والنقاء والظافة .

(٢) ما يتلون : كناية عن القرآن الكريم

(٣) طيبة : أحد أسماء مدينة رسول الله ﷺ ومن يته في طيبة كناية عنه ﷺ .



ثانياً

شعراؤنا المعاصرون
في معارضاتهم

محمود سامي البارودي في قصيدته (كشف الغمة في مدح سيد الأمة)

لا ريب في أن رائد الشعراء المعاصرين محمود سامي البارودي كان من بين عشرات للشعراء الذين تلقوا قصيدة البردة النبوية ، ووقعت من نفوسهم موقع البلسم الشافي ؛ إذ وجدوا أنفسهم بها في حالة من التجرد ، والصفاء ، تهيئهم لاجتياز الشدائد والآلام ، أيأ كان مصدر تلك الشدائد والآلام .

ولقد كان تلقى البارودي لقصيدة البردة متميزاً عن تلقى غيره ، شأن الشعراء والأدباء ، فقد وجد فيها — إلى الآثار النفسية — مؤثراً فنياً ، وجهه إلى أن يحتذى البوصيري فيها ، ويقدم على منهجه ما يرجو به أن يكون أهلاً لشفاعة سيد المرسلين . فينال رضوان ربه ، وينجو من هول المحشر .

ولقد حرص البارودي على أن يعلن عن مقاصده في مفتتح القصيدة ؛ إذ يقول :^(١) « وبعد فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبي ﷺ ، من حين مولده الكريم ، إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام ، وسميتها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) ، ورغبتى إلى الله أن تكون لي ذريعة أمت بها يوم المعياذ ؛ وسلماً إلى النجاة من هول المحشر ، اللهم فحقق رغبتى إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول . آمين » .

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة . ص ٢ قام بطبعها ومراجعتها عثمان خليل طبع المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر في رمضان

فالقصيد - كما أوضح البارودي - تاريخ حياة ، وسيرة ذات ، ووصف صادق ، قدم فيه تصويره لسيد الأمة ﷺ ، وليست مجالا يقتنص فيه المدحة من هنا أو من هناك لينسبها إلى ممدوحه ، سواء كان ذلك عن رؤية سديدة صادقة ، أم كان عن رؤية مرجوة لتحقيق مأرب ، أم كان عن رؤية ملفقة مزيفة ، نفاقاً للمدح وتملقاً ، على نحو ما استقر عليه كثيرون من دارسي الأدب وناقديه !

وعنوان القصيدة يكشف عن السر وراء توجه البارودي إلى مدح سيد الأمة صلوات الله وسلامه عليه ، فهي (كشف الغمة) ؛ إيماء منه إلى أنه يأمل من ورائها إلى التخلص مما تضيق به حياته ، وتبديد تلك الغم التي تغشى نفسه !

ولقد أشار البارودي صراحة إلى ذلك في تعليقه تسمية قصيدته ، كما نبه إلى اعتماده على البوصيري في برده ، واحتذائه إياه ، بما ذكره في مطلع قصيدته من ألفاظ استعار بعضها من البوصيري ، إلى جانب المنهج الفني ، والإيقاع الموسيقي ، حيث التزم فيها بحر البسيط الذي التزمه البوصيري .

وإذا كان نفس البوصيري الشعري وقف به عند حدود ستين ومائة بيت فحسب ، أفرغ فيها ما ماجت به نفسه من دقات شعورية نحو رسول الله ﷺ فإن نفس البارودي كان أطول حيث امتدت به القصيدة فشغلت مساحة سبعة وأربعين وأربعمائة بيت ، اشتملت على نحو عشر أفكار ، فصل فيها ما أجمله البوصيري ، وقدم ما استقرت عليه نفسه ، واهتدى إليه فكره من سيرة سيدنا محمد ﷺ .

فالبارودي لم يرتبط بالبوصيري في تناول الأحداث وتتابعها ؛ لأن البوصيري أسلس قياده الفني للدقات الوجدانية الفوارة التي كانت تمر بها نفسه ، بينما حرص البارودي على أن يقوده الواقع التاريخي للسيرة النبوية ، كما قدمه ابن هشام في كتابه ، على نحو ما صرح به البارودي نفسه في مقدمة قصيدته .

ومن النظر إلى مطلع البارودي في قصيدته ، يتضح أنه بدأها - على عادة الكثيرين من شعراء العربية الأقدمين - ناسباً ، مستنجداً بمن يخف إليه ليعينه على اجتياز ما يعاني من خطوب ألمت به ، لمقامه في بلدة مثل جوف العير ؛ فيتوجه إلى البرق ، يناشده أن يقصد (داره العلم) ، سائلاً الغمام إلى حى بذى سلم - حيث منازل أحبابه - كي تعم أرض الروحاء بغيثها الغزير الذي يروى الزرع والنعم ، ويجعلها لوحة فنان بما يمنح أزهارها من رونق يكسو التلال العارية ... يتوجه إلى البرق بهذه المناشدة ، على الرغم من أن ما به من ظمأ يجعله أحوج إلى الري من تلك الدار ، ولكنه الكرم الذي فطرت عليه ؛ خصوصاً أن جوانحي تنطوى على هوى مكتوم لأهل هذه المنازل ، لم أتفوه به لأحد ؛ لأن الصباية وشدة الوجد قد تلعب بي ، فيبدو على ما

حرصت على كتابته ، وتجعلنى أسعى إلى من يحدثنى عنها ، ويحرك نحوها أشجائى ، فشوق إلى تلك الأيام أقوى من حازم رأى ، وعالى المهم .. وفى ذلك يقول :

يا رائد البرق ، يمم دارة العلم	واخذ الغمام إلى حيّ بذى سلم ^(١)
وإن مررت على الروححاء فامر لها	أخلاف سارية ، هتانة القديم ^(٢)
من الغزار اللواقى فى حوالها	رى النواهل من زرع ومن نغم ^(٣)
إذا استهلّت بأرض غنمت يدها	برداً من الثور ، يكسو عارى الأك ^(٤)
ترى النبات بها خضراً سنابله	يختال فى حلة مؤشبة العلم ^(٥)
أدعو، إلى الدار بالسقى ، وى ظمأ	أحق بالرّى ، لكنى أخو كرم
منازلٌ لهواها بين جانحتى	وديعه سرّها لم يتصل بفمى ^(٦)
إذا تنسّمت منها نفحة لعبت	بى الصباية لغب الريح بالعلم ^(٧)
أدز على السمع ذكراها ، فإن لها	فى القلب منزلة مرعية الذم
عهد تولى ، وأبقى فى الفؤاد له	شوقاً يقل شباة الرأى والهمم ^(٨)
إذا تذكرته لاحت مخائله	للعين ، حتى كأنى منه فى حلم ^(٩)
فما على الدهر لو رقت شمائله	فعاد بالوصل ، أو ألقى يد السلم ^(١٠)

ولكن ذكريات الأحباب ، تنتقل بالشاعر إلى استعادة ما تناوشه من خطوط لا تثبت أمام وقعها مناكب الأرض ؛ كانت عليه أعنف مما تركه شوقه للأحبة الذين تولى عهدهم ؛ فقد شب فى بلدة خربة ، لا يرى فيها واحداً يسلك مسلك العقلاء ؛ فالجميع - من حوله - يتخذون من الأصنام آلهة يسجدون لها ، ويحنون عليها ، حتى أصبح بينهم غريباً ، لا ينال الاستقرار إلا على

-
- (١) الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، والعلم : اسم جبل ، وذو سلم : مكان بين مكة والمدينة .
(٢) مرى فلان الشيء - بالتحريك - : استخرجه ، ومرى الريح السحاب : أنزلت منه المطر ، والأخلاف - بالفتح - جمع خلف بكسر الخاء : ضرع الناقة ، والسارية من السحاب : المطرة ليل ، هتت السماء : هطلت وتابع مطرها ، الديم جمع الديمة - : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق .
(٣) الغزار - بكسر الغين - جمع الغزير : الكثير ، الحوالب - جمع الحالب - : منابع اللبن ، النواهل - جمع الناهلة - : الإبل الجلياع ، والنعم - بالتحريك - : المال السام .
(٤) استهل المطر : اشتد انصبابه ، واستهل السحاب : قطر قطرا له صوت ، نغم الشيء : نقشه وزخرفته ، البرد - بضم فسكون - : كساء مخبط يلتحف به . والنور - بفتح فسكون - : الزهر الأبيض ، والأك - جمع الأكمة - : الل .
(٥) الحلة - بالضم - : الثوب الجديد ، المؤشبة : المنقوشة ، والعلم - بالتحريك - : رسم فى القرب .
(٦) الجانحة : الضلع القصيرة مما يلي الصدر .
(٧) تنسم الرجل : تنفس ، النفحة : الطيب الذى ترتاح له النفس ، الصباية - بالفتح - : الشوق ، العلم - بالتحريك - : الراية .
(٨) فل السيف : كسره فى حدة ، الشباة لكل شيء : حد طرفه ، المهمم - جمع الهمة - : العزم القوى .
(٩) مخايل - جمع مخيلة - بفتح فكسر - : الدلائل ، الحلم - بضمعين - : ما يراه النائم فى نومه .
(١٠) الشمائل : الخلق - بالضم - ورقة الشمائل : سهولتها ولينها ، ألقى الشيء : طرحه ، وألقى إليه القول : أبلغه إياه ، والسلم - بالتحريك - الاستسلام والتسليم .

قلق ، ولا يستشعر لذة إلا على ألم ، يبحث عن واحد يأنس إليه فلا يجد إلا خياله هو ، ويتنصت إلى صوت يزيل وحشته فلا يسمع إلا كلام نفسه ، حتى تملكته الحيرة ، واستبدت به الأسقام ، فلم يكن إلا أن يتمنى أن تحمل القطا رسائل أشواقه إلى الوادى الذى فيه مدينة الرسول ﷺ ، أملاً فى أن يشع على نفسه من أنواره ما يبدد عنه ما نزل به من شقاء وعناء ... فقال :

تَكَاءَ دُئْنَى خَطُوبٍ لَوْ رَمَيْتُ بِهَا	مناكب الأرض لم تثبت على قدم ^(١)
فِي بَلَدَةٍ مِثْلِ جَوْفِ الْغَيْرِ لَسْتُ أَرَى	فيها سوى أمم تحو على صنم ^(٢)
لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْبِق	وَلَا أَلْسُدُّ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمٍ
إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ أَثَرَا	إلا خيالي ، ولم أسمع سوى كلمي
فَمَنْ يَرُدُّ عَلَيَّ نَفْسِي لُبَانْتَهَا	أَوْ مَنْ يُجِيرُ فَوَادِي مِنْ يَدِ السَّقَمِ ^(٣)
لَيْتَ الْقَطَا حِينَ سَارَتْ غُدُوَّةَ حَمَلَتْ	عني رسائل أشواق إلى أضَم ^(٤)
مَرَّتْ عَلَيْنَا خِمَاصاً وَهِيَ قَارِبَةٌ	مَرَّ الْعَوَاصِفُ لَا تَلْوِي عَلَى إِزَمِ ^(٥)
لَا تَدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ نَلْمُحَهَا	إلا مثالاً كلمح البرق في الظلم
كَأَنَّهَا أَحْرَفُ بِرَقِيَّةٍ نَبَضَتْ	بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لَأَشْيءٍ يَسْبِقُهَا إِلَّا إِذَا اعْتَقَلَتْ	بناتني - في مدح المصطفى - قلمي

محمد صلى الله عليه وسلم من أصوله :

وهكذا .. خالص الشاعر إلى تدوين الحديث عن الممدوح ﷺ ، كى يسبق تلك الطير السريعة في إيصال أشواقه وآماله إليه ﷺ ، فبتلك المدائح وحدها يرجو الخلاص مما أصابه ، وبذلك الحديث الرقيق فحسب يجد متعة نفسه ، وراحة روحه ، واستشراق عقله !

وإذا كان تواضع البوصيرى ، وتهيبه الحديث عن رسول الله ﷺ إلا إذا كان على الهيئة المناسبة ، وسيطرة مشاعره ووجدانه العاطفى على مساره . إذا كان هذا قد جعل البوصيرى يحوم حوله ﷺ ، ويقصر حديثه على بعض شمائله ، دون التعرض المباشر لصلب الأحداث الواقعية .. فإن البارودى كان أجراً من سلفه ، وأقوى عقلاً ، وأملك لزمام عواطفه منه ؛ فقدم طرفاً عريضاً من الحوادث الحيوية التى واجهها ﷺ ، والتى دارت حول ميلاده ، ولايست

-
- (١) تكاءده الأمر : شق عليه وصعب . الخطوب - جمع خطب - : الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب ، مناكب - جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف - : النواصي .
- (٢) العير - بفتح لسين - الحمار الوحشى والأهلى .
- (٣) اللبانة - بضم اللام - : الحاجة . السقم - بفتح السين والقاف - : طول المرض .
- (٤) القطا - جمع قطة - : نوع من الحمام يعيش في الصحراء ، والغدوة - بضم فسكون - ما بين الفجر وطلوع الشمس وإضم - بكسر ففتح - : الوادى الذى فيه المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .
- (٥) الخماص - بكسر الخاء ، جمع خميص وخيصة - : من أضغفه الجوع ، الإزم - بكسر ففتح - : حجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدى بها ، وإزم : مدينة كبيرة لعاد .

مساره ؛ مستمتعاً باجترار كل تلك المعلومات ، في امتداد شعري جعل قصيدته تقارب ثلاثة أمثال قصيدة البوصيري - على ما أشرت إليه سابقاً - نافحا كل تلك الأحداث من عواطفه الجياشة ما يخرجها من دائرة البحث التاريخي ، ويجعلها تنبض بروح العمل الفني ذى الوجدان الصادق !

ولذلك نراه في الحديث عن نسبه ﷺ ، والتبشير بمقدمه ، يبدأ بالقفزات التاريخية فيقدم صورة مجملة له عرفه بها القاصي والداني بعد أن عرفته الدنيا ؛ وكأنه بذلك يمهد السبيل أمام المتلقي ، كي يقع الحديث التالي منه موقع القبول - على ما فيه من غرابة مدهشة - فلا يتردد في التسليم بمفرادته وإجماله !

إنه محمد ﷺ .. هو من سوف يدار حوله الحديث .. هو خاتم الرسل ، الذى خضعت له البرية على اختلاف أجناسها ؛ لأنه جاء مصطفى مختاراً ، تميز عن غيره بأنه سميع وحي الله تعالى ، وثمرة حكمة ربانية ومصدرها ، وعطاء سماحة ، وأمل كل محتاج .. بشر بجميعه الرسل السابقون في صور مختلفة ، فكان دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ قال :^(١) ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، وكان سر ما قاله عيسى عليه السلام ، حين بشر قومه بمجيء رسول من بعده اسمه أحمد ؛ فانقل بين سلسلة محجلة من الآباء ، بعد أن ظل نوراً مدخراً في علم الله تعالى لذلك الدور الخطير ، ينتقل بين سلسلة منتقاه من الآباء والأمهات ، حتى استقر هذا النور في أبيه المباشر عبدالله بن عبدالمطلب ، الذى وجه إلى اختيار آمنة بنت وهب لتكون زوجه التى شرفها المولى سبحانه بأن تكون أمه ﷺ :

<p>محمد ، خاتم الرسل الذى خضعت سميرٌ وحي ، ومجنى حكمة ، ولدى قد أبلغ الوحي عنه قبل بعثته فذلك دعوة إبراهيم خالقه أكرم به ، وآباء محجلة</p>	<p>له البرية ، من عرب ، ومن عجم^(٢) سماحة ، وقرى عاف ، ورئى ظم^(٣) مسامع الرسل قولاً غير منكم وسرٌ ما قاله عيسى من القدم جاءت به غرة في الأعصر الدهم^(٤)</p>
--	--

(١) الآية ١٢٩ البقرة .

(٢) البرية : الخلق .

(٣) السميع : المسامح الذى يتحدث مع الآخرين ليلاً ، ومجنى - بفتح فسكون - : مكان جنى الحرة ، والندى : الجود والسخاء ، والسماحة : الجود والكرم ، والقرى - بكسر القاف - : ما يقدم إلى الضيف ، والعافى : كل طالب معروف .

(٤) الهجل : ما كان البياض منه في موضع الخلائع ، والغرة : بياض في جبهة الفرس . الدهم - بضمين - : جمع أدهم دهماء : ليلة تسع وعشرين من الشهر القمري .

قد كان في ملكوت الله مدحراً
نورٌ تنقل في الأكوان ساطعه
حتى استقر بعبد الله ، فانبلجت
واختار آمنة العذراء صاحبة
كلاهما - في العلا - كفة لصاحبه
فأصبحت عنده في بيت مكرمة
لدعوة ، كان فيها صاحب العلم^(١)
تنقل البدر من صلب إلى رحم^(٢)
أنوار غرته ، كالبدر في اليهم^(٣)
لفضلها بين أهل الحل والحرم
والكفاء في المجد لا يستام بالقيم^(٤)
شيدت دعائمه في منصب سيم^(٥)

ومن هذا الحديث المجل عن محمد ﷺ ، انتقل البارودي ليحدثنا عن مولده ﷺ ، ابتداء
من حمل أمه به ؛ قاصداً من وراء ذلك تقديم صورة عن تميزه ﷺ في كل مراحل حياته ونموه .

مولده وما واكبه من أحداث :

فإذا كان قد قدم جزءاً من هذا التميز الذي بدا في تسلسل آيائه ، وتنقله - قبل أن يولد -
من أب إلى أب ، حتى استقر بعبد الله بن عبد المطلب ، الذي ألهم الزوج من آمنة بنت وهب ...
فإنه - في مواصلة طريقه - ينتقل من ذلك إلى الحديث عن الحمل به ، وما عرض لآمنة في أثناء
حملها به من مظاهر التميز ؛ حتى كانت أما تختلف في كل شيء عن مثيلاتها من الأمهات ، فلم
تعان آمنة من مشقة الوحم ، وشع جسمها بأنوار أضاءت من بعيد قصور بصرى في الشام ،
وعندما حانت لحظة الوضع قدمت للإنسانية روحاً متسماً بنور الله ، فكان إشراقاً ليوم الاثنين
يوم مولده من بين أيام الأسبوع ، وكان إشراقاً لشهر ربيع الأول شهر مولده من بين شهور
السنة . وأهمت حليمة السعدية أن تتولى إرضاعه ، مستجيبة لدافع خفي تغلب فيها على ما
واجهته من محاذير تدعوها إلى البعد عن إرضاع الأيتام لقلّة ما ينتظر وراءهم من منح ؛ فكان
ذلك فاتحة خير لها ولأسرتها ، حيث فاض بالدر ثدياها على الرغم من هزالها وضعفها ، وفاض
بيتها بالخير الذي أفاءه الله عليها من كل حذب وصوب ، حتى اقتلع الجذب والعوز من بيتها
وبيوت جيرانها .

وفي هذا البيت السعدي ظل الوليد اليتيم ينمو مكلوئاً برعاية الله من كل سوء ، حتى إذا تم
ميقات الرضاع وانقضى الحولان وتهاى للفظام عاد قوياً صحيح الجسم ، تبدو عليه محيا المجد
والنجابة .

وفي مكة - بعد أن اجتاز مرحلة الطفولة - قام برعى الغنم ، فصرفه ذلك عما ينجر فيه

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته ، وعالم الغيب المختص بالأرواح .

(٢) الصلب : فقر الظهر .

(٣) بلج الصبح : أسفر فأنار ، والبيم - بضمين - جمع بيم : الأسود .

(٤) استام البائع بالسلعة : غالى .

(٥) المنصب - بفتح الميم وكسر الصاد - : الأصل ، والسنم - بفتح فكسر - : على القدر .

أترابه من أسباب اللعب واللهو . وفي أثناء رعيه الغنم طاف به ملكان كلفا بشق صدره ، ليزيلا عنه شوائب الهوى ، عصمة له وحفظاً .

ولما أشرك في الرحلة التجارية التي ضمت تجارة عمه أنى طالب ، مر عند بصرى في طريقه إلى الشام بصومعة الراهب بحيرا الذى أبصره محاطاً بأمارات التميز الإلهى - من تظليل الغمامة إياه وانعطاف الأغصان عليه - فنطق منها عمه إلى أنه خاتم الرسل ، ومخذراً إياه من تعرض اليهود له بالإيذاء إذا ما عرفوا فيه ما أبصره فيه اليوم :

وحيثما حملت بالمصطفى وضعت	يُد المشيئة عنها كلفة الوحَم ^(١)
ولاح من جسمها نور أضاء لها	قُصُورُ بَصْرَى بِأَرْضِ الشَّامِ مِنْ أُمَمٍ ^(٢)
ومد أنى الوضوع - وهو الرفع منزلة -	جاءت بِرُوحِ بَنُورِ اللَّهِ مُتَّسِمٍ ^(٣)
ضاءت به غرة الإثنين ، وابتسمت	عن عسسه في ربيع روضة الحرم ^(٤)
وأرضعته - ولم تياس - حليلة من	قول المراضع : إن اليأس في اليتم ^(٥)
ففاض بالدر ثديها ، وقد غييث	ليالياً ، وهى لم تطعم ولم تَنَم ^(٦)
وانهل بعد انقطاع رسل شارفها	حتى غدت من رفيه العيش في طعم ^(٧)
فيممّت أهلها مملوءة فرحاً	بما أتيت لها من أوفر النعم ^(٨)
وقلص الجذب عنها فهي طاعمة	من خير ما رفدتها ثلثة الغنم ^(٩)
وكيف تمحل أرض حل ساحتها	محمد ، وهو غيث الجود والكرم ^(١٠)
فلم يزل عندها يمسو وتكسو	رعاية الله من سوء ومن وصم ^(١١)

(١) الكلفة - بضم فسكون - : ما تكلفه على مشقة . وحيث الحمل - بكسر الحاء - : اشتبهت شيئاً على حبلها .

(٢) لاح الشيء يلوح : ظهر ، الأم - بفتحين - : القرب .

(٣) وضعت الحامل ولدها : ولدته ، متسم : متميز .

(٤) الغرة - بضم الغين - من كل شيء : أوله وأكرمه ، الإثنين : يوم الإثنين الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وريع : شهر ربيع ، الروضة : الأرض ذات الخضرة .

(٥) اليم - بفتحين - : الحاجة .

(٦) فاض الإناث : امتلأ حتى طفق ، الدر - بفتح الدال - : اللبن ، غنى - بفتح فكسر - : استغنى .

(٧) انهل : ظهر ، وانهل السماء : نزل مطرها ، والرسل - بكسر فسكون - : اللبن ، الشارف - بكسر الراء - من الدواب : المسن ، ومن الأشياء : القديم والعتيق ، والعيش الرفيه : المتسع اللين ، والطعم - بضم الطاء والعين - : جمع طعم - بفتح الطاء - : السمين .

(٨) يم : قصد .

(٩) قلص الجذب : انضم وانكمش ، رفض فلانا - بفتح الراء والفاء - : أعانته ، والثلة - بفتح التاء واللام المضمة - : الصوف ، وجماعة الغنم .

(١٠) محل المكان - بفتح الميم والحاء - : أجذب .

(١١) كلاه الله : حفظه ، السوء - بفتح فسكون - : القبح ، والوصم - بفتح فسكون - : العيب ، والصدع ، ويبدو أن الشاعر حرك الصاد لضرورة الشعر .

- حتى إذا تمَّ ميقاُت الرضاع له
وجاء كالغصن مجدولاً تُرف على
قد تمَّ عقلاً ، وما تمَّت رضاعته
فيما هو يرعى البهيم طاف به
فأضجعه ، وشقاً صدره بيدي
وبعد ما قضى من قلبه وطراً
ما عاجل قلبه إلا ليخلص من
فيها نعمة الله خص بها
وقال عنه بحيرا حين أبصره
إذ ظلَّته الغمام الغرُّ والنهصر
بأنه خاتم الرُّسل الكرام ، ومن
هذا ، وكَم آية سارت له قمح
ما مر يوم له إلا وقلَّده
- خولن أصبح ذا أيدي على الفطم^(١)
جبنه لحاُت الجند والفهم^(٢)
وفاض حلماً ، ولم يبلغ مدى الحلم^(٣)
شخصان من ملكوت الله ذى العظم^(٤)
رفيقة ، لم يث منها على ألم^(٥)
توليا غسله بالسلسيل الشبم^(٦)
شوب الهوى ويعى قدسية الحكم^(٧)
حييه وهو طفل غير مختلم^(٨)
بأرض بصرى مقالاً غير مبهم^(٩)
- عطفاً عليه - فروغ الضال والسلم^(١٠)
به تزول صرُوف البؤس والتقم^(١١)
بنورها ظلمة الأهوال والقخم^(١٢)
صنائع لم تزل في الدهر كالقلم^(١٣)

- (١) الأيد : القوة ، الفطم - بضم الفاء والطاء - جمع الفطم : المفظوم .
(٢) جدل الحبل ، فهو مجدول : أحكم فتله ، رف الطائر : رفرف ، والجبن : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شامها ، فهما جبان . الفهم : بفتح فسكون - : جودة استعداد الذهن للاستبطان ، ويبدو أن التحريك هنا لضرورة الشعر .
(٢) فاض الإثاء : امتلأ حتى طفق ، الحلم - بكسر فسكون - : الأناة وضبط النفس ، والحلم - بضمين - : بلوغ الصبي مبلغ الرجال ، والمدي - بفتحين - المسافة والغاية .
(٤) البهم - بفتح فسكون - جمع بهمة - بفتح فسكون - : الصغير من الضأن ، الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس والمعجائب ، وملكوت الله : سلطانه وعظمته ، وملكه الخاص .
(٥) الوطر - بفتحين - : الحاجة فيها مأرب وهمة ، السلسيل : اسم عين في الجنة ، أو وصف لكل عين عذبة سريمة الجرية ، والشيم - بفتح فكسر - : البارد .
(٦) الشوب - بفتح فسكون - : ما اختلط بغيره من الأشياء وبخاصة السوائل . الهوى : الميل والحب ، والقدسية : مصدر صناعى من القدس - بضم فسكون : البركة ، والحكم - جمع حكمة - : معرفة الفضل الأشياء بأفضل العلوم ، والمقصود : يعى خصائص الحكم المقدسة .
(٧) الختم : احتلم الصبي : بلغ مبلغ الرجال .
(٨) بحيرا : اسم راهب .
(٩) الغر - بضم الغين - جمع أغر غراء : يقال : غر وجهه : أبيض ، انهرت أغصان الشجرة : انعطفت ومالت حتى انكسرت من غير فصل . والفضال : شجر السدر البرى ، والسلم - بفتحين - : شجر من العضا يدبغ به والعضا - بكسر العين - كل شجر له شوك صفر أو كبر .
(١٠) الصرُوف : جمع صرف - بفتح فسكون - : النواثب .
(١١) الهول : الأمر الشديد ، والقخم - بضم ففتح - جمع قمحه : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .
(١٢) الصنائع : جمع صنعة : كل ما عمل من خير أو إحسان .

محمد نبي صباه وشبابه :

ثم أخذ البارودي في استعراض مرحلة الشباب لسيدنا محمد ﷺ ، لافتاً النظر إلى أبرز مصادف في تلك المرحلة من أحداث ، ولما كان له فيها من مواقف ، تكشف عن تواصل تلك السيرة ، وانطلاقها في خط مستقيم إلى الغاية المرسومة له أزلاً في علم الله تعالى .

والبوصيرى هنا - كما رأيناه في الحديث عن مولده وصباه - يكاد يلتزم بالمنهج التاريخي العلمي ، حتى لتكاد الصورة تخلص لذلك البعد المادي الواقعي ، فلا نلمس من تصوراته هو ، وانفعالاته ، ووجدانياته إلا النذر اليسير الذي يختفي في ثنايا الحقائق التاريخية المستمدة من كتب السيرة .

فإن هذا الصبي المصون المحفوظ قد استتم خمساً وعشرين عاماً وهو على ما هو من الرعاية الإلهية والحياطة ، فلم يلحقه في تلك السن من النقائص ما يلحق أمثاله من الشباب ، ولكنه واصل نموه ونضجه العقلي ، وسلامته السلوكية ، حتى لقبته قريش بالأمين ، اعترافاً منهم بصدقه الملازم ، وأمانته ووفائه في كل أحواله ، وحتى تمت خديجة بنت خويلد أن يقبل إسناد تجارتها إليه ، سعيّاً منها إلى ما توسمته من خير تنتظره على يديه ، ولما وافق على الاتجار لها في مالها اصطحب غلامها ميسرة في رحلته التجارية إلى الشام ، حيث حقق أكبر ما يصبو إليه تاجر من ربح ، ولم يكن هذا منه ليثير الدهشة ، إذا تذكرنا أنه أعد لما هو أعظم من هذه التجارة وأضخم ، وهو أمر الدعوة إلى الدين الجديد !

ولما عاد من رحلته التجارية ، قص ميسرة على سيدته خديجة ما رأى في تلك الرحلة على يدى محمد ﷺ ، وما كان من حديث أحد الرهبان عنه في طريقهم ، حيث أخبر بأنه نبي هذه الأمة ، وما كان من الملكين اللذين كانا يحومان على جبينه ليظلللاه ويحمياه من حر الشمس ؛ فوجه ميسرة بهذه الأحاديث والروايات رغبة خديجة إلى الزواج منه ، وجعلها تعيد التفكير في أمر الزواج بعد أن ظلت ترفض راغبي الزواج من سادة قريش . وما درت أنها إنما تتحرك بقوة إلهية دبرت هذا الأمر ، فأصبحت هي وهو ﷺ بهذا الزواج في صفاء دائم ، وود غير مقطوع :

حتى استتم - ولا نقصان يلحقه - خمساً وعشرين ، سنّ البارح الفهم^(١)
ولقبته قريش بالأمين على صدق الأمانة والإيفاء بالذمم^(٢)
ودّت خديجة أن يزعى تجارتها وداداً منتزحاً للخير مغمّتهم^(٣)
فشدد عزمتها منه بمقتدر ماضى الجنان إذا ماهم لم يخم^(٤)

(١) برع - بفتحين - : فاق نظراءه في أمر ، الفهم - بفتح فسر - : من جاد استعداده للصور والاستبطان .

(٢) الإيفاء بالعهد والوفاء به : إتمامه ، الذمم - جمع ذمة - : العهد والأمان والكمال .

(٣) منتزح الفرصة : من اغتصمها وبادر إليها ، المغتصم : من عد الشيء غنيمة ، والنتزح : غنمه .

(٤) العزم والعزيمة : إرادة الفعل وعقد النية عليه ، المقندر : المتمكن من الشيء ، الجنان - بفتح الجيم - : من كل شيء جوفه ، والقلب ، والماضى : النافذ ، الحاد السريع ، والجنان الماضى : القلب اليقظ النافذ إلى المقصود ، والوخم - بالتحريك وبالسكون - : والوخامة : الثقل من كثرة الأكل .

- وسار مُعْتَزِماً لِلشَّامِ يَصْحَبُهُ
فَمَا أَنَاخَ بِهَا حَتَّى قَضَى وَطَرًا
وَكَيْفَ يَخْسر مَنْ لَوْلَاهُ مَا رَجَحَتْ
فَقَصَّ مِيسِرَةَ الْمَأْمُونِ قِصَّتَهُ
وَمَا رَوَاهُ لَهُ كَهْلٌ بِصَوْمَعِيَّةٍ
فِي دَوْحَةٍ عَاجٍ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ بِهَا
هَذَا نَبِيٌّ وَلَمْ يَنْزَلْ بِسَاحَتِهَا
وَسِيرَةُ الْمَلِكِينَ الْحَائِمِينَ عَلَى
فَكَانَ مَا قَصَّه أَضَلًّا لَمَّا وَصَلَتْ
أُخْسِنَ بِهَا وَصْلَةً فِي اللَّهِ قَدْ أَخَذَتْ
فَأَصْبَحَا فِي صَفَاءٍ غَيْرِ مَنْقَطِعٍ
- فِي السَّيْرِ مَيْسِرَةُ الْمُرَضِيِّ فِي الْحَشَمِ (١)
مِنْ كُلِّ مَا رَامَهُ فِي الْبَيْعِ وَالسَّلَمِ (٢)
تِجَارَةَ الدِّينِ فِي سَهْلٍ وَفِي غَلَمٍ
عَلَى خَدِيجَةٍ سَرْدًا غَيْرَ مُنْعَجِمٍ (٣)
مِنَ الرَّهَائِينَ عَنْ أَسْلَافِهِ الْقَدَمِ (٤)
مِنْ قَبْلِ بَعَثِهِ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ (٥)
إِلَّا نَبِيَّ كَرِيمٍ النَّفْسِ وَالشَّيْمِ (٦)
جِيْنِهِ لِيُظْلَاهُ مِنَ التَّهَمِ (٧)
بِهِ إِلَى الْخَيْرِ عَنْ قَصْدٍ وَمُعْتَزَمِ (٨)
بِهَا عَلَى الدَّهْرِ عَقْدًا غَيْرَ مَنْقَصِمِ (٩)
عَلَى الزَّمَانِ وَوَدَّ غَيْرَ مَنْصَرِمِ (١٠)

وفي ختام حديثه عن مرحلة شبابه ﷺ ، وما وقع فيها من أحداث ومواقف ، عرج -
بمزيد من التفصيل - على حادث بناية الكعبة قبل بعثته ﷺ ، وما نشب في أثناء بنائها من
خلاف بينهم حول من ينال شرف وضع الركن في مكانه ، وكل قبيلة تسعى لنيل هذا الشرف ،
حتى كاد الخلاف يصبح حرباً لا يعلم مداها ولا نهايتها إلا الله تعالى ؛ لولا أن من الله عليهم
بصوت حصيف نطق بالقول الفصل ، حين أشار بأن يحكموا بينهم أول من يأتي ، فارتضوا هذا
الرأى ، وانتظروا الآتى ، فكان محمداً ، الذى نال من قبل ثقة قريش جميعها ، وحظى بصفة

- (١) اعتزم للأمر : احتمله وصبر عليه ، ميسرة : غلام خديجة ، حشم الرجل : خاصته الذين يفضيئون لفضله ولما يصيبه من
مكرهه ، من عبيد أو أهل أو جيرة .
(٢) أناخ بالمكان : أقام به ، الوطر : الحاجة فيها مأرب وهمه ، رام الشيء يرومه : طلبه ، السلم - بالتحريك - : بيع شيء
موصوف في الدمة بضمن عاجل .
(٣) سرد الحديث - بفتح السين - سرداً : أتى به على ولاء وتتابع جيد السياق ، أعجم الكلام : أبهمه وذهب به إلى العجمة .
(٤) الكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين . الصومعة : متعبد الناسك ، وبیت العبادة عند النصارى .
الرهايين - جمع رهبان - : المتعبدون في صومعة من النصارى ، زهداً في الدنيا ، واعتزالاً لأهلها .
(٥) الدوحة : الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع المتعدة ، عاج بالمكان : أقام به .
(٦) الساحة : المكان الواسع ، يقال : نزل بساحته : نزل به ، الشيم - بكسر الشين وفتح الياء - جمع شيمة : الخلق .
(٧) السيرة : الحالة التى يكون عليها الإنسان وغيره . حام حول الشيء : دار حوله ، التهم - بفتح التاء وهاه - : الأرض
المصوبة إلى البحر ، وهامة - بكسر التاء - أرض منخفضة بين ساحل البحر وبين الجبال في الحجاز واليمن .
(٨) اعتزم الأمر : عزم عليه وقصده .
(٩) الرصلة - بضم فسكون - : الاتصال ، يقال بينهما وصلة ، والعقد - بفتح فسكون - : العهد ، والاتفاق بين طرفين
يلتزم كل منهما بمقتضاه تنفيذ ما اتفقا عليه ، المنقصم : المنحل .
(١٠) الصفاء : الخلو من الكدر ، والود - بضم الواو وفتحها - : الحب ، المنصرم : المنقطع .

الأمانة والعقل والحكمة . ولما أطلعوه على المشكلة كان عند حسن ظنهم به ، إذا استحضر ثوباً ، ثم بسطه ، ووضع الركن فوقه ، ثم طلب من ممثل كل قبيلة أن يمسك بأحد أطراف الثوب ، ثم يرفعه بالركن ، حتى إذا حاذى مكانه من الكعبة ، مد ﷺ يده المباركة ليضعه في مكانه ؛ فكان بذلك المسلك الحكيم برداً وسلاماً على قومه ، وتحقق للركن بذلك ما يزداد به تهباً على أمثاله ، حيث أضيف إلى ما ناله من تكريم سابق ، هذا التكريم الجديد الذى توجّه به حمل محمد إياه ووضع في مكانه ؛ إذ لولا نجاحه ﷺ في فض تلك الخصومة ، لما عاد البناء كما كان ، ولولا مس الركن بيده ﷺ لما كان مهوى أفواه الحاج من كل حذب وصوب لينال كل فم رضوان الله بلثمه .

ومن هنا ... لا يملك البوصيرى نفسه من مواصلة المسيرة ، فلا يستطيع إلا أن يلتفت من الحديث عن الكعبة والركن وقريش ومحمد إلى الحديث عن أمانيه وآماله في أن ينال من رضوان الله ما يمكنه من معانقة الركن والتزامه . والحديث عن إعجابه بلون الحجر الذى اشتهر به أمانة تكريم وحسن فكان هذا اللون منحة جمالية لشعر الشباب ، وللخال في وجنة حسناء ليزيدها حسناً .

ثم يتساءل البارودى في استنكار متعجب ممن لا يتوقع فخر البيت العتيق بمحمد وبما كان منه نحوه ؛ فلولا هدايته ﷺ لم يظهر العدل في الأرض ، ولولا حكمته لم يعصم الله الأنام من كارثة كادت تتحقق ، وتصيب الجميع بالأهوال الجسام :

وحيثما أجمعت أمراً قريشاً على	بناية البيت ذى الحُجَاب والخدم ^(١)
تجمعت فرق الأحلاف واقتسمت	بناءه عن تراضر خير مُقْتَسَم ^(٢)
حتى إذا بلغ البيان غايته	من موضع الركن بعد الكد والجشم ^(٣)
تسابقوا طلباً للأجر واختصموا	فيمن يشد بناءه كل مُختَصِم
وأقسم القوم أن لا صلح يعصمهم	من اقتحام المنايا أيما قَسَم ^(٤)
وأدخلوا حين جد الأمر أيديهم	للشر في جفنة مملوءة بدم ^(٥)

(١) الحجاب - جمع حاجب - : البواب ، خدم - جمع خادم - : من يقوم بحاجة البيت .

(٢) الأحلاف - جمع حلف - : المعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق .

(٣) الركن : أحد الجوانب التى يستند إليها الشيء ويقوم بها ، والمقصود به هنا الحجر الأسود ، الجشم - بفتحين - : تكلف الأمر على مشقة ، والكد - بفتح الكاف - : الإلحاح في محاولة الشيء .

(٤) عصم الشيء - بفتحين - : حفظه ووقاه ومنعه ، اقتحم المكان : دخله عنوة ، والمنايا - جمع المنية - : الموت .

(٥) الجفنة - بفتح فسكون - : القصعة ، وكان من عادة العرب إذا جد الأمر المكروه أن يجتمع القوم حول قصعة مملوءة بالدم ، فيدخل كل يده فيها ، إعلاناً منهم لنشوب الحرب .

فَقَالَ ذُو رَأْيِهِمْ : لَا تَفْعَلُوا وَخَذُوا
لِيَرْضَ كُلُّ امْرِئٍ مَنَا بِأَوَّلِ مَنْ
فَكَانَ أَوَّلُ آتٍ - بعدما اتفقوا -
فَقَالَ كُلٌّ : رَضِينَا بِالْأَمِينِ عَلَى
فَاعْلَمُوهُ بِمَا قَدْ كَانَ ، وَاحْتَكَمُوا
فَمَدَّ ثَوْباً ، وَحَطَّ الرُّكْنَ فِي وَسْطِ
فَنَالَ كُلُّ امْرِئٍ حِظًّا بِمَا حَمَلَتْ
حَتَّى إِذَا اقْتَرَبُوا تَلْقَاءَ مَوْضِعِهِ
مَدَّ الرُّسُولُ يَدًا مِنْهُ مَبَارَكَةً
فَلْيَزِدَّ الرُّكْنَ تَبَاهٍ ، حَيْثُ نَالَ بِهِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ يَدُهُ مَسْتَهْ حِينَ بُنِيَ
يَا لَيْتَنِي - وَالْأَمَانِي رُبَّمَا صَدَقَتْ -
يَا حَبِذَا صِبْغَةً مِنْ حُسْنِهِ أَخَذْتُ
كَالْحَالِ فِي وَجْنَةٍ زِيدَتْ مَحَاسِنُهَا

بِالْحَزْمِ ، فَهُوَ الَّذِي يَشْفِي مِنَ الْحَزْمِ (١)
يَأْتِي ، فَيَقْسِطُ فِينَا قِسْطَ مُحْتَكَمِ (٢)
مُحَمَّدٌ ، وَهُوَ فِي الْخِيَرَاتِ ذُو قَدَمِ
عِلْمٍ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَنْ عَادِلٌ حَكَمِ
إِلَيْهِ فِي حَلِّ هَذَا الْمُشْكِلِ الْعَمَمِ (٣)
مِنْهُ ، وَقَالَ : أَرْفَعُوهُ جَانِبَ الرُّضَمِ (٤)
يَدَاهُ مِنْهُ ، وَلَمْ يَغْتَبِ عَلَى الْقَمَمِ
مِنْ جَانِبِ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ وَالْدَّعَمِ (٥)
بَنَشَهُ فِي صَدَفٍ مِنْ بَاذِخِ سَيْمِ (٦)
فَخِرًّا أَقَامَ لَهُ الدُّنْيَا عَلَى قَدَمِ (٧)
مَا كَانَ أَصْبَحَ مَلْثُومًا بِكُلِّ فَمِ (٨)
أَحْظَى بِمَعْتَقٍ مِنْهُ وَمَلْتَزَمِ (٩)
مِنْهَا الشَّيْبَةُ لَوْنُ الْعُذْرِ وَاللَّمَمِ (١٠)
بِنَقْطَةٍ مِنْهُ أَضْعَافًا مِنَ الْقِيَمِ (١١)

- (١) الحزم - بفتح فسكون - : في الرأي : ضبطه وإتقانه ، يقال : حزم أمره - بفتح حيم - بفتح حيم - يحزم بفتح العين - والحزم - بفتح حيم - الإصابة بالغصة ، وأصل فعله حزم - بفتح فسكون - يحزم بفتح العين .
(٢) أقسط - بفتح حيم - : عدل ، واحتكم في الشيء والأمر : تصرف فيه كما يشاء .
(٣) احتكم إليه : رفع إليه خصومته ، والعمم - بفتح حيم - : العام من كل شيء .
(٤) الرضم - بفتح حيم - جمع رزمة - بفتح حيم - : الحجر أو الصخرة العظيمة .
(٥) تلقاء : مصدر لقي ، يقال : سرى لقاءك وتلاؤك ، وتوسعا فيه فاستعملوه ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة ،
الدعم - بكسر ففتح - جمع الدعمة - بكسر فسكون - : ما يسند به الشيء .
(٦) الصدف - بفتح حيم - : كل شيء مرتفع عظيم كالهدف والحائط والجبل ، وهو كذلك : الناحية والجانب . الباذخ :
العالى فعله : بدخ من باب نصر وفهم ، والسنم - بفتح فسكون - : الشيء المرتفع على وجه الأرض .
(٧) البية : التكبر .
(٨) لم فمه : قبله .
(٩) الأمانى - جمع أمنية - : البغية ، حظي بالشيء : نال منه حظاً ، المحقق - بفتح حيم - : مصدر ميمي بمعنى الاعتناق ،
يقال : اعتق الأمر : لزمه ، والمتلزم - بفتح الزاي - : مصدر ميمي بمعنى الالتزام .
(١٠) الصبغة - بكسر الصاد - : ما يصبغ به ، والهيئة المكتسبة بالصبغ ، والمقصود هنا لون الحجر ، الشبية : الشباب ،
العدو - بسكون الدال لضرورة الشعر - هو العدو - بضم العين والذال - جمع عذار - بكسر العين - : جانب لحية
الغلام ، واللمم - بكسر ففتح - : جمع لمة : شعر الرأس تجاوز شحمة الأذن .
(١١) الحال : شامة أو نكتة سوداء في البدن ، الوجنة : ما ارتفع من الخدين ، والقيم - بكسر ففتح - جمع القيمة : القدر .

وكيف لا يفخر البيت العتيق به وقد بنّته يد فياضة النعم (١)
أكرم به وازعاً ، لولا هدايته لم يظهر العدل في أرض ولم يقم (٢)
هذا الذي عصم الله الأنام به من كل هول من الأهوال مخترم (٣)

البعثة وما استقبلت به من قريش :

وينتقل البارودي من حديثه عن مرحلة الشباب ، وما تحقق على يديه ﷺ فيها من معجزات ، أشار إلى طرف منها ، لبدأ الحديث عن مرحلة البعثة ؛ فحين أدرك ﷺ سن الأربعين ، حباه الله كثيراً من الأمارات اللافته للنظر إلى ما هو مقبل عليه ، فما مر على صخرة أو شجرة إلا استقبلته من بعيد بالتحية ، حتى إذا حانت اللحظة المقدرة في علم الله تعالى لابتداء بعثته ، وتكليفه بأمر الدعوة إلى الله ، نهض ملياً أمر الله تعالى ، جاهراً بنداؤه الجميع ، فلم يبق أحد من المحيطين به إلا وصلته تلك الدعوة .

ومن هنا ... بدأ يواجه مرحلة جديدة من الجهاد والكفاح ؛ إذ لم يجد من كل من بلغته الدعوة ما هو منتظر مرجو من الاستجابة ، فقد انقسم الناس في هذا الشأن أحزاباً ، وكان أول من استجاب لدعوته ، وتابعه في هديه عن يقين وثبات من أهل بيته الأقرين السيدة خديجة ، وعلى ابن أبي طالب ، ثم بدأت الاستجابات تتوالى من معارفه وأصدقائه وغير هؤلاء وأولئك ممن تكشف لهم الحقيقة ، وأراد الله بهم الخير والرشاد . بينا المصطفى ﷺ في طريق الدعوة مستمر دون توقف ، لا يترك مناسبة إلا ينتهزها ، ولا يقابل أحداً إلا دعاه في غير تردد ، على الرغم من أن من الناس من استقبل ذلك منه بالترحاب والاستجابة ، ومنهم من صد وعاند ، في غير مبالاة ولا حياء .

وكانت الكثرة من قريش في جبهة الرفض والمعارضة ، مستسلمين لما استبد بهم من جهل هوى بهم في الحضيض ، ودفعهم إلى اتخاذ الموقف المضاد ، فواجهوا كل من استجاب لدعوة الحق بالتعذيب والتنكيل ، منتهكين في سبيل ذلك الحرمات ، متجاهلين ما استقر على المدى البعيد من أعراف ، وتزعّم أبو جهل هذه الطائفة الضالة في حربها تلك ، منفساً عن أحقاد الدفينة ، وحسده محمد ﷺ ، فجاهر محمداً بالعداء ولم يقصر عداءه عليه بل شمل به كل من يفكر في متابعة محمد ، وأخذ على عاتقه تسفيه كل من تحدّثه نفسه بذلك ، متوسلاً إلى ذلك بشتى الوسائل ، من تهديد ووعيد ، ومكر وخداع ، شافياً بذلك أحقاد الدفينة ، وغله

(١) البيت العتيق : الكعبة . الفياض : مبالغة الفاض ، يقال رجل فياض : كثير العطاء . النعم - بكسر ففتح - جمع النعمة : ما أنعم به من رزق ومال وغيره .

(٢) الوازع : المانع والزاجر .

(٣) عصمه - بفتح عين - من الشر أو الخطأ - : حفظه ووقاه ومنعه ، الأنام : الخلق المول - بفتح فسكون - : الأمر الشديد المفزع ، اخترم - بكسر الراء - : اسم فاعل فعله اخترم ، يقال : اخترمته النية : أخذته .

المضطرم ، فلم يفده نور الحق على الرغم من انتشاره ، ولم يستجب لداعى الهدى على الرغم من بلوغه كل أذن ، ومخالجه كل عقل ؛ لأن الحقد الدفين استبد به فأعماه ، ولأن الغل المضطرم ملك عليه حسه فأصمه !..

وكان موقف أبو جهل من محمد ﷺ ودعوته مثيرا حرك تفكير البارودى ، فانتقل به من خصوصية أبي جهل إلى النظرة العامة التى تمثلت فى مجموعة من النظرات الحكيمة ، توالى فى تصويره الموقف الشاذ الذى يكون عليه كل ضال مماثل لأبى جهل ، فالقلب الذى يلم به الغل لا يخلص إلى الحق والهدى ، والحقد دائما كالنار يبدو أثره على وجه الحقود مهما حاول إخفائه ، ولا عجب فى ذلك لأن الأعمى لا يمكن أن يبصر النور .

ومن هنا ينتقل بنظراته العامة إلى عالم الجزاء ، حيث يتقرر أن الجزاء من جنس العمل ، وأن النفس مسئولة عما تجترمه ، فإذا توهم ظالم أن ما جنت يده قد طواه النسيان ، فلا ينس أن عين الله لا تنام ، وإذا اشتد النكال بأصحاب الدعوات فلا عجب فى ذلك لأن هذه هى سنة الله التى أقام الدنيا عليها .

وَحِينَ أَدْرَكَ سِنُّ الْأَرْبَعِينَ وَمَا	مِنْ قَبْلِهِ مَبْلَغُ الْعِلْمِ وَالْحَكْمِ ^(١)
جَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ بَرَهَانًا أَرَاهُ بِهِ	آيَاتِ حِكْمَتِهِ فِي عَالَمِ الْخُلُمِ ^(٢)
فَكَانَ يَمْضَى لِرِغَى الْأَسَى وَحَشْتُهُ	فِي شَاسِعٍ مَا بِهِ لِلْخُلُقِ مِنْ إِرَمِ ^(٣)
فَمَا يَمُرُّ عَلَى صَخْرٍ وَلَا شَجَرٍ	إِلَّا وَحِيَاةٍ بِالتَّسْلِيمِ مِنْ أَمَمِ ^(٤)
حَتَّى إِذَا حَانَ أَمْرُ الْغَيْبِ وَانْحَسَرَتْ	أَسْتَارُهُ عَنْ ضَمِيرِ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ ^(٥)
نَادَى بِدَعْوَتِهِ جَهْرًا فَأَسْمَعَهَا	- فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ - مَنْ كَانَ ذَا صَمَمٍ
فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ فِي الدِّينِ تَابَعَهُ	خَدِيجَةٌ وَعَلِيٌّ ثَابِتُ الْقَدَمِ
ثُمَّ اسْتَجَابَتْ رِجَالٌ دُونَ أَسْرَتِهِ	وَفِي الْأَبَاعِدِ مَا يُغْنِي عَنِ الرَّجَمِ ^(٦)

(١) الحكم - بكسر ففتح - جمع حكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .

(٢) حبا فلان حباه وحبوة : أعطاه ، العرش : الملك ، وذو العرش : الله سبحانه وتعالى ، البرهان : الحجة البينة الفاصلة ، والآية العلامة والأمانة ، حلم الصبي - بفتحتين - يحلم حلمًا - بضم اللام وسكونها - : أدرك وبلغ مبلغ الرجال .

(٣) يمضى : يذهب ، الأسى : ذهاب الوحشة ، شسع الشيء : بعد ، الإرم - بكسر ففتح - : الحجارة أو نحوها تصب فى المفاضة ليجتدى بها .

(٤) الأمم - بفتحتين - : القرب .

(٥) حان : قرب وقته ، وأمر الغيب : معنى موعد البعثة ، انحسرت : انكشف ، الأستار - جمع الستر - بكسر السين - : ما يستر به ، اللوح : اللوح المحفوظ ، المقصود بضمير اللوح : مد ضمته اللوح من أسرار .

(٦) دون : ظرف مكان منصوب ، وهو بحسب ما يضاف إليه ، وهو هنا بمعنى : غير ، والأبعاد جمع الأبعد : مقابل الأقرب ، والرحم - بفتح فكسر أو سكون أو كسر فسكون - : القرابة أو أسباها ، يذكر ويؤنث .

ومن أراد به الرحمن مكرمة
ثم استمر رسول الله معتزماً
والناس منهم رشيد يستجيب له
حتى استرايت قريش ، واستبد بها
وعذبوا أهل دين الله ، وانتكروا
وقام يدعو أبو جهل عشيرته
يُبدى خداعاً ، ويُخفى ما تضمنه
لا يعلم القلب من غلّ ألم به
والحق كالنار ، إن أخفيته ظهرت
لا يُصِر الحق من جهل أحاط به
كل امرئ واجد ما قدّمت يده
والخير والشر في الدنيا مكافأة
فلا ينم ظالم عما جنت يده
ولم يزل أهل دين الله في نصب

هداه للرشد في داج من الظلم^(١)
يدعو إلى ربّه في كل مُتأَم^(٢)
طوعاً ، ومنهم غوى غير محتشم^(٣)
جهل تردّت به في مارج ضرم^(٤)
محارماً أعقبتهم لفة السدم^(٥)
إلى الضلال ، ولم ينجح إلى سلم^(٦)
ضميره من غمرات الحقد والسدم^(٧)
يتقى الأديم ، ويتقى موضع الحلم^(٨)
منه علام فوق الوجه كالحمم^(٩)
وكيف يصبر نور الحق ، وهو عم
إذا استوى قائماً من هوة الأدم^(١٠)
والنفس مسئولة عن كل مجترم
على العباد ، فقين الله لم تنم
مما يلاقون من كُرب ومن زام^(١١)

ولما نجح أبو جهل وأمثاله من تأليب قريش على محمد ومن تابعه ، اشتدوا في تعذيب المستضعفين ، وتبع محمد والمسلمين عموماً في كل موقع بالكيد والإعنات حتى أصبح ذلك الموقف منهم معلناً من غير موارد ، لم يجد محمد ﷺ بدا من توجيهه من يخشى على نفسه الفتنة

-
- (١) الليل الداجي : الذي تمت ظلمته حتى ألبست كل شيء ، والظلم - بضم ففتح - جمع ظلمة : ذهاب النور .
(٢) اعترم للأمر : أحمله وصبر عليه ، واعتزم فلان الطريق : مضى فيه ولم ينش . المتأَم - بفتح الهمزة - : المجمع ، يقال : التأم الشيء : اجتمع .
(٣) الرشيد : حسن التقدير ، الغوى - المبالغة في الفى بفتح العين - : المعلن في الضلال ، المحتشم : المستحي .
(٤) رابه الأمر : جعله شاكاً ، استبد الجهل بهم : غلبهم فلم يقدرُوا على ضبطه ، تردى : سقط ، المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد ، الضرم - بفتح فكسر - : شديد الانتقاد .
(٥) انتكك حرمة الله : نقض العهد ، اللفة : الحسرة على الفاتات .
(٦) جتح - بفتحتين - : مال .
(٧) يبدى : يظهر ، الغمرات - بفتحتين - جمع غمرة : الشدة ، الانطواء على العداوة ، سدم - بفتح فكسر - سدماً - بفتحتين - : أصابه هم مع حزن .
(٨) الغل - بكسر العين - : العداوة والحقد الدفين ، ألم به : آتاه فنزل به ، نقى - بفتح فكسر - ينقى : نظف ، الأديم : الجلد ، حلم الجلد - بفتح فكسر - حلماً - بفتحتين - : وقع فيه دود فتتقب وفسد .
(٩) الحمم - بضم ففتح - : كل ما احترق من النار ، والعلام جمع علامة .
(١٠) الأدم - بفتحتين - جمع أديم : الأرض ، وهوة الأدم : القبر .
(١١) النصب : بالتحريك - : الصب ، الكُرب - بفتح فسكون - : الحزن والغم ، زام فلانا : ذعره ، وزأم اليرد فلانا : ملأ جسمه حتى ارتعد .

والإيذاء من أصحابه إلى الهجرة للحبشة ، فكانت تلك الهجرة الأولى ، حيث استقبلهم النجاشي ملك الحبشة بالترحيب ، ومنحهم من حرية الحركة الآمنة ما مكنهم من استرداد شيء من راحة وطمأنينة فقدوه في وطنهم ، وبين ظهرا في أهلهم .

ولكن المشركين لم يستسلموا أمام تلك الانتصارات التي حققها محمد ﷺ في نشر دعوته ، فانبرى طائفة من حاقديهم يؤلبون رعيوس القبائل القرشية لاتخاذ إجراء آخر يضيّقون به على المسلمين الخناق ، ويكرهون بقية الهاشميين على إسلام محمد إليهم ؛ فكانت تلك الصحيفة التي تضمنت اجتماعهم على مقاطعة المسلمين وسائر بني هاشم ، حتى يلجئوهم إلى التسليم والخضوع لما يرون من العودة إلى دين الآباء .

بيد إن هذه الصحيفة أثمرت غير ما توقع المشركون ، فقد جاءت وصمة عار في أوجه المشركين ، حيث أصبحوا مضغة في أفواه العرب ، لما فيها من خروج على الأعراف العربية ، حتى اضطرت طائفة من عقلاء القوم إلى إعلان الخروج على ما تضمنته من عهود ومواثيق ، فكان مكر الله خيراً من مكرهم ، وتبين أن تدبير الله أقوى من تدبيرهم ، مما هبأ بعض القبائل إلى رؤية الحقيقة . فاهتدوا بعد ضلال ، وتابعوا محمداً في دعوته ، وتخلصوا مما كانوا فيه من ضلال وتيه ، كما كان من قبيلة دوس على الرغم من محاولات المشركين .

حتى إذا لم يُعَد في الأمر منزعةً	وأصبح الشر جَهراً غير منكبم ^(١)
ساروا إلى الهجرة الأولى وما قصدوا	غير النجاشي ملكاً صادق الدم ^(٢)
فأصبحوا عنده في ظلّ مملكة	حصينة ، وذمام غير منجلد ^(٣)
من أنكر الضيم لم يأنس بصحبته	ومن أحاطت به الأهوال لم يُقِم ^(٤)
ومُد رأى المشركون الدين قد وضحت	سماؤه ، وانجلت عن صمّة الصمم ^(٥)
تألّبوا رغبةً في الشر وائتمروا	على الصحيفة من غيظ ومن وغم ^(٦)
صحيفة وسمّت بالقدّر أو جهّهم	والغدُر يعلّو بالأعراض كاللدسم ^(٧)

(١) المنزعة - بفتح الميم وكسر ها ، وفتح الزاي - : الخصومة .

(٢) الدم - جمع ذمة - : العهد والأمان والكفالة .

(٣) الذمام : العهد والأمان والكفالة جمعه أذمة ، المنجلد الشيء من أصله : انقطع .

(٤) أنكر الشيء : جهله ، الضيم : الظلم أو الإذلال ، أنس بالشيء وإليه - بفتح العين وكسر ها - : سكن إليه وذهبت به وحشته ، الأهوال - جمع الهول - : المفزع ، والأمر الشديد ، أقام بالمكان : لبث فيه واتخذ موطناً .

(٥) جلا فلان الأمر فانجل : أظهره وكشفه ووضحه ، الصمة - بكسر الصاد وتشديد الميم المفتوحة - : السداد ، والصمم - بفتح فكسر - : مبالغة في الصمة ، يقال رجل صمة : رجل شجاع .

(٦) تألبوا : تجمعوا ، التمر القوم : تشاوروا ، الوغم - بفتح الجيم - : الحقد .

(٧) وسم فلانا بالقدّر : ميزه به ، الغدر : نقض العهد وترك الوفاء به ، الأعراض - جمع عرض بكسر العين وسكون الراء - : ما يمدح ويذم من الإنسان ، الدسم - بفتح الجيم - : الوسخ والقذر .

- فكشَّف الله منها غُمَّةً نزلت (١)
من أضمرَ السوءَ جازاه الإله به
كنى الطفيل بن عمرو لَمعةً ظهرت
فى سَوَطه ، فأنارت سُدفةَ القَمَم (٢)
هدى بها الله دُوساً من ضلالها
فتابعت أَمَر داعيها ، ولم تَهم (٣)
(٤)

من معجزاته صلى الله عليه وسلم ،

ومن حديثه عن الآية التى أعان الله بها عمرا فى دعوته قومه الدوس ، بعد أن أسلم ، وسأل رسول الله ﷺ أن يدعو الله له بأن يجعل له آية تعينه فى دعوة قومه حين يعود إليهم .. من هذا الحديث انطلق البارودى مستعرضا بعض المعجزات التى وقعت على يديه ﷺ ، وفى مقدمة تلك المعجزات ما كان بينه ﷺ وبين أبى جهل حين قدم مكة رجل من إراش بإبل له ، فابتاعها منه أبو جهل ، ثم مطله بأثمانها ، فأقبل الإراشى حتى وقف على ناد من قریش ، ورسول الله ﷺ فى ناحية المسجد جالس ، فقال : يا معشر قریش ، من رجل يؤدبنى على أبى الحكم بن هشام ، فأبى رجل غريب ، وقد غلبنى على حقى ، فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس - يقصدون رسول الله ﷺ ، وهم يهزعون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه ، فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : يا عبد الله إن أبأ الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا رجل غريب ، وقد سألت هؤلاء القوم على من يؤدبنى عليه ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع . فلما جاءه ﷺ ضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج لى ، فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة ، قد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى لى له ، قال : فدخل ، ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه . فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى . فلما جاءهم التابع وأخبرهم بما رأى ، قالوا لأبى جهل حين جاء : ويلك ! ما لك ؟! قال : ويحك ! والله ما هو

(١) كشف - بالتضعيف - : مبالغة فى كشف الشيء عنه : رفع عنه ما يواريه ، الغمة - بضم الغين - : الغم والكرب ، أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما حصل ، والغمم - بضم الفتح - : جمع الغمة .

(٢) أضمر فى نفسه أمرا : عزم عليه بقلبه ، وعى الشيء : جمعه فى وعاء ، البغى : الظلم ، النقم - بكسر الفتح - : جمع النقرة : العقوبة .

(٣) كنى الرجل بكذا : سماه به ، اللمة - بضم فسكون - : كل لون خالف لونا ، أو النقرة من السواد خاصة ، السوط : ما يضرب به من جلد سواء كان مضطورا أم لم يكن ، السدفة - بضم فسكون - : الظلمة ، القم : الغبار ، يشير البارودى بذلك إلى ما كان من أمر الطفيل بن عمرو الدوسى حين أسلم ، ودعا رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية يستعين بها فى هداية قومه ، فكانت نورا فى رأس سوطه .

(٤) دوس - يفتح فسكون - : قبيلة الطفيل بن عمرو ، هام ييم : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يوجه .

إلا أن ضرب على بائى ، وسمعت صوته ، فملك رعباً ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته^(١) ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلنى .
ثم أشار البارودى إلى ما كان من أمره ﷺ حين نادى شجرة عظيمة ، فلبت نداءه ، ناشرة أغصانها عليه لتظله وتقيه حر الشمس حانية عليه حنو الأم الشقيقة .

وانتقل من ذلك إلى الحديث عن ليلة الإسراء ، وما كان فيها من تكريم له ﷺ ، سواء في إسرائه إلى بيت المقدس ، أم في عروجه إلى السماوات العلا ، حيث نال شرف لقاء ربه ، ومناجاته هناك ، حيث أكرم الله أمته بفرض الصلاة عليها تطهيراً لها من دنس الحياة الدنيا :

وفى الإراشئى للأقوام معتبر
فباعها من أبى جهل فمأطله
فجاء منتصراً يشكر ظلامته
فقام مُبْتَدِراً يسعى لثُصرتَه
فدق باب أبى جهل فجاء له
فحين لاقى رسول الله لآخ له
فهاله ما رأى ، فارتدّ منزعجاً
أ تلك أم حين نادى سرحة فأتت
إذ جاء مكة فى ذؤود من النعم^(٢)
بحقه ، وتماذى غير محتشم^(٣)
إلى النبى ، ونعم العون فى الإزم^(٤)
وئصرة الحق شأن المرء ذى الهمم^(٥)
طوعاً يجُرُّ عَنانَ الخائف الرزم^(٦)
فحل يُمُدُّ إليه الناب من أطم^(٧)
وعاد بالنقد بعد المظل عن رغم^(٨)
إليه منشورة الأغصان كالجمم^(٩)

(١) هامة العمل : رأسه ، وقصرته - بفتحين - : أصل عنقه .

(٢) الإراشئى : نسبة إلى إراش ، رجل بدوى وقعت له الأحداث مع أبى جهل ، اعتبر بالحدث : اتعظ به ، الذود : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر ، النعم - بفتحين - : المال السام ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

(٣) مأطله بحقه : أجل موعد الوفاء به مرة بعد الأخرى ، تماذى فى الأمر : بلغ فيه الغاية ، احتشم : استحي .

(٤) الظلامه - بضم الظاء - : ما تظلمه الرجل ، الإزم - بكسر ففتح - جمع الأزمة : الضيق والشدة .

(٥) ابتدره بكذا : عاجله به ، الهمم - جمع الهمة - : العزم القوى .

(٦) العنان - بكسر العين - : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، الرزم - بفتح فكسر - : مبالغة فى الرازم : الساقط من الإعياء والهزال ، أو القام فى مكانه لا يتحرك من الهزال .

(٧) لآخ له : ظهر ، الفحل : الذكر القوى من كل حيوان ، الناب : السن بجانب الرباعية ، أطم - بفتح فكسر - أطما - بالتحريك - : غضب .

(٨) هال الأمر فلانا : أفزعته ، الرغم - بالتحريك - : الإكراه على العمل .

(٩) السرحه : الشجرة العظيمة الطويلة ، الجمم - بضم ففتح - جمع الجمرة : ما ترمى من شعر الإنسان على المنكبين .

وَرَفَرْتُ فَوْقَ ذَاكَ الْحَسَنَ مِنْ رَحْمٍ^(١)
 عودى ، ولو خُلِّيتَ للشوق لم تَرمِ^(٢)
 ليلا إلى المسجد الأقصى بلا أُمِ^(٣)
 فَأَمُّهُمْ ، ثم صلى خاشعاً بِهِمْ
 به إلى مشهد في العزم لم يَرمِ^(٤)
 قدرا يَجِلُّ عن التشبيه في العِظَمِ^(٥)
 إلى مدارج أعيت كل معترِمْ^(٦)
 ليست إذا قُورِنَ بالوصف كالكَليمِ^(٧)
 ونعمة لم تكن في الدهر كالتَّعَمِ^(٨)
 قُرباه منه ، وقد ناجاه من أُمِ^(٩)
 ما لم يَنَلْهُ من التَّكْرِيمِ ذُو نَسَمِ^(١٠)
 بحسنا ، كزهو النار في العَلَمِ^(١١)
 عبادته ، وهدهم واضح اللَّقَمِ^(١٢)
 إلى العبادة ، لا يألون من سَأَمِ^(١٣)

حَتَّتْ عَلَيْهِ حُتُو الْأَمِّ مِنْ شَفَقِ
 جاءته طوعاً ، وعادت حين قال لها
 وَجَبَّذَا لَيْلَةً الْإِسْرَاءَ حِينَ سَرَى
 رأى به من كرام الرِّسْلِ طَائِفَةً
 بل جَبَّذَا نَهْضَةَ الْمَعْرَاجِ حِينَ سَمَا
 سَمَا إِلَى الْفَلَكَ الْأَعْلَى فَالَ بِهِ
 وسار في سَبَحَاتِ الثُّورِ مُزْتَقِياً
 وفاز بالجواهر المكنون من كَلِمِ
 سِرِّ تَحَارُّ بِهِ الْأَلْبَابُ قَاصِرَةً
 هيئات يبلغ فهم كنه ما بَلَّغَتْ
 فيا لها وَصْلَةً نال الحَبِيبُ بِهَا
 فاقت جيع الليالي ، فهي زَاهِرَةٌ
 هذا ، وقد فرض الله الصلاة غلَى
 فَسَارَعُوا نَحْوَ دِينِ اللَّهِ ، وَانْتَصَبُوا

الصمود أمام معاومات ترويش :

وبعد هذا الاستعراض لبعض المعجزات التي جرت تنبيهاً إلى حقيقة محمد ﷺ ، وتصديقاً له في دعوته .. عاد البارودي إلى الحديث عنه ﷺ في دعوته ، ونهوضه بأمرها في غير كلل

- (١) الرخم - بفتحين - : أخبة والمودة ، يقال : رخمه - بكسر العين - رخمًا : عطف عليه .
- (٢) خلّيت : تركت ، لم ترم : لم تفارق ، يقال : رام مكانه : فارقه .
- (٣) الأُم - بالفتح - : البطء ، يقال : أُم - بكسر العين - في سيره : أبطأ .
- (٤) المعراج : المصعد والسلام ، سَمَا : علا وارتفع ، المشهد : انجتماع ، رامه يرومه : طلبه .
- (٥) الفلك - بالفتح - : الفضاء يدور فيه النجم أو الكوكب . يجِلُّ : يعظم .
- (٦) السبحات - بالتحريك - جمع سبحة - بفتح فسكون - : الجرى والعم ، المدارج : جمع مدرج : المسالك والطرق المنعطفة ، أعيا عليه الأمر : أعجزه ، المحزم للأمر : من احتمله وصبر عليه .
- (٧) الجواهر من الأحجار : كل ما يستخرج منه شيء ينتفع به ، المكنون : الخفي لم تصل إليه الأيدي ، الكلم - بفتح فسكون - جمع كلمة ، وكذا الكلم بكسر ففتح .
- (٨) الأبواب - جمع لب - : العقل ، قاصرة : عاجزة ، النعمة - بكسر فسكون - : ما أنعم به من رزق ومال غيره ، جمعها : النعم بكسر ففتح .
- (٩) هيئات : اسم فعل ماض يفيد البعد ، الكنه - بضم فسكون - : جوهر الشيء وحقيقته ، ناجاه : ساره ، الأُم : القرب .
- (١٠) الوصل - بضم فسكون - : الاتصال ، النسم - بالتحريك - : نفس الروح .
- (١١) فاقت أصحابه : فضلعهم وصار خيرا منهم ، الزاهرة : المشرقة المتألّقة ، زهر زهوا : تَلَأَأَ وأشرق ، العلم - بفتحين - : الجبل .
- (١٢) وضح : ظهر وبان ، اللقم - بفتحين - : الطريق الواضح .
- (١٣) انتصب للعبادة : قام لها وتعباً ، ألا ، يألو : فتر وضعف ، وألا الشيء : تركه ، سَمَ سَماً : مل .

ولا ضعف ، يستقبل بها ساكنى البادية ، كما يستقبل ساكنى الحاضرة ، من غير تمييز إلا فى المنهج والأسلوب ، ويسعى لنشر الإسلام فى كل مكان ، لا يعوقه عن مسعاه صد الصادين ، ولا عوائق الطبيعة ، حتى حقق أبرز انتصار له فى ذلك الميدان ، حين هدى الله به طائفة من أهل يثرب كانوا هم نواة الأنصار ، الذين كانوا نقطة تحول خطيرة فى مسار الدعوة - بعد أن طال صدوء أهل مكة وصددهم - حيث كانت استجابة الأنصار منطلقاً جديداً للداعية الصامد ، وصل عن طريقه بدعوته إلى آفاق العالم المختلفة ، فشرق نور الإسلام وغرب ، مبدداً ظلمات الجهل والجاهلية الكثيفة ، التى أطبقت على العالم ، حتى كادت تودى بالخير فيه .

ولعلم مشركى قريش بخطر استجابة اليتريين لمحمد ، ثاروا ثورة عارمة حين بلغتهم أبناء تلك البيعة التى تعاهد فيها ممثلو يثرب مع محمد ﷺ على مناصرته والوقوف معه فى وجه كل معتد ؛ فزادوا من عنادهم وإصرارهم على مناهضة الدعوة الإسلامية ، مما ألجأهم إلى مزيد من الاضطهاد والتعذيب ، مهتضمين حقوقهم الإنسانية ، فترصدوا للمسلمين كل سبيل ، وتبعوهم فى كل مكان بالتضييق والتنكيل ، يسجنون هذا ، ويستولون على مال ذاك ، ويعتدون على بيت آخر ، فى تحرك جنونى أعماهم عن آثاره فوجهوهم بذلك من غير إدراك للهجرة إلى يثرب التى كانت فاتحة الخير على الإسلام والمسلمين ، استجابة لتوجيهات رسول الله ﷺ :

ولم يزل سيئ الكونين منتصباً	لدعوة الدين ، لم يفتر ، ولم يجم ^(١)
يستقبل الناس فى بدو وفى حضر	وينشر الدين فى سهل ، وفى علم
حتى استجابت له الأنصار واعتصموا	بجبله - عن تراض - خير معتصم ^(٢)
فاستكمل بهم الدنيا نضارتها	وأصبح الدين فى جمع - بهم - تيم ^(٣)
قوم أقروا عماد الحق واصطلموا	بأسهم كل جبار ومصطلم ^(٤)
فكم بهم أشرقت أستار داجية	وكم بهم خمدت أنفاس مختصم ^(٥)
فحين وافى قريشاً ذكراً يبعثهم	ثاروا إلى الشر ، فعل الجاهل العرم ^(٦)

(١) الكونان : الدنيا والآخرة ، التصب للحكم أو للأمر : قام له ونها ، فتر : لان بعد شدة ، أو سكن بعد حدة ، وجم : سكت غيظاً أو حزناً أو فزعاً .

(٢) الأنصار : أهل مدينة الرسول الأمين ناصروه حين هاجر اليهم ، اعتصم به : امتنع به ولجأ إليه .

(٣) لضر - بفتحين - النبات أو الوجه : كان ذو رونق وبهجة ، التيم - بكسر ففتح - جمع التيم : الشيء التام .

(٤) العماد : ما رفع شيئاً وحمله ، اصطلم : استأصل ، البأس : الشدة فى الحرب .

(٥) الأستار - جمع المتر بكسر السين - : ما يسدل على نوافذ البيت وأبوابه حجبا للنظر ، الداجية ، الظلمة ، خمدت النار : سكن هلبها ، أو ماتت فلم يبق فيها ضوء .

(٦) وافاه النبا : أدركه وبلغه ، البيعة - بفتح الباء - : العقد ، العرم - بفتح فكسر - : الشرس الشديد .

وبادهموا أهل دين الله ، واهتضموا حقوقهم بالتمادى شر مهتضم^(١)
فكم ترى من أسير لا حراك به وشارد سار من فج إلى أكهم^(٢)
فهاجر الصبح إذ قال الرسول لهم سيروا إلى طيبة المرعية الحرم^(٣)

الهجرة إلى مدينة يثرب ،

ثم خلاص البارودي إلى الحديث عن المؤامرة الكبرى التي اجتمعت لها قريش ، حين وجدوا أن كثيراً من المسلمين يهاجرون إلى مدينة يثرب ، بينما رسول الله ﷺ مقيم في مكة ، فتوجسوا الخوف من ذلك ؛ لجهلهم بما سوف يكون منه غداً ، وما دروا أنه ينتظر إذن الله تعالى له بالهجرة في اللحظة المناسبة ، وقد دفع الخوف قريشاً إلى أن تعيد النظر فيما تفعله بمحمد ؛ فاتخذت في متنها قرارها بأن تتسلل إلى منزله في الظلام عصابة من الشباب تمثل القبائل لتضربه ضربة واحدة يتخلصون بها منه ، ويضيع دمه في القبائل ، فلا يعلق بقبيلة دون أخرى ، من كل ما يثير التعجب ، إذ كيف يتأتى لقوم ذوى فطن أن يسلكوا هذا المسلك الشائن ، ويفضلوا العمى على الهدى والبصيرة ، ويطلبوا النفع مما لا يملك نفعاً ولا ضرراً ؟!

ولكنهم - مع هذا الخلل والاضطراب - أصروا على التخلص من محمد ، وإنفاذ ما دبوا ، غافلين عن أنه في رعاية رب قدير ، أرسل إليه جبريل عليه السلام لينبئه بما أضمره ، ولما رأى العصابة القرشية تحيط منزله بما يتأبطون من شر ، استخلف علياً ليبيت مكانه ، بعد أن طمأنه على نفسه ، وألبسه رداءه ، ثم خرج من بين المتربصين به ، وهو يتلو سورة (يس) ، معتصماً بما فيها من شفاء ، فلم يروه ، ولا شعروا به ، واتجه إلى الغار هو والصديق أبو بكر ، فما استقرا به حتى أتى زوج من الحمام ، بنيا في فتحته عشاً ليقميا فيه ، كأنهما حارسان يحميان من بداخل الغار ، بما يبديانه من سلوك عادى ينه الباحثين إلى استحالة اختباء أحد به ، فينصرفون دون أن يمسوا محمداً وصاحبه بسوء ، وأكمل العنكبوت حبكة التدبير ، إذ جاء فسجف الغار بنسيجه ، ليؤكد أن أحداً لا يمكن أن يلج هذا الغار ، مع بقاء هذا النسيج على حاله ، فكان العنكبوت إنما نسج خيمة تقى محمداً وصاحبه شر الأعداء ، ويخفيهما عن أعين الباحثين ، على الرغم مما يشعه محمد من نور يزيل عن البصائر أحلك الظلمات .

وفي هذا الغار مكث رسول الله ﷺ معتكفاً ، كأنه الدر الذى يؤويه البحر ، وظل كذلك هو وصاحبه ، حتى إذا اطمأننا إلى بلوغ القوم درجة اليأس ، وتوقفوا عن البحث ، طلب من

(١) بادهم : فجأه ، اهتضم حقه : نقصه ، مبالغة في هضم ، تمادى في غيه : لج فيه ، ودام عليه ، الحراك - بكسر الحاء - : الحركة ، الشاردة ، يقال : شرد فلان : ذهب مطرودا ، فهو شارد ، وشريد .
(٢) الفج - بفتح الفاء - : الطريق الواسع ، الأكم - جمع الأكمة - : التل .
(٣) الصبح - جمع الصباح - : المرافق ، طيبة : من أسماء مدينة رسول الله ﷺ ، المرعية : المحفوظة ، يقال : رعى الشيء : حفظه ، حرم الرجل : ما يقاتل عنه ويحميه ، والحرم : حرم مكة ، والحرامان : مكة والمدنية .

عبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر أن يأتيها بالذى استأجراه دليلاً في الرحلة ، حيث بدأت رحلة الهجرة إلى يثرب :

وظل في مكة الخمار منتظراً
فأوجست خيفة منه قريش ولم
فاستجمعت غصبا في دار ندوتها
ولو درث أنها فيما تحاوله
أولى لها ثم أولى أن يقيق بها
إني لأعجب من قوم أولى فطن
يعصون خالفهم جهلاً بقدرته
فأجمعوا أمرهم أن يتغفوه إذا
وأقبلوا مؤهنا في غصبة غدر
فجاء جبريل للهادي ، فأنبأه
فمد رآهم قياماً حول مأمنه
نادى علياً فأوصاه ، وقال له :

إذنا من الله في سِرٍّ ومُعْزَمٍ^(١)
تقبل نصيحاً ، ولم ترجع إلى فَهَمٍ^(٢)
تبغى به الشر من حقد ومن أَضَمٍ^(٣)
مخدولة لم تُسَمِّ في مَرْتَعٍ وَخِمٍ^(٤)
ما أضرته من البأساء والسُخَمِ^(٥)
باعوا التهي بالعمى ، والسمع بالصمم^(٦)
ويعكفون على الطاغوت والصنم^(٧)
جنُّ الظلام ، وخفت وطأة القدم^(٨)
من القبائل باعوا النفس بالزَّعَمِ^(٩)
بما أسروه بعد العهد والقَسَمِ^(١٠)
يغنون ساحته بالشر والفَقَمِ^(١١)
لا تخش ، والبس ردائي آمناً ونم^(١٢)

(١) الخمار : هو سيدنا محمد ﷺ .

(٢) أوجس القلب شيئاً : أحس به ، والخوف : توقع حلول مكروه ، أو فوت محبوب ، النصيح : الخالص من كل شيء ،
الفهم - بالتحريك - : الفهم .

(٣) استجمع القوم : تجمعوا من كل صوب ، العصب - بضم ففتح - جمع العصبة : الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير ،
الندوة : الجماعة يلتقون في ناد أو محو للبحث والمشورة في أمر معين ، بغى الشيء : طلبه ، الحقد : الانطواء على العداوة
والريص للفرصتها ، الأضم - بفتحين - : إضمار الحقد .

(٤) ساحت الماشية : رعت حيث شاءت ، المرتع : الموضع ترتع فيه الماشية ، وخم المكاث - بفتح وضم - : كان غير موافق
لأن يسكن .

(٥) أولى لك ثم أولى : يقال في التهديد والوعيد ، أي قاربك الشر فاحذر . حاق به الشيء : أصابه وأحاط به ، أضر الشيء :
أخفاه ، البأساء : المشقة ، السخم - بفتح السين والحاء - : الحقد والضغينة والموجدة في النفس .

(٦) الفطن - بكسر ففتح - جمع الفطنة : جودة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه ، النبى - جمع النبية - : العقل ،
الصمم : فقدان حاسة السمع .

(٧) عكف على الشيء : أقبل عليه ولزمه ، الطاغوت : كل رأس في الضلال يصرف عن طريق الحق .

(٨) ابغى الشيء : أراداه وطلبه ، جن الظلام : اشتد ، الوطأة : الضغطة .

(٩) الموهن - بفتح فسكون فكسر - : نحو من نصف الليل ، أوبعد ساعة منه ، العصبة : الجماعة من الناس ، غدر - بضم
فتفتح - معذول عن غادر للمبالغة : تارك الوفاء ، الزعم - بفتحين - : الطمع .

(١٠) أسروه : كتموه .

(١١) الساحة : القضاء يكون بين الدور ، فقم الأمر يفقم فقماً : لم يجر على استواء .

(١٢) الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة .

- ومرّ بالقوم يتلو - وهو منصرف -
 فلم يروه ، وزاغت عنه أعينهم
 وجاءه الوحى إيذاً بهجرته .
 فما استقر به حتى تبوأه
 بنى به عشه ، واحتلّه سكا
 إلفان ، ما جمّع المقدار بينهما
 كلاهما ذئبان فوق مربأة
 إن حنّ هذا غراما ، أو دعا طربا
 يخالها من يراها - وهى جائئة
 إن رفرت سكنت ظلا ، وإن هبطت
 مرقومة الجيد من مسك وغالية
 كأنما شرعت فى قانىء شرب
 وسجف العنكبوت الغار محتفيا
- يس ، وهى شفاء النفس من وصم^(١)
 وهل ترى الشمسَ جَهْرًا أعينُ الحَمَمِ^(٢)
 فيمم الغار بالصدى فى القَسَمِ^(٣)
 من الحمام زوجَ بارع الرِّمِ^(٤)
 يأوى إليه غداة الريح والرَّهَمِ^(٥)
 إلا لسرُّ بصد الغار مكتَمِ^(٦)
 يرمى المسالك من بُعد ، ولم ينم^(٧)
 باسم الهديل ، أجابت تلك بالنغم^(٨)
 فى وكرها - كَرَّةً ملساء من أَدَمِ^(٩)
 روت غليل الصّدى من حائر شَمِ^(١٠)
 مخضوبة الساق والكفين بالقَنَمِ^(١١)
 من أدمعى ، فعدت عمرة القدم^(١٢)
 بخيمة حاكها من أبداع الخيم^(١٣)

- (١) تلا الكتاب : قرأه ، الوصم : العار ، والعيب ، والصدع .
 (٢) زاغ البصر : مال عن مستوى النظر ، جهر الشيء جهرا : رآه بلا حجاب ، حم الشيء حمّا : اسود .
 (٣) يمم : قصد ، الغار : كل منخفض من الأرض ، والبيت المنقور فى الجبل ، القسم - بفتحين - : الظلمة .
 (٤) تبوأ المكان وبه : نزله وأقام به ، البارع : من فاق نظرائه فى أمر ، ريم المعنى ربما بوزن فروح : رجع صوته .
 (٥) احتل المكان وبه : حله ، أوى إلى المكان وإليه : نزله ، الغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس ، الرهم - بكسر ففتح -
 جمع الرهمة : المطرة الضعيفة الدائمة .
 (٦) الإلف - بكسر فسكون - المألوف ، المقدار : القضاء والحكم ، جمعه المقادير . اكتم الحديث : بالغ فى كتابته .
 (٧) الديديان - بفتح فسكون ففتح - الحارس والرقب ، المربأة - بفتح فسكون - : موضع الطليعة الذى يرقب العدو من
 مكان عال لئلا يدهم قومه ، يرمى الشيء : يحفظه ، المسالك - جمع المسلك - : الطريق .
 (٨) حنت الناقة : مدت صوتها شوقا إلى ولدها ، الغرام : التعلق بالشيء ، تعلقا لا يستطيع التخلص منه ، الطرب : خفة
 وهزة تثير النفس لفرح أو حزن أو ارتياح ، الهديل : ذكر الحمام الوحشى ، النغم : جرس الكلام .
 (٩) خال الشيء موجودا : ظنه كذلك ، جثم الحيوان فى مكانه : لزم مكانه ولم يرح ، الوكر : عش الطائر الذى يبيض فيه
 ويفرخ ، الأملس والملساء : ما لان ونعم ملمسه ، الأدم - بفتحين - جمع الأديم : الجلد .
 (١٠) الغليل : شدة العطش وحرارته ، الصدى : العطش الشديد ، الشم - بفتح فكسر - : الذى يحس الجوع والبرد .
 (١١) رقم الشيء : وشاه وطرزه ، الجيد : العنق ، الغالية : أخلاط من الطيب ، كالمسك والعبير ، والمخضوب : الملون :
 القنم - بفتحين - : مصدر قنم - بفتح فكسر - الطائر : أصاب الندى ريشه ثم لحقه الغبار فاتسح .
 (١٢) شرع يفعل كذا : أخذ يفعله ، القانى : شديد الحمرة ، السرب - بفتح فكسر - : السائل .
 (١٣) سجف الغار - بالتضعيف - : أرسل عليه السجف ، والسجف - بكسر فسكون - : أحد السترينين المقروئين بينهما
 فرجة . احضى به : احتفل ، حاك القوب : نسجه .

- قد شدَّ أطنابها فاستحكمت وزيت
كأنها سابري حاكه لبق
وارت فم الغار عن عين ثلثم به
فياله من ستار دونه قمر
فظل فيه رسول الله معتكفا
حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت
أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى
- بالأرض ، لكنها قامت بلا دغم^(١)
بأرض سابور ، في ببحوحة العجم^(٢)
فصار يحكى خفاء وجه ثلثم^(٣)
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم^(٤)
كالدر في البحر ، أو كالشمس في الغسم^(٥)
أكباد قوم بنار اليأس والوغم^(٦)
من عنده السر من خل ومن حشم^(٧)

وعندما تهيأت أسباب الارتحال ، غادر ﷺ هو وصاحبه الغار الذي نزلا به ، قاصداً مدينة يثرب ، وفي الطريق مر بقديد ، فأناخ به ليسترخ ، ونزل هناك بأم معبد التي أسفت لخلو يدها مما تقدمه قري ، فلم يكن تحت يدها سوى شاة عجفاء هزيلة . ولكن محمداً ﷺ أمر يده عليها ، طالباً من الله أن يرزقهم الخير عن طريقها ، فاستهلت ضرعاها باللبن الماطل كأنه المطر ، ولما عاود المسيرة مكماً رحلته الميمونة ، بعد أن ترك لأم معبد من الذكرى ما خلد على الزمان ، أدركه في الطريق سراقاة الذي كان يجد في البحث عنه أملاً في الحصول على ما رصدته قريش من جوائز لكل من يعثر على محمد وصاحبه ، وما دنا سراقاة من غايته ، حتى فوجيء بما لم يخطر له ببالي ، إذ ساخ الجواد به في الأرض ، التي غارت به ، فلم يستطع حراكا ، فصاح مستنجداً بمحمد ، راجياً منه العفو عنه ، نادماً على ما دبر ، لتيقنه أن لو أصر على عزمه لاحتواه جب عميق لا خلاص له منه . وما كان لعاقل بصير أن يجد في ذلك أية غرابة ، فيكفي أنه ﷺ

- (١) . الأطناب - جمع طناب - : حل يشد به الخباء ونحوه ، استحكمت واحتكمت : توثقت وصارت محكمة ، رست : ثبتت ، الدغم - بكسر الفتح - جمع الدعمة - بكسر فسكون - : ما يسند به الشيء .
- (٢) . السابري من الثياب : الرقيق الجيد ، ومن الدروع : الدقيقة النسيج في إحكام ، اللبق - بكسر الباء - : من أحكم كل عمل ، سابور : اسم عدة ملوك من أرض ساسان (ملوك الفرس) ، الببحوحة من كل شيء - بضم فسكون - : وسطه وخياره ، ويقال : يبحج في الشيء : توسع فيه ، ويبحج الدار : تمكّن في المقام والحلول بها ، العجم - بالتحريك - : خلاف العرب .
- (٣) . وارت : أخفت ، ألم بالقوم : أتاهاهم فنزل بهم ، حكى الشيء : شابهه ، التثمت المرأة : شدت اللثام ، وهو النقاب يوضع على الفم أو الشفة .
- (٤) . دون : ظرف مكان منصوب ، وهو بحسب ما يضاف إليه ، جلى النهار الظلمة : كشفها ، وجلى الأمر عنه كشفه ، الظلم - بسكون اللام - : وضع الشيء في غير موضعه ، والظلم - بفتح اللام - : جمع الظلمة : ذهاب النور .
- (٥) . اعتكف في المكان وعكف فيه : أقام فيه ولزمه ، الدر - بضم الدال - : اللؤلؤ العظيم الكبير ، الغسم - بفتحين - : الظلمة ، والقطعة من السحاب .
- (٦) . الإرجاف : الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب ، الوغم - بفتحين - : الحقد .
- (٧) . أوحى إليه : أشار وأرماً ، الرحيل : الارتحال ، الخل - بكسر الخاء - : الصديق المختص ، والحشم للرجل : خاصته الذين يفتضون لفضبه .

كان يسير في رعاية العناية الإلهية . وظل سراقاً عاجزاً عن الحركة حتى عفا عنه المصطفى ﷺ ، فانطلق من عقاله ، ليدفع عنه العيون التي خرجت تطارده :

وسار بعد ثلاث من مباءته يؤم طيبة مأوى كل معتصم^(١)
فحين وافى قديداً حل موكبُه بأم معبد ذات الشاء والغنم^(٢)
فلم تجد لقراه غير ضائفة قد اقشعرت مراعيها فلم نسُم^(٣)
فما أمرٌ عليها - داعيا - يده حتى استهلّت بذي شحّين كالديم^(٤)
ثم استقل وأبقى في الزمان لها ذكررا يسير على الآفاق كالنّسَم^(٥)
فبينما هو يطوى اليد أدركه رَكْضاً سُرّاقَةً مثل القشعَم الطُرم^(٦)
حتى إذا مادنا ساخ الجواد به في بُرْقَةٍ فَهَوَى للساق والقدم^(٧)
فصاح مبتها ، يرجو الأمان ، ولو مضى على عزمه لانهار في رَجَم^(٨)
وكيف يبلغ أمراً دوله وَزَّر من العناية لم يبلغه ذو نَسَم^(٩)
فكف عنه رسول الله وهو به أدري ، وكم نَقِمَ تَفْتَرُ عن نَعَم^(١٠)

وظل الركب الميمون يواصل مسيرته ، حتى شارف معالم طيبة ، حيث استقبل المصطفى ﷺ وصحبه استقبالا ، كشف عن مناقب الأوس والخزرج وكرم محتدهم ، وما حققه ذلك لهم من فخر ومجد ، إذ كان استقبالهم الجافل لمحمد وصحبه فضلاً تناقلته الألسن ، وحفظه لهم الزمان ، حتى أصبح يوم استقبالهم إياه يوماً أعز ، يؤرخ به ، فقد كان فيصلاً بين عهدي مرت بهما الدعوة الإسلامية ، في أحدهما عانى الرسول ﷺ ومن تابعه أشد المعاناة وأقساها ، وفي العهد الثاني تنقل المسلمون من نصر إلى نصر ، حتى أبلغوا الدعوة القاصي والداني .

- (١) المباءة : المنزل ، يؤم ، يقصد ، المأوى : الذي يؤوى إليه ويلجأ ، اعتصم به : امتنع ولجأ .
(٢) والى القوم : اتاهم ، قديداً - بضم ففتح فسكون - : موضع فيه ماء بين مكة والمدينة ، وهو إلى مكة أقرب ، حل المكان وبه : نزل ، أم معبد - بفتح الميم والباء - : هي عاتكة بنت خالد ، إحدى بنى كعب ، من خزاعة .
(٣) القرى - بكسر القاف - : ما يقدم إلى الضيف ، الضائفة : الضعيف اللبن ، اقشعرت الأرض : لم ينزل عليها المطر ، سامت الماشية : رعت حيث شاءت .
(٤) استهل المطر : تساقط ، الشخب - بفتح الشين وضمها ، وسكون الحاء - : الدفعة من اللبن عند الحلب ، الدم - بكسر ففتح - جمع الدية : المطر يدوم أياما .
(٥) استقل : مضى وارتحل ، الآفاق - جمع الأفق - الناحية ، النسم - بفتح ن - : طير سراع كالخطاطيف .
(٦) طوى الأرض : قطعها وجازها ، اليد - جمع البيداء - : القفلة ، الركض : العدو والإسراع ، ابن مالك ، القشعَم - بفتح فسكون - : السر الذكر العظيم ، والضخم المسن من كل شيء ، ويقال للحرب ، والمنية ، والداهية ، والضبع ، الضرم - بفتح الضاد والراء - : لهب النار .
(٧) ساخ الجواد : غاصت قوائمه في الأرض ، البرقة - بضم فسكون - : مكان غليظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة ، هوى : سقط .
(٨) ابتل : تضرع واجتهد في الدعاء ، الرجم - بفتح ن - : القبر ، والبئر ، والتور .
(٩) الوزر - بفتح ن - : الملجأ والمعتصم ، العناية الإلهية : تدبير الله للأشياء ، النسم - بفتح ن - : الروح .
(١٠) كف عنه : انصرف وامتنع ، النقم - بكسر ففتح - جمع النقمة - : العقوبة ، افر : انفرج .

وحين وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كان في مقدمة أعمالهم ابتناء مسجده ، الذى نهض به المسلمون حتى أضحت حقيقة سامقة ، واختار من بين أصحابه بلالاً ليقوم بالأذان للصلاة ، لما توفر له من نداوة صوت ، وتميز نغم ، حتى إذا توافدت لاستقباله القبائل ، قام ﷺ فيهم خطيباً ، داعياً إلى الهدى ، وناهياً عن الآثام ، ومقدماً إليهم كتاب ربه بما يشتمله من قيم وفضائل وآداب ، فأصبحوا بفضل ما هدوا إليه مع المهاجرين إخوة ، يراعون ذمتهم ، ويحفظون أمنهم وكرامتهم ، احتذاءً بما رسمه ﷺ لهم ، حين آخى بين المهاجرين والأنصار ، حتى قويت شوكة المسلمين ، واشتد أزهرهم ، ونهض الإسلام قوياً واضحاً ، يقبل الناس عليه من كل حذب وصوب ، لينالوا بإسلامهم أسباب الحياة الكريمة بعيداً عن مضايقات قريش وعنتهم :

أعلام طيبة ذات المنظر العَمَم ^(١)	ولم يزل سائراً حتى أناف على
لِعَشْرِ الْأَوْسِ وَالْأَحْيَاءِ مِنْ جُشَم ^(٢)	أعظم بمقدمه فخراً ومنقبة
ما سارت العيسُ بالزُّوَارِ لِلْحَرَمِ ^(٣)	فخرٌ يدوم لهم فضلٌ بذكرته
وأدرك الدينُ فيه ذروة الثَّجَمِ ^(٤)	يوم به أرخ الإسلام غرته
بنيان عز ، فأضحى قائم الدَّعَمِ ^(٥)	ثم ابتنى سيد الكونين مسجده
يُلَفِّى نظيرٌ له في ثَبَرَةِ النِّعَمِ ^(٦)	واختص فيه بلالاً بالأذان وما
له القبائل من بُعد ومن زَمَمِ ^(٧)	حتى إذا تم أمر الله واجتمعت
نهج الهدى ، ونهى عن كل مُجْتَرَمِ ^(٨)	قام النبى خطيباً فيهم فأرى
محاسن الفضل والآداب والشم ^(٩)	وعمَّهم بكتاب حض فيه على
على الزمان ، وعز غير منهدم ^(١٠)	فأصبحوا في إخاء غير منصدع

(١) أناف عليه : أشرف عليه ، الأعلام - جمع العلم - : الجبال ، العمم - بفتحين - : الاجتماع والكثرة .
(٢) المنقبة - بفتح فسكون - : الفعل الكريم ، والمفخرة ، العشر : كل جماعة أمرهم واحد ، الأوس : إحدى قبائل يثرب ، جشم - بضم ففتح - : أحياء من مضر ، ومن اليمن ، ومن تغلب ، ولق لقيف ، ولق هوازن ، وبنو جشم : بطن من بطون الأنصار .

(٣) العيس - جمع الأعيس - : الكريم من الإبل .
(٤) الثَّجَم - بالضم - من كل شيء : أوله وأكرمه ، الذروة - بكسر الدال وضمها - : أعلى الشيء .
(٥) البنى : بنى ، الكونان : الدنيا والآخرة ، الدعم - بكسر ففتح - : جمع الدعمة - بكسر فسكون - : عماد البيت الذى يقوم عليه .

(٦) ألفت الشيء : وجدته وصادفته ، التبر في النطق : إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق ، النغم : الصوت الموضع .
(٧) الزم - بفتحين - : القرب ، يقال : دارى من داره زم : قرية .

(٨) النهج : الطريق المستقيم الواضح ، اجترم الذنب : ارتكبه ، والمجترم - بفتح الراء - : الذنب .
(٩) عمهم : شملهم ، حضه على الأمر : حثه عليه بقوة ، اغاسن - جمع الحسن - : كل مبهج مرغوب فيه ، الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، الشم - جمع الشيمة - : الخلق .

(١٠) انصدع البناء : انشق ، العز : القوة .

وحين آخى رسول الله بينهم
هو الذى هزم الله الطفغاة به
فاستحكم الدين ، واشتدت دعائمه
وأصبح الناس إخوانا ، وعمهم
آخى عليا ، ونعم العون فى القحَم^(١)
فى كل معترك بالبيض محتدم^(٢)
حتى غدا واضح العرين ، ذى شَم^(٣)
فضل من الله أحياءهم من العدم^(٤)

محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة .

ولم تكن قريش - ومعهم خصوم الحق - ليركوا المسلمين بقيادة محمد وشأنهم ، ولكنهم
واصلوا مكرهم وتدابيرهم مستعينين فى ذلك بعيون لهم من يهود المدينة الذين كانوا أشد ضيقاً
بمحمد وإن حاولوا إخفائه ، فلم يكن بد من أن يأذن الله سبحانه وتعالى لرسوله فى الجهاد ،
ومواجهة غف الأعداء بما يردهم ويردعهم ، حتى يفسحوا المجال أمام الدين الإسلامى كى
يواصل مسيرته وانتشاره بين الأمم المختلفة .

وقد بدأ الرسول ﷺ تلك المرحلة الجديدة ببعض السرايا والغزوات الخفيفة ، فكان أول
غزواته سيره إلى قرية ودان بين مكة والمدينة ، ولم يحدث فى هذه الغزوة اشتباك حرى ، لأن أهل
ودان - وهم بنو ضمرة بن بكر - وادعوا النبى ﷺ ، فرجع بمن معه إلى المدينة ، ثم توالى
سراياه بعد ذلك ، حيث أرسل عبيدة بن الحارث بن المطلب فى جمع راكب من المهاجرين ،
فساروا حتى بلغوا ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعا عظيماً من قريش ، فلم يكن
بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ،
وأرسل كذلك سرية أخرى مكونة من ثلاثين راكبا من المهاجرين بقيادة حمزة بن عبد المطلب إلى
ساحل البحر من ناحية العيص ، بطريق قريش إلى الشام ، فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة
راكب من أهل مكة بذلك الساحل ، ولكن مجدى بن عمرو الجهنى حجز بينهما - وقد كان
موادعا للفريقين - فانصرفوا ولم يكن بينهم قتال . ثم نهض ﷺ بجمع من المسلمين فى شهر ربيع
الأول يريد قريشا ، حتى بلغ بواط - وهو بجبل من جبال جهينة بقرب ينبع ، يقع على أربعة برد
من المدينة - فلم يصادف أحداً يحاربه ، ثم رجع إلى المدينة ، وفى جمادى الأولى من العام نفسه
نهض فى جمع من المسلمين إلى العشيرة ، فوادع فيها بنى مُدَلج وحلفاءهم ، ثم رجع إلى المدينة فى
جمادى الآخرة ، ثم بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين ، حتى بلغ الخرار من

(١) القحَم - بضم ففتح - جمع القحمة - بضم فسكون - : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

(٢) المعترك : مكان الاغراء والقتال ، البيض - جمع الأبيض - : السيف ، المحتدم : المتقد والمشتعل .

(٣) استحكم الشيء والأمر : توثق وصار محكماً ، الدعائم - جمع الدعامة - : عماد البيت الذى يقوم عليه ، واشتدت دعائمه :

قويت ، وضح الوجه : حسن ، العرين - بكسر العين - : ما صلب من عظم الأنف ، حيث يكون الشمم ، والشمم :

ارتفاع قصبه الأنف فى استواء ، يكتى به عن العزة .

(٤) الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة .

أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق في سريته تلك من كيد ، وبعد أن عاد ﷺ من غزوة العشيرة بنحو عشرة أيام ، أغار كُرْز بن جابر الفهري على الإبل والمواشي التي تسرح للرعى حول المدينة ، فخرج ﷺ في طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، حتى بلغ ﷺ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر ، دون أن يدرك كُرزا ، فرجع ﷺ إلى المدينة - وتلك هي غزوة بدر الأولى - وعقب عوده من بدر الأولى ، بعث عبدالله بن جحش الأسدي في ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتابا ، أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا ، وكان ﷺ في كتابه يوجه عبدالله ومن معه ليمضوا حتى ينزلوا نخلة ، بين مكة والطائف ، ليرصد قريشا ، ويعلم أخبارهم ، فمضوا لما أمرهم به ﷺ حتى نزلوا بنخلة ، فمرت بهم عير لقريش تحمل زيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وكان قد حلق رأسه - فلما رآه آمنوا ، وقالوا : عُمارٌ ، لا بأس عليكم منهم ، وتشاور المسلمون فيما يفعلون ، حيث أجمعوا على قتل من يقدر عليهم ، وأخذ ما معهم ، فقتل عمرو بن الحضرمي بسهم ، وأسر عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان ، وفر الباقون ، فأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعرير وبالأسيارين ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة .

وفي شهر شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الحرم المكي :

هذا ، وقد فرض الله الجهاد على	رسوله ، ليثبت الدين في الأمم (١)
فكان أول غزو سار فيه إلى	وَدان ، ثم أتى من غير مصطدم (٢)
ثم استمرت سرايا الدين ساجدة	بالخيل جامحة ، تُسْتَنُّ باللجم (٣)
سريّة كان يرعاها عييدة في	صَوْب ، وحزرة في أخرى إلى التّهم (٤)
وغزوة سار فيها المصطفى قدما	إلى بُواط ، بجمع ساطع القَم (٥)

(١) الجهاد : قال من ليس لهم ذمة من الكفار ، بث الدين : نشره وأذاعه .

(٢) ودان - بفتح الواو وتضعيف الدال - بنو حمزة بن بكر ، المصطدم : التصادم والقتال .

(٣) السرايا - جمع السرية - : القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، والمراد بها هنا البعوث الحربية الصغيرة التي يعيها الرسول ﷺ ، جمع الفرس : جمع الفرس : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه ، استن الفرس : جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة ، اللجم - جمع اللجام - : الحديد في فم الفرس ، ثم سموها مع ما يتصل بها من سيور وآلة لجاما .

(٤) عييدة : هو ابن الحارث بن المطلب ، الصوب : الجهة ، وحزرة : هو ابن عبدالمطلب ، التهم - بفتحين - : الأرض المنصوبة إلى البحر .

(٥) الغزوة - المرة من الغزو - : السير إلى قتال العدو في ديارهم ، القدم - بضمين - : ظرف بمعنى إلى الأمام ، ويقال : يمضي في الحروب قدما : لا يتوالى ، بواط - بضم الباء - : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع ، يقع على أربعة برد من المدينة . سطع الغبار : انتشر وارتفع ، والقَم - بفتحين - : الغبار .

ومثلها ، يمت ذات العُثَيْرَة في
وسار سعد إلى الخَرَّار ، يقدمه
ويمت سَفَوَان الخِيْل ساجحةً
وتابع السير عبد الله متجهها
وحولت قبله الإسلام وقتل
جيش لهام ، كموج البحر ملتطم^(١)
سعد ، ولم يلق في مسراه من بشم^(٢)
بكل معزم للقرن ملتزم^(٣)
تلقاء نخلة ، مصحوبا بكل كمي^(٤)
عن وجهة القدس نحو البيت ذى العظم

غزوة بدر وماتلها من غزوات :

ومن هذا العرض المجل لسرايا الرسول ﷺ وغزواته بعد الاستقرار النسبي في المدينة المنورة ، وبعد فرض الجهاد .. انطلق مستعرضا غزواته ﷺ بشيء من التفصيل الذي يكشف عن بسالة المسلمين ، وحرصهم على تحقيق النصر ، مرضاة الله ، وتمهيدا للأرض أمام الإسلام .

ومن هنا أخذ في الحديث عن غزوة بدر الكبرى ، فذكر أن المصطفى ﷺ بعد تلکم السرايا قصد بدرا ، فحقق فيها نصرا بدد ظلمة الشرك ، وسعد به المسلمون ، بينا عيون المشركين تنهمل بدموع الحزن والأسى ، فلقد أبلى المسلمون في هذه المعركة البلاء الحسن ، وكان في مقدمتهم على بن أبي طالب ، الذي استغل ما آتاه الله من قوة وشدة ، فأبلى خير البلاء ، وكذلك جال حمزة بن عبد المطلب ففرق بسيفه الصمصام جموع المشركين ، حتى ألحق المسلمون بالمشركين شر هزيمة ، فلم يثبت في الميدان فارس واحد من فرسانهم ، وما كان لأحد منهم أن يثبت وهو يرى سيوف المسلمين تطير منهم الهام فتترك أجسامهم فرائس للطيور المتوحشة ، فقد رأوا المسلمين يغشون المعركة وكأنهم في ميدان ألعاب رياضية ، لا تبدو على أوجوههم هموم الحرب ولا شيء من مخاوفها ، حتى بدت السيوف في أيديهم كأنها العصي التي تضرب بها الكرة ، ورأوا الكمأة من قادتهم يجندلون في أرض المعركة بسيوف المسلمين ، ولذلك لم تطل تلك الحرب ، فإنما هي ساعة ، ثم غدا جمع المشركين مبددا ، والسماء تمطرهم بالسيوف والرماح ، فتبدد ما كان يكسوهم من زهو وتكبر ، وزال عنهم ما كانوا عليه من فخر وترفع .

(١) يمت : قصبت ، ذات العشرة - يضم العين وسكون الياء - : موطن بني مدلج ، الجيش للهام - يضم اللام - : الجيش العظيم ، كأنه يلتم كل شيء ، التعلت الأمواج : ضرب بعضها بعضاً .

(٢) سعد : هو ابن أبي وقاص ، الخرار - بفتح الخاء والراء المضممة - : من أرض الحجاز ، البشم - بفتحين - : السأم .

(٣) سفوان - بفتحين - : وادي ناحية بدر ، المعزم للأمر : الصابر عليه ، القرن من القوم - بفتح القاف وسكون الراء - : سيدهم ، الملتزم : من أوجب الأمر على نفسه .

(٤) عبد الله : ابن جعش الأسدي ، نخلة : مكان بين مكة والطائف ، التلقاء - بكسر التاء - : مصدر لقي ، وتوسعوا فيه فاستعملوه ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء ، الكمي - بفتح فكسر - : لابس السلاح ، والشجاع المقدام كان عليه سلاح أم لم يكن .

لقد جاء هؤلاء المشركون قاصدين الشر بالمسلمين ، فأرغموا على خلاف ما قصدوا ولا عجب في ذلك ، فذلك هي نهاية كل من يعارض الحق ، ومن يتصدى لمسيرة الهدى بالكيد :

ويعم المصطفى بدرأ ، فلاح له
يوم تبسم فيه الدين ، وانططت
أبلى على به خير البلاء بما
وجال حمزة بالصمصام يكسؤهم
وغادر الصحب والأنصار جمعهم
تقسمتهم يد الهيجاء عادلة
كأنما البيض بالأيدى صوالجة
لم يبق منهم كمى غير منجدل
فما مضت ساعة والحرب مُسفرة
قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة

بدر من النصر ، جلى ظلمة الوحش^(١)
على الضلال عيون الشرك بالسجم^(٢)
حياه ذو العرش من بأس ومن همم^(٣)
كسأ يفرق منهم كل مُزدحم^(٤)
وليس فيه كمى غير منزم^(٥)
فالهام للبيض ، والأبدان للرحم^(٦)
يلعين في ساحة الهيجاء بالقمم^(٧)
على الرغام ، وعضو غير منحطم^(٨)
حتى غدا جمعهم نهباً لقتسم^(٩)
بالمشرقية والمران كالرجم^(١٠)

(١) بدر الأولى : مكان قرب المدينة ، وبدر أحد أدوار القمر الشهرية ، جلى النهار الظلمة - بفتح الجيم واللام المضعفة - : كشفها ، الرخم - بفتحيتين - : تعفن الهواء المورث للأمراض الوبائية ، والرخم : الضرر .

(٢) هطل الدمع : سال ، السجم - بفتحيتين - : الدمع .

(٣) أبلى في الأمر : اجتهد فيه وبالح ، حياه : أعطاه ، الأس : الشدة في الحرب ، الهمم - بكسر ففتح - : جمع الهمة : العزم القوى .

(٤) جال بسيفه : لعب به وأداره على جوانبه ، الصمصام - بفتح الصاد - : السيف الصارم لا ينشئ ، كسأ القوم يكسؤهم - بفتح السين - : غلبهم في خصومة ونحوها ، المزدحم - بفتح الحاء - : مكان الازدحام ، ومزاحة القوم بعضهم بعضاً .

(٥) الكمى : الشجاع المقدام من غير حاجة إلى سلاح .

(٦) الهيجاء : الحرب ، الهام - جمع الهامة - : الرأس ، البيض - بكسر الباء - : جمع الأبيض : السيف ، البدن : ما سوى الرأس ، والأطراف من الجسم ، الرخم - بفتحيتين - : طائر ضخم له جناح طويل مدبب ، يبلغ طوله نحو نصف متر .

(٧) الصوالجة - جمع الصولجان - : عصا معقوف طرفها ، يضرب بها الفارس الكرة ، القمم من كل شيء - جمع القمة - : أعلاه .

(٨) المنجدل : المنصرع ، الرغام - بكسر الراء - : التراب ، منحطم : منكسر .

(٩) أسمر الحرب : أشعلها وهيجه ، غدا الشيء كذا : صار ، النهب - بفتح فسكون - : الغنيمة .

(١٠) المشرقية - جمع المشرق - : السيف المجلوب من المشارف ، وهى القرى العربية المشرفة على سواد العراق ، أو مشارف الشام ، أو مشارف اليمن . المران - بضم الميم - : جمع المرانة : الرمح الصلب اللدن . الرجم - بفتحيتين - : النور ، والحجارة التى توضع على القبر .

فأين ما كان من زهو ، ومن صلف وأين ما كان من فخر ، ومن شَمَم^(١)
جاءوا وللشر وسَم في معاطِسهم فأرغموا ، والردى في هذه السِّيم^(٢)
من عارض الحق لم تسلم مقاتلته ومن تعرض للأخطار لم يَم^(٣)

ثم تناول - في إجمال - ما كان بعد بدر من غزوات وسرايا سبقت أحداً ، فذكر أن رسول الله ﷺ - بعد انقضاء غزوة بدر - اتجه بالأبطال نحو بني سليم في الكُدَر - وهو أحد مياه بني سليم - فلم يلقه أحد هناك بكيد ، وفروا تاركين أموالهم ، وبعد أن عاد إلى المدينة سار ثانية في طلب أي سفيان ومن قدموا معه للغارة على أطراف المدينة ، ولكن أبا سفيان فر حين علم بخروج المسلمين ، واضطر هو ومن معه إلى التخفف من مؤنهم وكانت سويقاً عثر عليه المسلمون فغنموه ، ولذلك سميت غزوة السويق ، ولما رجع إلى المدينة علم بخروج جماعة من محارب وغيرهم لمحاربة المسلمين ، فعاجلهم رسول الله ﷺ في نجد ، ففر القوم إلى رعوس الجبال ، فعسكر عليه ﷺ بموضع يقال له (ذو أمر) ، فسميت الغزوة بذى أمر ، ثم قصد قرية الفرع على طريق مكة بينها وبين المدينة ثمانية برد ، فلم يواجه هناك كيذا ، ثم تلا ذلك خروج يهود بني قينقاع عن عهدهم مع رسول الله ﷺ ، واتجه بالجيش نحو حبيهم في حملة تأديبية ، اضطروا بها إلى نزولهم على حكمه . ثم أرسل زيد بن حارثة في جمع للملافة تجارة قريش بقيادة أبي سفيان ، وكانوا غيروا طريقهم إلى الشام خوفاً من المسلمين . فسار إليهم زيد وأصاب غيرهم على ماء بنجد يقال له (القرّة) ، وبه سميت السرية :

فما انقضى يوم بدر بالتى عظمت حتى مضى غازيا بالخيـل في الشُّكْم^(٤)
فيمم الكُدَر بالأبطال منتحيا بنى سليم ، فولت عنه بالرَّغْم^(٥)
وسار في غزوة تدعى السويـق بما ألقاه أعداؤه من عَظْم زادهـم^(٦)
ثم التحى بوجوه الخيل ذا أمر ففر ساكنه رُغبا إلى الرِّقَم^(٧)

(١) الزهو : الكبر ، الصلف : التكبر وثقل الروح ، الشمم : الترفع والاباء .

(٢) الوسم : العلامة ، المعاطس - جمع المعطس - بفتح الطاء وكسر ها - : الأنف ، أرغم : أذل عن كره ، الردى : الهلاك ، السيم - بكسر ففتح - جمع السمة : العلامة .

(٣) المقاتل - جمع مقاتل - : الموضع الذى إذا أصيب فيه الإنسان أو الحيوان لا يكاد يسلم ، تعرض : تصدى ، تعرض فلان للخطر : صار عرضة له .

(٤) مضى : ذهب ، الشكـم - بضمـتين - جمع الشكـمة : الحديدـة المعـرضـة فى فـم الفـرس من اللـجام .

(٥) الكدر - بضم كـ - : واحد من مياه بني سليم ، انتهى الشيء : قصده ، الرغم - بفتحـين - : الدلـل والإكـراه على العمل .

(٦) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمي بذلك لانساقه في الحلق ، وأطلق هذا الاسم على الغزوة لأن المسلمين فيها غنموا طعام المشركين بعد فرارهم ، وكان سويقاً . عظم الشيء - بفتح فسكون - : أكثره .

(٧) انتهى المكان : قصده ، ذو أمر - بفتح الهمزة والميم - : موضع بنجد ، الرقم - بفتحـين - : موضع بالمدينة منه السهام الرقميات .

وَأَمَّ فُرْعَاءَ فَلَمْ يَتَّقَفْ بِهِ أَحَدًا وَمَنْ يُقِيمُ أَمَامَ الْعَارِضِ الْهَزِيمِ^(١)
وَلَفَّ بِالْجَيْشِ حَتَّى قَيْتَقَاعَ جَنُوسًا ، فَتَعَسَّاهُمْ مِنْ مَعَشَرِ قَوْمٍ^(٢)
وَسَارَ زَيْدٌ بِجَمْعٍ نَحْوَ قَرْدَةٍ مِنْ مِيَاهٍ نَجِدٍ ، فَلَمْ يَتَّقَفْ سِوَى النَّعَمِ^(٣)

حتى إذا عرض لغزوة أحد ، عاد لتهجه في غزوة بدر ، فقدمها في شيء من التفصيل ؛ فذكر أن الرسول ﷺ استقبل فرسان المشركين في أحد بفرسان المسلمين الأشداء ، فكانت لذلك من أشد المعارك التي بدا فيها الجِدُّ والجهد ، والتي كانت بنهايتها اختبارا للمسلمين وتمحيصا ، فقد أظهر الجميع من ضروب القتال وفنون الكر والفر ما أصاب جنود الشرك بالزلزال ، فأقدموا على الموت غير هيايين ، حتى نال من استشهد منهم شرف الشهادة وجزاءها ، وتلك هي سنة الحياة التي فطرنا الله عليها ، فالعواقب السارة لا بد لها من مقدمات تستغرق الجهد ، وتستلزم الصبر ، حتى يظهر الفرق بين الكرام واللثام .

لقد بذل الفريقان في هذا اليوم من الجهد ما جعل هذا اليوم مميزا بما حدث فيه ، وبمن نال الشهادة من المسلمين ، الذين شرفوا بأن يقدمهم حمزة بن عبد المطلب ، فقالوا جميعا فخر السيادة والشرف ، كما تميز هذا اليوم بما نال النبي ﷺ فيه من حرج ، حين اشتد وطيس الحرب ، وانقلب انتصار المسلمين هزيمة بسبب ما وقع فيه الرماة من خطأ – على ما أشار إليه البارودي من غير إفصاح – فالتزم ﷺ الصبر ، حتى يخرج من المعركة بأقل خسائر ممكنة وقد حقق في ذلك ما أَرَادَهُ .

ثُمَّ اسْتَدَارَتْ رَحَا الْهَيْجَاءِ فِي أَحَدٍ بِكُلِّ مَفْتَرَسٍ لِلْقِرْنِ مَلْتَمِمْ^(٤)
يَوْمٌ تَبَيَّنَ فِيهِ الْجِدُّ وَاتَّضَحَتْ جَلِيَّةُ الْأَمْرِ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالسَّامِ^(٥)
قَدْ كَانَ خُجْرًا ، وَتَمَحِيصًا ، وَمَغْفَرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهَلْ بَرءٌ بَلَا سَقَمٍ^(٦)

(١) الفرع – بضم فسكون –: قرية من نواحي الريدة ، بينها وبين المدينة ثمانية برد ، على طريق مكة ، وهي قرية غناء كبيرة ، ثقف الرجل في الحرب – بفتح فضم –: أدركه ، العارض : ما اعتراض في الأفق فسد ، من سحب أو جراد أو نحل ، الهزم – بفتح فكسر –: ألغى لا يقطع .

(٢) لف الشيء بالشيء : ضمه إليه ووصله به ، بنو قيتقاع : من يهود المدينة ، جنى : أذنب ، تعسَّاهم : دعاهم عليهم ، القزم – بضمين –: الداء الليم .

(٣) قردة – بفتح فسكون –: ماء بنجد ، النعم – بفتحين –: المال السام .

(٤) الرحا : الأداة التي يطحن بها ، الهيجاء : الحرب ، القرن للإنسان – بكسر القاف وسكون الراء –: مثله في الشجاعة والشدة ، والعلم ، والقتال ، وغير ذلك . التهم الشيء : ابتلعه بمره .

(٥) جلية الأمر : حقيقته ، الجهد – بفتح فسكون –: المشقة ، وفتح الجيم وضما : الوسع والطاقة ، السام : الملل .

(٦) الخبر – بضم فسكون –: الابتلاء والامتحان ، التمهيص : التخلص من الشوائب والعيوب ، غفر الذنب : ستره وعفا عنه ، البرء : الشفاء ، السقم – بفتحين ، وبضم فسكون –: طول المرض .

- مضى علىَّ به قُدماً فزلزلهم
وأظهر الصَّحب والأنصار بأسهم
خاضوا المنايا ، فنالوا عيشةً رغداً
من يلزم الصبر يستحسن عواقبه
لو لم يكن في احتمال الصبر منقبةً
فكان يوماً عتيد البأس ، نال به
أودى به حمزةُ الصنديد في نفر
أحسِن بها ميتةً ، أحب بها شرفاً
لا عار بالقوم من موت ومن سلب
فكان يومَ جزاءٍ بعد محتَبَر
قام النَّبِيُّ به في مأزقٍ حَرَج
فلم يزل صابراً في الحرب يفتوها
ورَدَّ عينَ ابنِ نعمان قتادةً إذ
- بحملة أوردتهم مَوْرِدَ الشَّجَم^(١)
والبأس في الفعل ، غير البأس في الكلم^(٢)
ولسدة النفس لا تأتي بلا ألم^(٣)
والماء يَحْسُنُ وقعا عند كل ظم^(٤)
لم يظهر الفرقُ بين اللؤم والكرم^(٥)
كلا الفريقين جَهْدًا وارى الحدم^(٦)
نالوا الشهادة تحت العارض الرِّزْم^(٧)
والموت في الحرب ، فخر السادة القُدَم^(٨)
وهل رأيت حساماً غير مثلم^(٩)
لمن وفا وجفا بالعز والرغم^(١٠)
ترعى المناصلُ فيه منبت الجُعم^(١١)
باليض حتى اكست ثوبا من العَم^(١٢)
سالت ، فعادت كما كانت بلا لَتَم^(١٣)

- (١) القدم - بضم فسكون - : المضى إلى الأمام ، الحملة في الحرب : الكر ، أو رده الطريق : جملة يرده ويدخله ، والمورد - بكسر الراء - : الطريق ، الشَّجَم - بفتحيتين - : الهلاك .
- (٢) البأس : الشدة في الحرب .
- (٣) خاض الأمر ، وخاض فيه : دخله ومشي فيه ، المنايا - جمع الميتة - : الموت ، نال الشيء : حصل عليه ، العيش الرغد - بفتحيتين - : الكثير الواسع الذي لا يتعب فيه .
- (٤) وقع الكلام في نفسه : أثر فيها ، ووقع الأمر عنده موقعاً حسناً : نال منه حظاً ومنزلة .
- (٥) المنقبة - بفتح فسكون ففتح - : الفعل الكريم والمفخرة ، اللؤم : دناءة الأصل وضع النفس .
- (٦) العيد : المهيأ والحاضر ، البأس : الحرب ، الفريقان : جيش المسلمين وجيش المشركين ، الجهد - بفتح فسكون - : المشقة ، الزند الواري : الذي خرجت ناره ، والحدم - بفتحيتين - : الانقاد والالتهاب .
- (٧) أودى به : ذهب به ، الصنديد - بكسر فسكون - : الشريف الشجاع ، النفر - بفتحيتين - : من ثلاثة إلى عشرة من الرجال ، العارض : ما اعتراض في الألق فسده ، من سحاب أو جراد أو نحل ، الرزم - بفتح فكسر - الفيت الذي لا ينقطع رعه .
- (٨) الشرف : العلو والجد ، القدم من الرجال - بضميتين - : الشجاع .
- (٩) العار : كل ما يلزم منه سبة أو عيب ، السلب - بفتحيتين - : ما يسلب ، الحسام : السيف القاطع ، انظم السيف : تشقق حده فأصبح غير ماضى القطع .
- (١٠) وفي الرجل بعده : عمل به ، جفا : نيا وبعد ، وجفا الشيء : أبعد وطرحه ، عز فلان عزا : قوى وبرىء من الذل ، وعز عليه الأمر : اشد وشق ، الرغم - بفتحيتين - : الإكراه على عمل .
- (١١) المأزق - بكسر الزاي - : المضيق الحرج بفتح الراء ، والحرج : الضيق والإخم ، المناصل - جمع المنصل بضم فسكون - : السيف ، الجعم - بفتحيتين - : جمع الجملة من الإنسان : مجتمع شعر ناصيته .
- (١٢) فتأ فلاناً عن رأيه : صرفه عنه ، العَم - بفتحيتين - : نبات أملس ، أزهاره قرمزية - بكسر القاف - : يتخذ منها خضاب .
- (١٣) في معركة أحد أصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ بيده ، فصحت وكانت أحسن عينيه ، همت الحجارة رجل الماضى : عقرتها .

وعاد البارودي ثانية للاكتفاء بالإشارة التاريخية إلى بعض الغزوات والسرايا ، فنبه إلى ما كان بعد أحد في يوم الرجيع - وهو ماء لهديل بناحية الحجاز - من غدر بالعهد ، إشارة إلى ما رواه ابن هشام من أن رهطا من (عضل) - بفتح العين والضاد - و (القارة) - بالراء المخففة - وهما من الهون - بفتح فسكون - ابن خزيمة قدم على النبي ﷺ طالبين منه أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهونهم في الدين ، ويقرئونهم القرآن ، ويعلمونهم شرائع الإسلام لأن فيهم ميلا إلى الإسلام ، فبعث معهم نفرا ، فلما كانوا على الرجيع استصرخوا عليهم هذيل ، ثم أخذوهم أسرى ليقدموهم إلى قريش ، ونبه كذلك إلى حادثة بئر معونة ، حيث استجاب رسول الله ﷺ لرجاء أبي براء ، عامر بن مالك - المعروف بملاعب الأسنة - بأن يبعث معه في جواره من يدعو أهل نجد للإسلام ، فبعث معه أربعين رجلا ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم - فنقض عامر بن الطفيل وبنو سليم عهد أبي براء ، وناجزوهم الحرب حتى قتلوهم جميعا عدا كعب بن زيد . ثم أشار إلى تأمر بنى النضير على رسول الله ﷺ حين خرج إليهم في أمر دية قتيلين من بنى عامر ، حيث أرادوا أن يستغلوا وجوده بينهم ليقتلوه بإلقاء صخرة عليه ، فأوحى إليه ماديده القوم ، فأمر رسول الله ﷺ بالتهيب لخصمهم ، حيث انتهى الأمر بإجلالهم ، ثم ذهب ﷺ على رأس جيش للانتقام من أهل نجد ، ولأن المسلمين في تلك الغزوة رقعوا راياتهم سميت (ذات الرقاع) ، وتلا ذلك بالحديث المجمل عن غزوه بدر الآخرة ، حين ذهب رسول الله ﷺ إلى بدر في انتظار أبي سفيان ، الذي فر هاربا من طريق آخر ، ثم كان غزوة بدر ﷺ دومة الجندل ، فلم يلق بها من يحاربه .

وقد أتى بعد ذا يوم الرجيع بما	فيه من الغدر ، بعد العهد والقسم ^(١)
وثار نقع المنايا في معونة من	بنى سليم بأهل الفضل والحكم ^(٢)
ثم اشرأت الخفر العهد من سفه	بنو النضير ، فأجلأهم عن الأطم ^(٣)
وسار منتحيا ذات الرقاع فلم	تلق الكتاب فيها كيد مصطدم ^(٤)
وحل من بعدها بدرا لوعد أبي	سفيان ، لكنه ولى ولم يخم ^(٥)
وأتم دومة في جمع ، وعاد إلى	مكانه ، وساء النقع لم تغم ^(٦)

(١) الرجيع : ماء لهديل بناحية الحجاز .

(٢) النقع - بفتح فسكون - : الغبار الساطع ، بئر معونة : بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم ، الحكم - جمع الحكمة - : العلم والتفقه ، والكلام الذى يقل لفظه ويحل معناه .

(٣) اشرأت إليه وله : مد عنقه ، أو ارتفع لينظر إليه ، خفر العهد - بفتح فسكون - : نقضه ، السفه : الخفة والطيش والجهل ، أجل العدو عن الأرض : أخرجهم منها ، الأطم - بضمين - : الحصن ، وجمعه الأطام والأطوم .

(٤) انتحى ذات الرقاع : قصد بها ، ذات الرقاع : شجرة بأحد منازل بنى ثعلبة ، الكتاب - جمع الكيبة - : الجيش ، الكيد : إرادة مضرة الغير ، اصطدما : صدم كل منهما الآخر .

(٥) حل المكان وبه : نزل ، ولى عن المكان : أدبر عنه وفر ، حام حول الشيء : دار .

(٦) دومة : دومة الجندل - بضم الدال - : اسم حصن ، النقع : الغبار الساطع ، غامت السماء : غطاها الغيم .

غزوة الخندق وما ترتب عليها .

ثم ذكر ما كان من قریش حين أرادت الثأر من المسلمين ، فاستثارت أحلافها ، ثم خرجت في جيش عظيم قام فيه أبو سفيان حاضاً على الهجوم الشرس ، تنفيساً عن أحقادهم ، وما تمتلئ به نفسه من حنق وغيظ ، فقابلهم المسلمون بحفر خندق حول المدينة ليحميها من هجوم المعتدين ، ثم وقفوا في المواجهة أسوداً تحمي آجامها ، فلم يستطع المعتدون أن يحققوا مآربهم ، ولأن يصلوا إلى شيء مما أرادوه ، لأنهم لم يدركوا أنهم يريدون مستحيلاً ، لأنهم إنما يحاربون الله ، ولذلك خيب الله مساعدهم ، فأرسل عليهم ريحاً عاتية قوضت دعائم مخيماتهم فحطمتها وقلبت موازينهم ، وأثارت الاضطراب والهرج في معسكرهم ، فاضطروا إلى الفرار ليلاً ، فلقى الباغي جزاء بغيه ، ونال المغرور ثمرة غروره ، وتلك هي النهاية الطبيعية لكل طامع معتد :

ثم استثارت قریش - وهي ظالمة - أحلافها ، وأتت في جحفل لهم^(١)
تستمرىء البغي من جهل ، وما علمت أن الجهالة مدعاة إلى التلثم^(٢)
وقام فيهم أبو سفيان من حنق فخذق المؤمنون الدار ، وانتصبوا يدعو إلى الشر ، مثل الفحل ذى القضم^(٣)
لحربهم ، كضواري الأسد في الأجم^(٤)
فما استطاعت قریش نيل ما طلبت وهل تنال الثرياً كفى يستلم^(٥)
رامت بجهلتها أمراً ، ولو علمت ماذا أعد لها في الغيب لم ترم^(٦)
فخيَّب الله مسعاها ، وغادرها نهب الردى والصدى والريح والطسم^(٧)
فقوضت عمد الترحال ، وانصرفت ليلاً إلى حيث لم تسرح ، ولم تسم^(٨)
وكيف نحمد غقبى ما جنت يدها بغيا ، وقد سرحت في مرتع وخم^(٩)

(١) استثارت : هيجته ونشره ، الأحلاف - جمع الحليف - : المعاهد على التناصر ، الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل ، اللهم - بفتح لكسر - : الأكل .

(٢) استمرأ الشيء : وجده شيئاً جيداً المغبة ، البغي : الظلم ، المدعاة : الدعوة ، التلم - بفتحيتين - : وجود الانشقاق .

(٣) الحق - بفتحيتين - : اشتداد الغيظ ، الفحل : الذكر القوي من كل حيوان ، القضم - بفتحيتين - : تكسر أطراف السن .

(٤) خندق : حفر خندقاً ، الأسد الضاري : الذي اشتد جوعه ، الأجم جمع الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٥) الثريا : نجم ، سمي بذلك لكثرة ألجمه مع صغر منظره .

(٦) رام الشيء : طلبه .

(٧) الردى : الهلاك ، الصدى : العطش الشديد ، الطسم - بفتحيتين - : الظلام والغبرة .

(٨) قوص البناء - بتضعيف الواو - : هدمه ، سرحت الماشية - بفتحيتين - : سامت ، وسامت الماشية : رعت حيث شاءت .

(٩) العقبى - بضم فسكون - : الجزء ، جنى : أذنب ، الظلم : المرتع : الموضع الذي ترعى فيه الماشية وتلعب . وخم الأمر - بفتح فضم - : فهو وخم ووخيم : أى ثقيل ردىء .

قد أقبلت ، وهى فى فخر وفى جذل وأدبرت ، وهى فى خِزى وفى سَدَم^(١)
من يركب القسّى لا يحمّد عواقبه ومن يُطع قلبه أمر الهوى يَهِيم^(٢)

وقد ترتب على غزوة الخندق توجه الرسول ﷺ لغزو يهود بنى قريظة لنقضهم عهدهم مع رسول الله ﷺ ، وسعيهم لدفع قريش إلى تجميع الأحزاب العربية لغزو المسلمين ، على أن يعينوهم على اقتحام المدينة ، فلما رجعت قريش ومن معها من الأحزاب رأى ﷺ أن خيانة بنى قريظة تستوجب طردهم من المدينة لاستحالة ائتمانهم بعد ذلك ، ولكن اليهود لجأوا إلى حصونهم ظنا منهم أنها مانعتهم من الانتقام ، فلما تبينوا عدم جدوى الحصون نزلوا على قراره ﷺ ، وخرجوا أذلاء ، وما حدث لبنى قريظة حدث مثله لبنى المصطلق ، فظهرت المدينة من رجس هؤلاء وأولئك ، ثم توجه إلى بنى لحيان لينتقم منهم لما صنعوه فى يوم الرجيع ، وعقب رجوعه ﷺ إلى المدينة يم صوب ذى قرد ليؤدبهم على ما صدر من عينة بن حصن بن بدر الفزادى الذى انتهز خروج الرسول إلى بنى لحيان فأغار على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة ، وبعد عودته بنحو شهرين توجه إلى مناجزة بنى المصطلق من خزاعة بالمريع ، حين علم بتأهبهم للإغارة على المدينة ، فلقبهم على ماء لهم يقال له المريع .

ثم انتحى بوجهه الخيل ساهمة بنى قريظة فى رَجْرَاجَة حُطَم^(٣)
خانوا الرسول ، فجازاهم بما كسبوا وفى الخيانة مدعاة إلى النقم^(٤)
وسار ينحو بنى لحيان ، فأعتصموا خوف الردى بالعوالى كل معتصم^(٥)
وأُمّ ذاقِرْدَ فى جحفل لَجِب يَسْتَنُّ فى لاحب باد ، وفى نَسَم^(٦)
وزار بالجيش - غزوا - أرضَ مصطلق فما اتقوه بغير البيض فى الخدم^(٧)

(١) الجذل - بفتح حاء - الفرح ، الخِزى - بكسر فسكون - : السوء والشر والفضيحة . السدم - بفتح حاء - : الإصابة بالهم أو الغيظ مع الحزن .

(٢) القسّى - بفتح القاف - : الإمعان فى الضلال ، وركوب القسّى : فعله وارتكابه ، الهوى : الحب ، هام فلان يَهِيم : خرج على وجهه فى الأرض لا يدري أين يتوجه .

(٣) انتحى : مال إلى ناحية . سهم يسهم - بوزن فتح يفتح - : تغير لونه عن حال لعارض من هم أو حزن ، بنو قريظة : من يهود المدينة ، الرجراج - بفتح فسكون - : الكتيبة لا تكاد تسير لكثرتها ، الحطم - بالتحريك - : الأكل الذى لا يشبع .

(٤) المدعاة : الدعوة ، النقم - بكسر ففتح - : جمع النقمة : العقوبة .

(٥) بنو لحيان - بكسر اللام - : حى من هذيل ، اعتصم به : امتنع ولجأ ، الردى : الهلاك ، العوالى - جمع العالية - : من الوادى ، حيث ينحدر الماء منه ، والعالية أيضا : ما فوق نجد إلى تهامة إلى ما وراء مكة .

(٦) أم : قصد ، ذو قرد - بفتح القاف والراء - : موضع قرب المدينة ، الجحفل - بفتح فسكون - : الجيش الكثير فيه خيل ، اللجب - بفتح لجر - : ذو الصياح والجلبة والاضطراب ، استن الفرس : جرى فى نشاطه على سته فى جهة واحدة ، اللاحب : الطريق الواضح ، النسم - بفتح حاء - : الطريق الدارس .

(٧) الخدم - بفتح حاء - : جمع الخدمة : سير غليظ محكم مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير .

وفي أواخر سنة ست من الهجرة قرر رسول الله ﷺ أن يخرج إلى البيت الحرام معتمرا ، فلما اعترضه مشركو مكة عند قرية الحديبية قبيل وصوله إلى مقصده ، فتح باب التفاوض ، حيث انتهت المفاوضات بعقد صلح بين الطرفين عرف بصلح الحديبية ، كان من أبرز ما تقرّر فيه وقف الحرب عشر سنوات حتى يأمن الناس

وفي الحديبية الصلح استتب إلى عشر ، ولم يجر فيها من دم هدم^(١)

ولما عاد ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، جهز جيشا وسار به إلى خيبر التي تجمع فيها اليهود ، واتخذوا منها مركزا لمناوأة المسلمين ، ومعاونة خصومهم ، معترزين بحصونها حتى استعصت في اليوم الأول على أبي بكر ، واستعصت ثانی يوم على عمر ، فلما رأى قوة حصونها ومنعتها ، استشار في المسلمين حمية الإسلام بقوله : غدا سأعطى رايتي رجلا شجاعا قويا يحبني ويحب الله ، يفتح الله على يديه الحصون المنيعه ، لم يعرف الفرار ولا اليأس ، فكان كل واحد يتمنى أن يكون هو المعنى ، فلما بزغ الفجر وجد المسلمون جميعا أن رافع العلم هو على بن أبي طالب بعد أن أبرأه الله من رمد أصاب عينيه حين نفث فيهما رسول الله ﷺ ، فنهض على بأمر القيادة ، وسار حتى قارب حصون خيبر شاهرا سيفه فأفرغ من رآه منهم ، وخرجوا إليه متكاثرين ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ليمهد السبيل إلى طعنه أو ضربه ، ولكن عليا كرم الله وجهه مال على أحد أبواب الحصن فتناوله ليتترس به وكان ثمانية من الصحابة قد حاولوا تناوله من قبل فلم يستطيعوا ، لضخامته وثقله ، ولم يزل في يده وهو يقاتل مقتحما به كل تجمعاتهم ، حتى طلع فجر النصر ، وظهرت بشائره ، وذاعت في كل مكان هناك ، فكان نصرا للحق تاه به الزمان ، واستبشر به ، وازدادت أفراح المسلمين في ذلك اليوم حين عاد جعفر بن أبي طالب من الحبشة - وكان فيمن هاجر إليها - فأصبح المسلمون في عيدين ، عيد النصر ، وعيد عودة جعفر ، رجعوا بهما قاصدين طيبة في عز ونعمة ، حيث تهبأوا لقصد بيت الله الحرام معتمرين ، وفق ما قرره صلح الحديبية .

وجاء خيبر في جأواء كالحية والخيل كالسيل ، والأسياف كالضرم^(٢)
حتى إذا امتنعت شم الحصون على من رامها ، بعد إيغال ومقتحم^(٣)
قال النبي : سأعطى رايتي رجلا يحبني ، ويحب الله ذا الكرم

(١) استب الأمر : اطرد واستقام واستقر ، الدم المدم - بفتحين - : الدم المهدر .
(٢) جنى الفرس - بوزن سمع - : ضربت حمته إلى الكدرة ، فهو أجأى ، وهي جأواء ، والكتيبة الجأواء : كدراء اللون في حمرة ، وهو لون صدأ الحديد ، الكالحة : العابسة ، الضرم - بفتحين - : هب النار .
(٣) الشم - بضم الشين جمع الأشم - : العالى ، أوغل في البلاد : ذهب وبالع وأبعد ، المقتحم : الاقتحام ، وهو الدخول عنوة .

ذا مرةً يفتح الله الحصون على
 فما بدا الفجر إلا والزعم على
 وكان ذا رمد ، فارتد ذا بصر
 فسار معزماً ، حتى أناف على
 يمضي بمنصله قدماً ، فيلحمه
 حتى إذا طاح منه الترس تاح له
 بابٌ أبت قلبه جهداً ثمانية
 فلم يزل صائلاً في الحرب مقتحماً
 حتى تبلغ فجر النصر وانتشرت
 أبشر به يوم فصح ، قد أضاء به
 أقي به جعفر الطيار فابتهجت
 فكان يوماً حوى عيدين في نسق
 وعاد بالنصر مولى الدين منصرفاً
 ثم استقام لبیت الله معتمراً

يديه ، ليس بفرار ، ولا برم^(١)
 جيش القتال على رافع العلم
 بنفثة أبرأت عينيه من وزم^(٢)
 حصون خير بالسلولة الخدم^(٣)
 مجرى الوريد ، من الأعناق واللحم^(٤)
 بابٌ ، فكان له ثرساً إلى القتم^(٥)
 من الصحابة أهل الجدد والعزم^(٦)
 غيابة النقع مثل الحيدر القرم^(٧)
 به البشائر بين السهل والعلم^(٨)
 وجه الزمان ، فأبدى بشر مبسم
 بعودة أنفص الأصحاب والعزم^(٩)
 فتحا ، وعود كريم طاهر الشيم^(١٠)
 يؤم طيبة في عز وفي نعم^(١١)
 ليل ما فاتته بالهدى للحرم^(١٢)

- (١) المرة - بكسر الميم - : القوة والأصالة والإحكام ، البرم - بفتح فـ كسر - : من سُم الشيء وضجر به .
 (٢) الرمد : داء التهاى يصيب العين . ارتد إلى حاله : عاد ، النفثة : النفخة ، أبرأ الله المريض : شفاه .
 (٣) اعزّم للأمر : أحمله وصبر عليه ، أناف عليه : أشرف ، السلولة : السيوف المنزعة من أعمادها ، السيوف الخدم - بضمّتين - : القاطعة .
 (٤) المنصل - بضم فسكون - : السيف ، القدم - بضم فسكون أو ضم - : المضى إلى الأمام ، ألحم الفارس السيف : أطعمه اللحم ، الوريد : كل عرق يحمل الدم الأزرق من الجسد إلى القلب . اللحم - جمع اللمة - : شعر الرأس المجاوز ضخمة الأذن .
 (٥) طاح الترس : سقط ، الترس - بضم فسكون - : ما يتوقى به في الحرب ، تاح له الشيء : هبأ ، العلم - بفتحين - : الدخول في الليل .
 (٦) أبت قلبه : لم تستطع قلبه ، الجهد - بفتح فسكون - : المشقة ، الجدد - بالكسر - : الاجتهاد ، العزم - بالتحريك - : العزم - بسكون الزاى وحركت للشعر - : الصبر والجهد .
 (٧) صال عليه : سطا عليه ليقهره ، اقتحم الأمر العظيم : رمى بنفسه فيه من غير روية ، الغيابة : غياب كل شيء فعره ، النقع - بفتح فسكون - : الغبار الساطع ، الحيدر - بفتح فسكون - : الأسد ، القرم - بفتح فـ كسر - : الذى اشتدت شهوته إلى اللحم .

- (٨) تبلغ فجر : أسفر فأثار .
 (٩) جعفر الطيار : جعفر بن أبي طالب ، ابتهج : امتلأ سروراً ، العزم - بضم ففتح - : جمع العزمة ، وعزمة الرجل - بضم فسكون - : أسرته وقبيلته .
 (١٠) الشيم - بكسر ففتح - : جمع الشيمة : الخلق .
 (١١) النوى : كل من ولى أمراً أو قام به .
 (١٢) استقام : اعتدل واستوى ، احترم : أدى العمرة ، وهى نسك كالخج ، ليس له وقت معين ، ولا وقوف بعرفة ، الهدى - بفتح فسكون - : ما يهدى إلى الحرم من النعم .

وبعد عودته ﷺ من عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر ، أعد جيشاً بقيادة زيد بن حارثة لتأديب الغساسنة بسبب غدرهم وقتلهم رسول الله ﷺ إلى عامل هرقل على بصرى ، فسار زيد حتى إذا كان بمؤتة - وهى موضع بالشام - لاقاهم جيش جرار من الروم والعرب الغساسنة ، فدارت رحى الحرب ، واقتتل المسلمون فيها قتال من ينصر الحق - على الرغم من الفارق الكبير بين عدد الجيشين ، فقد كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف بينما بلغ جيش الروم مائة ألف - حتى قتل القادة الثلاثة زيد ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة ، غير مبالين بالمصائب ، فليس فى القتل عار يؤاخذ به الشهم الجرىء ، لأن الموت فى سبيل المعالى خير غنيمة :

وسار زيد أميراً نحو مؤتة فى	بعث ، فلاق بها الأعداء من كنهم (١)
فجأ المسلمون الجند ، واقتلوا	قتال منتصر للحق ، منتقم (٢)
فطار زيد ، وأودى جعفر ، وقضى	تحت العجاجة ، عبد الله فى قُدم (٣)
لا عار بالموت ، فالشهم الجرىء يرى	أن الردى فى المعالى خيرُ مغتسم (٤)

تج معة وأسابيه .

ولما نقضت قريش عهدها الذى أبرمته فى صلح الحديبية ، ومالأت بنى بكر أعداء الإسلام على خزاعة حلفاء المسلمين ، قام النبى ﷺ لينتقم من المشركين ، وينصر الحق بجيش جرار يثير الغبار من كثرتة ، وعلى الرغم من ذلك فإن كثرة السيوف لم تترك الغبار يحجبها عن الناظر ، حتى بدت السيوف من خلال الغبار المثار كالشهب تلمع فى ظلام الليل ، وحتى صار اختلاط صهيل الخيل بلمع السيوف كأنه البرق والرعد فى المطر الكثير الدائم .. هذا الجيش الذى ضم الفرسان الشجعان الذين أذلوا الأعداء من القوم ، لاعتزازهم بالصبر والثبات ، حتى طاولوا النجوم ، وحققوا المعجزات ، فقد طابت نفوسهم بالموت لعلمهم أن الحياة الآخرة هى مبتغاهم ، فلم يستشعروا الخوف ، وأصبحت الجياد طوع أمرهم ، ورهن إشارتهم ، فهى - لحسن إعدادها وتدريبها - تفقه القول ، وتعى الإشارة ، فتندفع بفرسانها بين الغبار المثار اندفاع الصقر الذى اشتد نهمة إلى اللحم . أما السيوف فكانت تهتز فى أعمادها من شدة الظلم ، وأما الرماح فكانت ترعد فى أيدي هؤلاء الأشاوس . هذه السيوف والرماح يحملها فرسان يسابقون الموت نحو الخصم ، كأن الواحد منهم واحدة من أخبث الحيات بما تحمله من أسباب الموت .

-
- (١) مؤتة : موضع بالشام ، البعث : الرسول واحداً أو جماعة ، كلم الرجل - من باب تعب - : شيع ، أو عظم بطنه .
 (٢) عبأ الجند : جهزهم فى مواضعهم وميأهم للحرب .
 (٣) أودى : هلك ، قضى فلان : مات ، العجاجة : الغبار ، القدم من الرجال - بضمعين - : الشجعان .
 (٤) العار : كل ما يلزم منه سبة أو عيب ، الشهم : الصبور على القيام بما حمل ، الردى : الموت والهلاك ، المعالى - جمع المعلاة - : الرفعة والشرف .

فلم يزل ﷺ سائرا بهذا الجيش ، حتى أشرف على مكة ، فلما رأوا هذا الجيش ، وأدركوا أن لا مفر من الاستسلام أقبلوا عليه ﷺ يرجون صفحه عنهم .. فلما استسلمت قريش - بعد طول عناد - تحت تأثير الخوف من الحرب ، أقبل النصر مؤكدا أن ما لم يحققه القلم والدعوة بالتى هى أحسن ، قد تحقق بقوة السيف والخوف منه ، فلم يكن هناك مجال للعناد بعد ذلك ، وتوالى الدخول فى حوزة الإسلام ، تسابقا إلى الخير ، واغتناما له ، وحرصا على تحقيق المآرب ، واعتزازا بحمى الإسلام ، فهذا الدين هو الذى أحيا به الله القلوب ، كما أحيا النبات بالمطر .

وكان ثمرة هذا التلاق عقد صلح بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ، قررت فيه الحقوق والواجبات .. عندئذ قام النبى ﷺ بشكر الله على ما أنعم به على المسلمين ، ونهض يطوف بالبيت سبعا فوق راحلته ، وكان فى طوافه كلما أشار بعصاه إلى صنم سقط على الأرض . وفى ذلك قال البارودى :

وحين خاست قريش بالعهود ولم	تصف وسارث من الأهواء فى نقم ^(١)
وظاهرت من بنى بكر حليفها	على خزاعة أهل الصدق فى الدّم ^(٢)
قام النبى لنصر الحق ، معترضا	بجحفل لجموع الشرك مخترم ^(٣)
تبدو به البيض - والقسطل منتشر -	كالشهب فى الليل ، أو كالنار فى الفحم ^(٤)
لمع السيوف ، وتضهل الخيول به	كالبرق والرعد فى مغدودق هزم ^(٥)
عرمرم ينسف الأرض الفضاء إذا	سرى بها ، ويدك الهضب من حيم ^(٦)
فيه الكماة التى ذلت لعزتها	معاطس ^(٧) لم تُذلل - قبل - بالخطم

(١) خاس فلان المهذ وبالعهد : نقضه وخانه ، وصف القوب الجسم : أظهر حاله وبين هيئته ، ووصف المهر والناقة : أجاد السير وجد فيه ، النقم - بكسر ففتح - جمع النقرة : العقوبة .

(٢) ظاهر فلاناً : عاونه ، الدم - بكسر ففتح - جمع الذمة : العهد والأمان والكفالة .

(٣) الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل . اخترمته المنية : أخذته .

(٤) تبدو : تظهر ، البيض - جمع الأبيض - : السيوف ، القسطل والقسطل : الغبار فى الموقعة ، الشهب - جمع الشهاب - : الشعلة الساطعة من النار ، والنجم المضيء اللامع المنقض من السماء .

(٥) التصهل - بفتح فكسر - والصهيل : صوت الخيل ، اغدودق المطر : كثر قطره ، الهزم - بفتح فكسر - : الغيث لا ينقطع .

(٦) العرمرم : الجيش الكثير ، نسف الحافر الأرض : سحقها ورمى بترابها ، الهضب - بفتح فسكون - : جمع الهضبة : الجبل المنبسط الممعد على وجه الأرض ، الحيم - بكسر فسكون - : فرند السيف وهو ما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء ، والحيم : الأصل .

(٧) المعاطس - جمع المعطس بفتح فسكون - : الأنف ، الخطم - بضم الحاء والطاء - : جمع الخطام - بالكسر - : الزمام .

- من كل معتمزم بالصبر ، معتمزم
طالت بهم هم نالوا السمك بها
بيض أساوره ، غلب قساورة
طابت نفوسهم بالموت إذ علموا
ساسوا الجياد ، فظلت في أعنتها
تكاد تفقه لحن القول من أدب
كأن أذنانها في الكرّ ألوية
من كل منجرد ، يهوى بصاحبه
والبيض ترجف في الأغمد من ظمأ
من كل مطرد ، لولا علاقته
كأنه أرقم في رأسه حمة
فلم يزل سائرا حتى أناف على
- للقرن ، ملتزم في البأس ، مهتمزم^(١)
عن قدرة ، وغلو النفس بالهمم^(٢)
شكس لدى الحرب ، مطعمون في الأزم^(٣)
أن الحياة التي ييغون في القدم
طوغ البنانة في كر ومقتحم^(٤)
وتسبق الوحي ، والإيماء من فهم^(٥)
على سفين لأمر الريح مرسيم^(٦)
بين العجاج هوى الأجدل اللحم^(٧)
والسمر ترعد في الأيمان من قرم^(٨)
لسابق الموت نحو القرن من ضرم^(٩)
يستل كيد الأعادي بانه الرقم^(١٠)
أرباض مكة بالفرسان ، والبهم^(١١)

- (١) اعتمزم للأمر : أحمله وصبر عليه ، احتزم الرجل : شد وسطه بالحزام ، القرن من القرم - بكسر فسكون :- السيد ، التزم الشيء أو الأمر : أوجبه على نفسه ، البأس : الحرب ، اهتمزم الأمر : اعتزمه وأسرع إليه .
- (٢) الهمم - جمع الهممة :- العزم القوي ، السماكان - بكسر السين :- نجمان نيران ، أحدهما في الشمال - وهو السماك الراح - والآخر في الجنوب ، وهو السماك الأعزل .
- (٣) فلان أبيض : نقي العرض ، الأساوره - جمع الأسورة وهي جمع الإسوار بكسر فسكون :- الجيد الرمي بالسهم وغيرها ، ويطلق على القائد الفارسي ، الغلب - بضم فسكون - جمع الأغلب : من غلظ عنقه ، القساورة - جمع القسورة :- الأسد ، الشكس - بضم فسكون ، جمع شكس بفتح فكسر :- الصعب الخلق ، المطعم : الكثير الإطعام ، الأزم - بضممتين - جمع الأزوم : العام اشتد قحطه .
- (٤) الأعنة - جمع العنان - بكسر العين : سير للجام الذي تمسك به الدابة ، البنانة ، واحدة البنان : أطراف الأصابع ، اقتحم فلان العقبة : رمى بنفسه على شدة يريد اجتيازها وتحطيا .
- (٥) اللحن : اللغة .
- (٦) الأذنان - جمع الذنب :- ذيل الحيوان ، الكر - بفتح الكاف :- الحمل في الحرب ، الألوية - جمع اللواء :- العلم ، ارتسم الأمر : لم يعد عنه .
- (٧) الفرس المنجرد : المسرع في سيره ، الأجدل : الصقر ، اللحم - بفتح فكسر :- المشتى اللحم .
- (٨) ترجف : تضطرب اضطرابا شديدا ، السمر - بضم فسكون - جمع الأسمر : الرماح ، القرم - بفتحتين :- المشتى اللحم .
- (٩) المطرد : المتتابع ، العلائق - جمع العلاقة ، بفتح العين :- ما تتبلغ به البهائم من الشجر ، الضرم - بفتحتين :- هب النار .
- (١٠) الأرقم : ذكر الحيات أو أحيثها ، الحمة - بضم ففتح :- سم كل شيء يلدغ ، استل الشيء : انتزعه برفق ، الرقم - بالتحريك :- الداهية .
- (١١) أناف : أشرف ، أرباض - جمع ربض بالتحريك :- ما حول المدينة ، البهم - بضم ففتح - جمع البهية : الشجاع يستبهم على قرنه وجد غلبته .

وَلَقَّهْم بِحُمَيْسٍ لَوْ يَشِيدُ عَلَى
فَأَقْبَلُوا يَسْأَلُونَ الصَّفْحَ حِينَ رَأَوْا
رِيعُوا فَذَلُّوا ، وَلَوْ طَاشُوا لَوْقَرَّهُمْ
ذَاقُوا الرَّدَى جُرْعًا ، فَاسْتَسْلَمُوا جَزَعًا
وَأَقْبَلَ النَّصْرَ يَتْلُو وَهُوَ مَبْتَسِمٌ
يَا حَائِرَ اللَّبِّ هَذَا الْحَقُّ فَاْمُضْ لَهُ
لَا يَصِرُ عُنْكَ وَهْمٌ بِتِّ تَرْقُبِهِ
هَذَا النَّبَى ، وَذَاكَ الْجَيْشُ مَنْتَشِرٌ
فَالزَّمْ حَاهِ تَجِدْ مَا شِئْتَ مِنْ أَرْبٍ
وَاحْلُلْ رِحَالَكَ ، وَانْزِلْ نَحْوَ سُدَّتِهِ
أَحْيَا بِهِ اللَّهُ أَمْوَاتَ الْقُلُوبِ كَمَا
حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُ الصَّلْحِ ، وَانْتَضَمَتْ
قَامَ النَّبَى بِشُكْرِ اللَّهِ مُنْتَصِبًا
وَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا فَوْقَ رَاحِلَةٍ
فَمَا أَشَارَ إِلَى بُدِّ مَحْجَنِّهِ

أَرْكَانَ رَضْوَى لِأَضْحَى مَائِلَ الدَّعْمِ^(١)
أَنْ لِلْجَاجَةِ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ^(٢)
ضَرَبَتْ يُفَرِّقُ مِنْهُمْ مَجْمَعَ اللَّئِمِ^(٣)
لِلصَّلْحِ ، وَالْحَرْبُ مِرْقَاةٌ إِلَى السَّلَمِ^(٤)
(الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ)
تَسْلَمُ ، وَهَذَا سَبِيلُ الرُّشْدِ فَاسْتَقِمِ^(٥)
إِنْ التَّوْهَمَ حَتْفُ الْعَاجِزِ الْوَعْمِ^(٦)
مَلَأَ الْقَضَا ، فَاسْتَبَقَ لِلْخَيْرِ تَغْتَنِمِ
وَشِمَّ نَدَاهُ إِذَا مَا الْبَرْقُ لَمْ يُشْمِ^(٧)
فَإِنَّمَا عَصْمَةٌ مِنْ أَوْثَقِ الْعِصَمِ^(٨)
أَحْيَا النَّبَاتَ بِفَيْضِ الْوَابِلِ الرُّذَمِ^(٩)
بِهِ عَقُودُ الْأَمَانِ أَيْ مُنْتَظَمِ
وَالشُّكْرُ فِي كُلِّ حَالٍ كَافِلُ النَّعْمِ^(١٠)
قُدَّاءُ نَاجِيَةٍ أَمْضَى مِنَ النَّسَمِ^(١١)
إِلَّا هَوَى لِيَدٍ مَغْلُولَةٍ وَفَمِ^(١٢)

(١) لَفَّ الكَيْبَةُ بِالْكَيْبَةِ : خَلَطَ بَيْنَهُمَا بِالْحَرْبِ ، الْحُمَيْسُ : الْجَيْشُ الْجَرَارُ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ خَمْسُ فُرُقٍ : الْمَقْدَمَةُ ، وَالْقَلْبُ ، وَالْمِيْمَةُ ، وَالْمَيْسَرَةُ ، وَالسَّاقُ . يَشْدُ عَلَيْهِ فِي الْحَرْبِ - بِكَسْرِ الشَّيْنِ - : يَحْمِلُ عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَرَضْوَى - بِفَتْحٍ فَسُكُونٌ - : جَبَلٌ بِالْمَدِينَةِ .

(٢) الصَّفْحُ : الْعَفْوُ ، الْجَاجَةُ : التَّهَادِي فِي الْخُصُومَةِ .

(٣) رِيعُوا : أَفْرَعُوا ، طَاشَ فُلَانٌ : تَرَكَ وَذَلَّ ، وَقَرَّهُمْ - بِالضَّمِّ - : جَرَحَهُمْ ، اللَّئِمُ - بِكَسْرِ فَتْحٍ - : جَمْعُ اللَّيْمَةِ : شَعْرُ الرَّأْسِ الْمُجَاوِرِ شَحْمَةِ الْأُذُنِ .

(٤) الرَّدَى : الْهَلَكَ ، الْجُرْعُ - بِضَمٍّ - : بَفَتْحٍ - الْحَسُوءُ مِنَ الْمَاءِ مَلَأَ الْقَمَّ ، الْجَزْعُ - بِالضَّمِّ - : عَدَمُ الْعَصْرِ عَلَى مَا نَزَلَ ، الْمِرْقَاةُ - بِكَسْرِ الْمِيمِ - : وَسِيلَةُ الرِّقِّ وَالصُّعُودِ .

(٥) اللَّبُّ : الْعَقْلُ ، الرُّشْدُ : الْإِهْتِدَاءُ .

(٦) صَرَعَهُ : طَرَحَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، الْحَتْفُ : الْهَلَكَ ، الْوَعْمُ - بِفَتْحٍ فَكَسْرٍ - : الرَّجُلُ الْفَقِيرُ .

(٧) الْحَمَى : الْمَكَانُ أَوْ الشَّيْءُ الْأَخْمَى . الْأَرْبُ : الْحَاجَةُ ، شَامَ الشَّيْءُ : تَطَلَّعَ إِلَيْهِ مَتَرَقِبًا ، الْبَدَى : الْجُودُ وَالسَّخَاءُ .

(٨) حُلَّ الْعَقْدَةِ : نَقَضَهَا ، الرَّحَالُ - جَمْعُ الرَّحْلِ - : كُلُّ شَيْءٍ يَعْدُ لِلرَّحْلِ ، مِنْ وَعَاءٍ وَمَتَاعٍ وَغَيْرِهِ ، السَّدَةُ - بِضَمٍّ - : السَّيْنُ . وَفَتْحَ الدَّالِ الْمَضْعُفَةِ - : السَّاحَةُ بَيْنَ يَدَيِ الْبَابِ ، وَثَقَ بِفُلَانٍ : ائْتَمَنَهُ .

(٩) الْفَيْضُ : الْكَثِيرُ الْغَزِيرُ ، الْوَابِلُ : الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الضَّخْمُ الْقَطَرُ ، الرُّزْمُ - بِفَتْحٍ فَكَسْرٍ - : الْغَيْثُ الَّذِي لَا يَنْقُطُ رَعْدُهُ .

(١٠) ائْتَصَبَ : قَامَ وَهَبًا ، الْكَافِلُ : الضَّامِنُ .

(١١) الْقُدَّاءُ - بِفَتْحٍ فَسُكُونٌ - : الدَّلُولُ الْمُنْقَادَةُ ، النَّاجِيَةُ : النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ ، مَضَى السَّيْفُ مَضَاءً : صَارَ حَادًّا سَرِيعَ الْقَطْعِ ، النَّسَمُ - بِفَتْحَيْنِ - : طَيْرٌ سَرَّاعٌ كَالْحَطَّاطِيْفِ تَعْلُوهُنَّ خُضْرَةٌ .

(١٢) الْبِدَ - بِضَمٍّ - : الْبَاءُ - : الضَّمَمُ ، الْغَجِينُ : كُلُّ مَعُوجِ الرَّأْسِ كَالصُّوْلَجَانِ ، هَوَى : سَقَطَ ، الْيَدُ الْمَغْلُولَةُ : الَّتِي وَضَعَ بِهَا الْفُلَّ - بِضَمٍّ - : وَهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ .

ثم تعرض البارودي لغزوة حنين ، فذكر أن هوازن ارتدت عن الاستقامة ، فتوجه إليها المصطفى ﷺ بجيش ضخم كأنه بحر يموج بالفرسان ويتلاطم بالسيوف ، حتى أعادها إلى حظيرة السلم مرغمة . وذلك قوله :

وفي حنين إذ ارتدَّت هوازنُ عن قصد السبيل ، ولم ترجع إلى الحكم^(١)
سرى إليها ببحر من ململمة كأمى السراة بموج البيض ملتطم^(٢)
حتى استدلت ، وعادت بعد نخوتها تلقى إلى كل من تلقاه بالسلم^(٣)

وانتقل من ذلك إلى الحديث الموجز عن الذهاب إلى الطائف ، ثم تحدث بشيء من التفصيل عن توجهه إلى تبوك ، حيث استقبله ساكنوها بالإذعان والطاعة ، وصالحوه ﷺ على أداء الجزية ، راضين بحكمه .. وحيث وجد هناك عين ماء جفت ، فلما دعا لها تفجر الماء منها سائغا ، ولما طلب من السحابة أن تجود عليهم بمائها انهل بالساجم الوبل . ثم عاد ﷺ بمن معه إلى المدينة ، راضين بما تحقق على أيديهم ، فقال :

ويعم الطائف الغناء ، ثم مضى
وحين أوفى على وادى تبوك سعى
فصالحوه ، وأدوا جزية ، ورضوا
ألقى بها عين ماء لا تبض ، فمذ
وراود الغيث ، فانهلت بوادره
وأم طيبة ، مسرورا بعودته

عنها إلى أجل في الغيب مكرم^(٤)
إليه ساكنها طوعا ، بلا رغم^(٥)
بحكمه ، وتبيع الرشيد لم يهم^(٦)
دعا لها انفجرت عن سائغ سيم^(٧)
بعد الجمود بمنهل ، ومنسجم^(٨)
يطوى المنازل بالوخادة الرُّسُم^(٩)

(١) يقال : هو على قصد السبيل : إذا كان راخداً .

(٢) الكنية الململة : الجمجمة ، المضموم بعضها إلى بعض ، الكامي مفرد الكماة : المتقدم ، أو الذى ستر نفسه بالدرع والبيضة . السراة : سراة كل شيء : أعلاه ، وسراة الفرس : أعلا متنه ، البيض : السيوف ، ملتطم : يضرب بعضها بعضاً .

(٣) استدلت - بفتح الدال - : صارت ذليلة ، النخوة - بفتح النون - : الحماسة والمروءة ، ألقى إليه بالسلم : أبلغه إياه .

(٤) الروضة الغناء : كثيرة الشجر ملتفة .

(٥) الرغم - بالتحريك - : الدل .

(٦) أدى الشيء إلى مستحقه : أوصله إليه ، الجزية : ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتطلق على خارج الأرض . التبيع : التابع ، هام فلان : مخرج على وجهه في الأرض لا يدرى أين يتوجه .

(٧) ألقى : وجد ، بعت العين تبض - بكسر الباء في المضارع - : رشحت بالماء ، ساغ الشراب في الخلق : سهل انحدره ومدخله فيه ، السيم - بفتح فسكون - : المرتفع على وجه الأرض .

(٨) راوده على الأكر : طلب منه فعله ، الغيث : المطر الخاص بالخير الكثير المنافع ، ويطلق مجازاً على السماء والسحاب ، انهلت بواود الغيث : اشتد انصبابها ، البواود - جمع البادرة مؤنث البادر - : أول ما ينزل من المطر ، المنهل - بتضعيف اللام - : المطر شديد الانصباب ، المنصب : المنصب .

(٩) طوى الأرض : قطعها وجازها ، الوخاد - بتضعيف الخاء - : البعير السريع ، الرسم - بضمين - : جمع الرسوم : القوى على السير ، الشديد الوطاء .

استقبال الوفود ، والتهيؤ لبناء الدولة ،

وحين عاد ﷺ إلى المدينة ، أخذت وفود القبائل المختلفة تتوالى للقياء ، ومعاهدته ، فاستقبلهم بما عهد من كرم ، حتى كان العام جميعه عاما لاستقبال الوفود ، وفي الوقت ذاته ، أكمل دوره في الدعوة ، بإرسال الرسل إلى الملوك حاملين رسائله ، التي يبلغهم فيها بما بعث به ، وفي ذلك قال البارودي :

ثم استهلت وفود الناس قاطبةً إلى حماه ، فلاقته وافر الكرم (١)
فكان عام وفود ، كلما انصرفت عصابة ، أقبلت أخرى على قدم (٢)
وأرسل الرسل ترى للملوك بما فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم (٣)

ثم تناول بالعرض بعض الغزوات الصغيرة حين اعترضت بعض القبائل مسار الدعوة على الرغم من تلك الاستجابة التي تقارب الإجماع ، فكانت نشازا في وسط التحول العام إلى السلام ، والتفرغ إلى بناء الدولة سياسيا واقتصاديا وفكريا ، فبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي إلى الكديد ليغير على بني الملوخ ، فحقق النصر ، واستولى على ما لهم من نعم ، ولما خانت قبيلة جذام عهدها ، حيث اعترضت دحية الكلبي في طريق عودته من الروم ، أرسل إليهم زيد بن حارثة على رأس جيش ليؤدبهم وينتقم منهم ، ويكسر شوكتهم ، حتى لا يعودوا لمثلها ، فسار زيد منتحيا وادى القرى ، والتقى ببني فزارة أصل الفتنة في وادى القرى ، فاستأصل شأفتهم ، وحين نهض اليُسَيْر بن رزام يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ ، عاجله بإرسال عبد الله بن رواحة على رأس قوة من الجيش ، فقتله وقضى على الفتنة ، ولما نهض خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع الناس - في نخلة ، أو عرنة - ليغزو رسول الله ﷺ ، بعث إليه عبد الله بن أنيس ، فذهب إليه ، وأنفذ ما أمر به ، ثم بعث عيينة بن حصن ليغير على بني العنبر من بني تميم ، وكذلك أرسل عمرو بن العاص إلى أرض جذام ، حيث كانت غزوة ذات السلاسل ، وأرسل عبد الله بن أبي حدرد في مهمتين ، الأولى ليقول رفاعة بن قيس ، والثانية إلى إضم ، وبعث عبد الرحمن بن عوف في جمع من الكمأة إلى دومة الجندل - بين المدينة ودمشق على سبع مراحل من دمشق - ليقضى على سطوة أهل الزور والتهم هناك ، ووجه أبا عبيدة بن الجراح في سرية إلى سيف البحر ، وكذلك بعث عمرو بن أمية الضمري إلى أم القرى لمواجهة أبي سفيان بن حرب ، وأمر زيد بن حارثة بالذهاب في سرية تأديبية إلى مدين ، فغنم أموالهم ، وساقهم سبيا بين يديه ، واستجابة له ﷺ ، خرج سالم بن عمير ليقول أبا علفك المنافق ، الذي أظهر نفاقه وبغضه محمدا ﷺ عقب مقتل الحارث بن سويد بن صامت ، فأرداه سالم قتيلا . ولما جاهرت

(١) جاء القوم قاطبة : جميعاً ، بعضهم مختلط ببعض .

(٢) على قدم : على تقدم وسبق إلى الخبر .

(٣) جاءوا ترى : متواترين متابعين ، والفهم - بالتحريك - : الفهم بسكون الهاء .

عصماء بنت مروان بعداوتها للإسلام ، انقض عليها ليلا عمير بن عدى فقتلها ، ولما وقع ثامة بن أثال الحنفي في أسر إحدى السرايا ، دون أن تعرف شخصيته ، وعادت به إلى رسول الله ﷺ ، تعرف عليه حين رآه ، فأمر بأن يحسنوا إيساره ، ثم أطلق سراحه ، فلم يكن من ثامة إلا أن أعلن إسلامه ، وكان أول من دخل مكة في الأشهر الحرم ملبيا . ولما طلب علقمة بن مُجَزَّز أن يأذن له في الثأر لوقاص بن مجَزَّز المدلجي الذي قتل يوم ذي قرد ، فلما أذن له ، سار إلى القوم فلم يعترضه أحد ، وأرسل كُرْز بن جابر ، ليقتل من غدروا بيسار راعي رسول الله ﷺ من البجليين ، فما زال بهم حتى لقوا شدائد الهلاك ، وكان آخر بعوثة ﷺ بعث أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام ، فلما أنفذه أبو بكر رضي الله عنه ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ، انقض عليهم كالبازي ، فكانت تلك البعوث والسرايا خير م مهد للطريق أمام المسلمين من بعده ﷺ ، كأنها الدر المشرق بين حبات العقد .. وفي ذلك قال البارودي :

وَأَمْ غَالِبُ أَكْصَافِ الْكَدِيدِ إِلَى	بنى الملوِّح ، فاستولى على النَّعَمِ (١)
وَحِينَ خَانَتْ جُذَامٌ ، فَلَّ شَوْكُهَا	زيد بجمع لرَهْطِ الشَّرْكِ مَقْتَبِمِ (٢)
وَسَارَ مَنَاحِيَا وَادِي الْقُرَى ، فَمَحَا	بنى فزارة ، أَصَلَ اللُّؤْمَ وَالْقَزْمَ (٣)
وَأَمْ خَيْرَ عَبْدَ اللَّهِ فِي نَفْسِ	إلى اليُسَيْرِ ، فَأَرْدَاهُ بِلَا أَثَمِ (٤)
وَيْمِ ابْنِ أَنْيَسٍ غَرَضَ نَخْلَةٍ إِذْ	طغا ابن ثور ، فَأَصْمَاهُ ، وَلَمْ يَخْمِ (٥)
ثُمَّ اسْتَقْلَ ابْنُ حَصْنٍ ، فَاحْتَوَتْ يَدَهُ	على بنى العنبر الطُّرَّارَ وَالشُّجْمَ (٦)
وَسَارَ عَمَرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي	جمع لِهَامِ لُجَيْشِ الشَّرْكِ مِصْطَلَمِ (٧)
وِغُرُوتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ ، وَاحِدَةً	إلى رفاعة ، وَالْأُخْرَى إِلَى إِضْمِ (٨)
وَسَارَ جَمْعُ ابْنِ عَوْفٍ نَحْوَ دُومَةِ ، كَى	يَقُلُّ سَوْرَةَ أَهْلِ الزُّورِ ، وَالتَّهْمِ (٩)

(١) الكديد - بفتح الكاف - : ماء بين الحرمين .

(٢) جذام - بضم الجيم - : قبيلة بجبال حمى - بكسر الحاء - من معد ، فل فلان السيف : ثلمه وكسره في حدة ، الشوكة : السلاح ، والقوة والبأس ، الرهط : رهط الرجل : قومه وقبيلته الأقربون . اقضم الشيء : اجتمه ولم يبق له أصلا .

(٣) بنو فزارة : قبيلة من غطفان ، القزم - بالتحريك - : الدناءة واللؤم .

(٤) اليسير - بضم ففتح - : ابن رزام ، الأثم - بالتحريك - : الإبطاء .

(٥) عرض الجبل - بضم العين - : سفحه ، وعرض البحر : وسطه ، نخلة : واديان على ليلة من مكة ، أصماه : أصابه فوقع بين يديه ، خام : أقام بالمكان .

(٦) استقل القوم : مضوا وارتحلوا ، الطرار - بفتح الطاء وتضعيف الراء - : النشال ، الشجم - بالضم - الطوال الخيشاء الدواهي .

(٧) جمع هام - بضم اللام - : جمع عظيم ، اصطلم : استأصل وأباد .

(٨) إضم - بكسر ففتح - : اسم جبل ، والوادي الذي فيه المدينة المنورة .

(٩) السورة - بفتح فسكون - : السطوة والشدة ، الزور - بالضم - : الباطل .

وَأَمَّ بِالْخَيْلِ سَيْفَ الْبَحْرِ ، معتمدا
وسار عمرو إلى أم القرى ، لأبي
وَأَمَّ مَدِينِ زَيْد ، فاستوت يده
وقام سالم بالعصب الجُراز إلى
وانتضى ليلا عمير بالحسام على
وسار بعث ، فلم يخطيء ثمانية إذ
ذاك الهمام الذي بُي بمكة إذ
وبعث علقمة استقرى العدو ضحى
ورد كرر إلى العذراء من غدروا
وسار بعث ابن زيد للشام ، فلم
فهذه الغزوات الفُر شاملة

أَبُو عَيْيْدَةَ فِي صَيَّابَةِ حُشْمٍ (١)
سَفِيَان ، لَكِنْ عَدُوَّهُ مَهْلَةُ الْقَسَمِ (٢)
عَلَى الْعَدُو ، وَسَاقِ السَّبْيِ كَالْغَنَمِ (٣)
أَبَى عُفَيْيْكَ ، فَأَرْدَاهُ ، وَلَمْ يَجْمِ (٤)
عَصْمَاء ، حَتَّى سَقَاهَا عُلْقَمَ الْعَدَمِ (٥)
رَأَاهُ ، فَاحْتَازَهُ غَنَمًا ، وَلَمْ يَلْمِ (٦)
أَقَى بِهَا مَعْلَنًا فِي الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ (٧)
فَلَمْ يَجِدْ فِي خِلَالِ الْحَقِّ مِنْ أَرَمِ (٨)
يَسَارَ ، حَتَّى لَقُوا بَرْحًا مِنَ الشَّجَمِ (٩)
يَلِيْتُ أَنْ انْقَضَ كَالْبَزَى عَلَى الْيَمِّ (١٠)
جَمَعَ الْبُعُوثُ ، كَدْرًا لَاحَ فِي نَظْمِ (١١)

بعد صلى الله عليه وسلم في وجدان البارودي

وبعد هذه الرحلة التاريخية الميمونة ، التي حملنا فيها البارودي على أجنحة الشعر لنصبحنا
سيدنا رسول الله ﷺ ، منذ كان بشاره ، تمهد بها المقادير لمولده وبعثه ، ومرورا بما كان من
أحداث خطيرة قبل البعثة وبعدها ، مما سجله أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتابه (سيرة النبي
محمد ﷺ) ... بعد هذه الرحلة التاريخية التي استغرقت من القصيدة خمسين وثلاثمائة بيت ..
عاد البارودي إلى وجدانه ، ليصور ما استكن فيه ، من مشاعر ، ورؤى ، وتوجهات نحو سيدنا

- (١) سيف البحر - بكسر فسكون - : جانبه وساحله ، الصيابة والصوابه - بالضم والتضعيف فيهما - : خيار القوم ، الحشم - بضمين - : ذو الحياء التام .
- (٢) عدا فلانا عن الأمر : صرفه عنه .
- (٣) استوى على الشيء : ملك ، وليت ، وعلا . السبي : المأسور .
- (٤) سالم : ابن عمير - العصب - بفتح فسكون - : السيف الحاد ، الجراز من السيوف - بضم ففتح - : القاطع ، أرداه : أهلكه ، وجم - بالتحريك - : عيس حزناً .
- (٥) انتضى السيف : أخرجه من غمده ، الحسام : السيف القاطع ، العصماء : الخيوان في ذراعيه أو أحدهما بياض ، وساتره أسود أو أحر ، العلقم : كل شيء مر .
- (٦) احتازه : ملكه .
- (٧) الهمام - بالضم - : السيد الشجاع ، لبي : قال : ليك اللهم ليك .
- (٨) استقرى بنى فلان : مر بهم واحدا واحدا ، واستقرى الأشياء : تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها ، الحلال : منفرج ما بين الشيتين ، الأرم - بفتح فسكون - : حجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدى بها .
- (٩) كرز - بضم فسكون - ابن جابر ، العذراء - بفتح فسكون - : المدينة المنورة ، يسار : غلام للنبي ﷺ قله العربيون ، البرح - بفتح فسكون - : الشدة أو العذاب الشديد ، أو الدواهي والهلاك ، الشجم - بالتحريك - : الهلاك .
- (١٠) انقض الطائر : هوى في طيرانه بسرعة يريد الوقوع على شيء ، اليم - بالتحريك - : اليمام : الحمام الوحشي .
- (١١) الفر : بضم الغين - جمع أفر ، غراء : الواضحة ، الدر - بالضم - : اللؤلؤ العظيم الكبير ، النظم - بضمين - : جمع النظم : المنظوم . وما تناسقت أجزاءه على نسق واحد .

محمد ﷺ ، مكملًا بذلك ما بدأ به قصيدته من تمهيد نفسى لمصاحبة رسول الله ﷺ في تلك الرحلة .

والبارودى - بتوجهه الوجدانى بعد تلك الرحلة التاريخية - يغمر المتلقى بموجات متوالية من الدفقات الشعورية التى سيطرت على لسان الشاعر ، بعد أن سيطرت على وجدانه ، فلم يستطع أن يتدخل بالتنظيم والترتيب ، فجاءت - وفق الأحوال النفسية - دقات تترى في غير نظام عضوى ، ولا ترتيب منطقي ؛ وذلك لأن الشاعر قد أسلس قيادته لما فاض على نفسه من مصاحبته ﷺ .

الاعتزاز بقربه منه

وفي بداية تلك الدفقات الوجدانية ، اتجه البارودى إليه ﷺ راجيا متقربا ، بعد أن تخلص من جولته التاريخية بذكره أن الدافع إلى تلك الجولة هو رجاؤه نيل شفاعته ﷺ ، ثم خلس إلى الحديث عنه ، وعما يرجوه البارودى من وراء ذلك الحديث ؛ فهو لا يتحدث عن شخص عادى ، وإنما هو يتحدث عن خير الخلق وسيدهم جميعا ، فهو النبي الذى به قبل الله تعالى توبة آدم عليه السلام حين زل وعصى ربه ، وهو الذى أفخر بأنه التقى بى في عالم الأحلام فملت العز والشرف ، خصوصا عندما منحني عصاه التى أعتصم بها في كل ما يصادفنى في حياتى من أهوال ، حتى كانت لى أمنا وأمانا ، حفظنى من الفزع ، كما كانت وشيجة قرى واتصال بمن أكرموا منه ﷺ من السابقين الذين حباهم ﷺ بتلك العصا ، مثلما حبانى ، فلم أخش من بعدها ما كنت أحذره ، لما لها من أثر فعال في الإنجاء من الغم ، فيكفى أن هذه النفحة - بقيمتها - قد سميت بنفسى ، على الرغم مما يشوب نفسى من النقص ؛ فما أستطيع أن أبرئ نفسى من الزلل ، فالنفس أماراة بالسوء إذا لم يردعها الندم ، وخشية الفضيحة يوم الميعاد ، حين ينطق من كل إنسان ما لم يكن ناطقا ؛ فيشهد على النفس بما صدر منها .

إن ثقتى من رحمة ربي وعفوه عن كل جرم ، تملؤنى بالرجاء ، وتجعلنى أطمئن إلى أننى سوف أبلغ آمالى في العفو يوم ألقى الله ، وإن عظمت جرائمى ؛ فهو الذى بغفرانه وعفوه يزيح عن المكروب آلام اليأس والخوف ؛ لهذا فإنى مطمئن إلى أن رسول الله ﷺ لن يخذلنى ، وأنا شاعره وخادمه - يوم الحشر ؛ وأنه سوف يشملنى بكرمه ؛ فقد جعلت مدحه رأس مالى يوم الاحتياج إلى شفاعته ، وجعلت حبه عزا تعتصم به نفسى عندما تحرم أو تظلم ، بل إننى وهبت نفسى له حبا وتكرمة ، رجاء أن أبلغ ما أؤمل وأرجو ؛ فأنا ثابت على عهدى وآمالى - على الرغم مما قد يصيبنى من ظلم أو ضيم - لا يخالجنى يأس أو قنوط ؛ وأنا في سبيل هذا أبذل كل ما أستطيع لأؤكد ولأبلى لرسول الله ﷺ ، حيث لا أملك في هذا السبيل سوى يدى وفمى ، أما يدى فأوظفها في تدوين مدحى رسول الله ﷺ ، وأما فمى فأسخره لإذاعة تلك المدائح تشريفا لى وتكريما ، وفي التعبير عن هذا قال :

نظمته ، راجيا نيل الشفاعة من
هو النبي الذي لولاه ما قبِلت
حسبى بطلعته الفراء مفخرة
وقد حبانى عصاه ، فاعتصمت بها
فهى التى كان يحبو مثلها كرما
لم أخش من بعدها ما كنت أحذره
كفى بها نفحة تعلو بقيمتها
وما أبرئ نفسى ، وهى آمرة
فيا ندامة نفسى فى الميعاد إذا
لكننى واثق بالعفو من ملك
وسوف أبلغ آمالى وإن عظمت
هو الذى يُنْعِش المكروب إذ علقت
هيات يخلد مولاه وشاعره
فمدحه رأس مالى يوم مفتقرى ،
وهبت نفسى له حبا وتكرمة ،

خير الرايا ، ومولى العرب والعجم
رجاة آدم ، لما زل فى القدم (١)
لما التقيت به فى عالم الخُلُم (٢)
فى كل هول ؛ فلم أفزع ، ولم أهتم (٣)
لمن يسود ، وحسبى نسبة بهم
وكيف ، وهى التى تنجى من الغم ١٩
نفسى ، وإن كنت مسلوبا من القيم (٤)
بالسوء ، ما لم تعقها خيفة الندم
تعوذ المرء خوف النطق بالكم (٥)
يعفو برحمته عن كل مجرم (٦)
جرائمى يوم ألقى صاحب العلم (٧)
به الرزايا ، ويغنى كل ذى عدم (٨)
فى الحشر ، وهو كرم النفس والشيم (٩)
وجه عز نفسى عند مهتضمى (١٠)
فهل ترانى بلغت السؤل من سلمى (١١)

- (١) الرجاء : الرجاء والأمل ، زل فى القدم : إشارة إلى معصية آدم عليه السلام بإغواء إبليس إياه .
(٢) حسب - بفتح فسكون - : اسم بمعنى كاف ، أو اسم فعل بمعنى يكفى ، الحلم - بضمين ، وبضمة فسكون - : الرؤيا .
(٣) حياه الشيء : أعطاه إياه ، اعتصم به : امتنع به ولجأ ، الهول : الأمر الشديد ، فزع - بفتح فكسر - : خاف ، هام بهم : غرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتجه .
(٤) النفحة : الطيب الذى تروح له النفس ، القيم - بكسر ففتح - : جمع القيمة : القدر .
(٥) الميعاد : وقت الوعد ، ويقصد به هنا القيامة والبعث للحساب ، تعوذ به : لجأ إليه واعتصم ، البكم - بالتحريك - : العجز عن الكلام خلقة .
(٦) وثق به - بفتح فكسر - : التمنه ، عفا عنه : لم يعاقبه على ذنبه ، المجرم - بفتح الراء - : الذنب المرتكب .
(٧) صاحب العلم : يقصد رسول الله ﷺ .
(٨) أنعشه ونعشه - بالتحريك - من كبوته : أنهضه من كبوته ، ونشط جسمه بعد فوره . المكروب : الذى اشتد عليه الغم ، وثقل عليه العبء . علقت به الرزايا - بفتح فكسر - : نشبت فيه واستمسكت به . الرزايا - جمع الرزء بضم الراء - : المصائب ، العدم - بالتحريك - : الفقر .
(٩) هيات : اسم فعل ماضٍ بمعنى : بعد ، خذل فلاناً : تخلى عن عونه ونصرته ، المولى : الرب ، ولى الأمر ، واهب ، والصاحب ، والخليف ، والمعق - بالكسر فى التاء وبالفتح - والعبد ، والتابع ، والمقصود هنا اهتب ، الحشر : اجتماع الخلق يوم القيامة ، الشيم - بكسر ففتح - : جمع الشيمة : الخلق .
(١٠) المفتقر - بفتح القاف - : الاحتياج ، المهتضم - بفتح الضاد - : المبالغة فى الظلم والغصب .
(١١) التكرمة - بكسر الراء - : التعظيم ، السؤل - بضم فسكون - : ما سأله الشخص ، السلم - بالتحريك - : التسليم .

- إلى - وإن مال بي دهرى ، وبرح بي
لثابت العهد ، لم يحل قوى أملى
لم يترك الدهر لى ما أستعين به
هذا يُجبر مدحى فى الرسول ، وذا
- ضيم ، أشاط على جمر النوى أدمى - (١)
يأس ، ولم تحط لى فى سلوة قدمى (٢)
على التجميل إلا ساعدى وفمى (٣)
يتلو على الناس ما أوحىه من كلمى (٤)

بين الرجاء والاستعطاف والشكوى :

وفى الدفقة الوجدانية التالية نجد البارودى نفسه متجها إلى رسول الله ﷺ بالبنداء المستعطف الراجى ، أملا فى أن يعوضه الاتجاه إليه بالحديث بعض الشيء عن الالتقاء به أو زيارته ، مستشفعا بحبه رسول الله ، مؤملا أن ينشئ هذا الحب صلة تقوم مقام صلة الرحم ، طمعا فى أن يحقق بذلك ما تحقق لسلمان الفارسي ، مطمئنا إلى أن حسن ظنه برسول الله ﷺ كفيل بأن يحميه من أهوال ما يخشاه فى ظلمة القبر ، معذرا لسيدنا رسول الله ﷺ عن عدم زيارته فى روضته المشرفة بوقوعه أسير قيود حيوية تغل حركته ، متمنيا أن يحقق الله أمله ، ويوفقه إلى زيارة تحيى قلبه ، وتتيح له راحة النفس ، قبل أن يحين حينه ، وذلك قوله :

- يا سيد الكون ، عفوا إن أثمت فى
كفى بسلما ن لى فخرا إذا انتسبت
وحسن ظنى بكم إن مت يكلؤنى
تالله ما عاقبى عن حبكم شجن
فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بها
- بحبكم صلة تغنى عن الرحم (٥)
نفسى لكم مثله فى زمرة الحشم (٦)
من هول ما أتقى فى ظلمة الرجم (٧)
لكننى موثق فى ربة السلم (٨)
ذريعة أبتغيها ، قبل محترمى (٩)

(١) مال به الدهر : أثقل عليه بموادته ، برح به الأمر - بتضعيف الراء - : جهده وشق عليه ، الضيم : الظلم ، أشاطه : أحرقه ، النوى : البعد ، الأدم - بالتحريك - جمع الأديم : الجلد .

(٢) السلوة - بضم وفتح السكون - : رخاء العيش .

(٣) التجميل : تكلف الحسن والجمال ، الساعد : ما بين المرفق والكف من أعلى .

(٤) حبر الشعر والكلام والخط : زينه وغمقه ، يتلو الكتاب : يقرأه ، أوحى الكلام : ألقاه ، الكلم - بفتح فكسر - جمع الكلمة : القصيدة .

(٥) العفو : عدم المعاقبة على الذنب ، أثم - بفتح فكسر - : وقع فى الإثم ، الرحم - بفتح فكسر - : القرابة أو أسبابها .

(٦) سلمان : سلمان الفارسي ، الزمرة - بضم فسكون - : الفوج والجماعة ، الحشم - بالتحريك - : خاصة الرجل الذين يفضيئون لفضله وما يصيبه من مكروه ، من عبيد أو أهل أو جيرة .

(٧) كلاه : حفظه ، أهول : الفزع ، اتقى الشيء : حذره وتجنبه ، الرجم - بالتحريك - : القبر .

(٨) عاقه عن الشيء : منعه منه ، وشغله عنه . الشجن - بالتحريك - : أهم والحزن ، والحاجة الشاغلة ، الموثق - بضم الميم - ، المشدود فى الوثاق ، الربة - بكسر فسكون - : جبل ذو عرى ، أو حلقة لربط الدواب ، السلم - بالتحريك - : الأسر من غير حرب .

(٩) الزورة - بفتح فسكون - : المرة من الزيارة ، الفؤاد : العقل أو القلب ، الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء ، اختترم - بفتح الراء - : الاحترام وهو أخذ المية ، يقال : اخترمته المية : أخذته .

ومن هنا يضرع إلى الله بالشكوى ، راجيا منه أن ينصفه من كل باغ ظالم ، فنقته في انتقامه تعالى من كل جبار ، يجعله لا يرهب ظلما ولا جورا ، فإذا نلت ما رجوته منه ، فلا عجب فيه ؛ لأننى ألقيت آمالى على الكريم الذى لا تضيع عنده الآمال ، وذلك قوله :

شكوت بشى إلى ربي لينصفنى من كل باغ عتيد الجور أوهيكيم^(١)
وكيف أرهب حيفا ، وهو منتقم يهابه كل جبار ومنتقم^(٢)
لا غرؤ إن نلت ما أملت منه فقد أنزلت معظم آمالى بذى كرم^(٣)

ويتمد نفس الشاعر ، مع مور نفسه بالتوجه إلى الله فى شكواه ، فيخلص لمناجاته برجائه وأمله فى أن يهب له مغفرة تحو ذنوبه ، وأن يمن عليه بلطف يعصمه من زيغ العقول والألباب يوم القيامة ، معلنا أفراد الله برجائه ودعائه أن يقيه شر العواقب ، وأن يحفظه من التهم ؛ لاطمئنانه إلى أن من يرجوه لا يتسرب إلى نفسه خوف ، لأنه بتوجهه إلى ربه يدرك أنه قد سلك السبيل المستقيم الذى لا يحشى فيه الضلال .

ويزيده اطمئنانا إلى استجابة ربه ، ما هو عليه من حب لرسول الله ﷺ يرتفع بمنزلته ارتفاعا يجعله يرجو بها الصفح عن ذنوبه يوم الحساب ؛ نافيا عن نفسه إدعاء العصمة من الذنوب ، معتزا بما بينه وبين رسول الله ﷺ من صلوات ، وما يقدمه من مدائح سمت به إلى قمم الأفلاك ، حتى صارت الأفلاك مسخرة له . ثم يقرر أنه بمدحه رسول الله ﷺ لم يعد يحشى ضيما ؛ لأن مآدح الكرام لا يضام ، ويؤكد ذلك أنه سمى لرسول الله ﷺ فمحمود هو أحد أسمائه ﷺ ، ولا أدل على ذلك من أنه منذ لاذ به ﷺ حنا عليه الزمان وابتسم له ، بعد أن أبكاه ، لأنه ﷺ هو الذى يمنح السائلين مسألتهم ، ويشفع للخلق يوم القيامة ، فمن يقصده يجد لديه حاجته على تنوع الحاجات وتباينها ، بل إن يديه لتحملان الشيء ونقيضه ، تحملان الموت للغاوين المشركين ، وتحمل الجود والخير للمؤمنين المهتدين ، حتى أصبح الكفر من شدته فى خوف وفزع ، وأصبح الإسلام من عدله فى أمان ، وذلك قوله :

يا مالك الملك هب لى منك مغفرة تحو ذنوبى غداة الخوف والندم
وامنن على بلطف منك يعصمنى زيغ النهى يوم أخذ الموت بالكظم^(٤)
لم أذع غيرك فيما نابى ؛ ففى شر العواقب ، واحفظنى من التهم^(٥)

(١) البث : أشد الحزن الذى لا يصبر عليه صاحبه ، العتيد : المهيا والحاضر ، اهيكيم - بفتح كسر - : الشرير المقصم على ما لا يعنيه .

(٢) الحيف : الجور والظلم .

(٣) الغرو : العجب .

(٤) من عليه : أنعم عليه نعمة طيبة ، اللطف من الله : التوفيق والعصمة ، الزيغ : الميل عن الحق ، النهى - جمع النية - : العقل ، الكظم - بالتحريك - : الحلق أو القم ، أو مخرج النفس .

(٥) نابيه : أصابه ، العواقب - جمع العاقبة - : خاتمة كل شيء ، التهم - جمع التهمة - : الاتهام والشك والارتباب .

- حاشا لراجيك أن يخنثى العثار ، وما
وكيف أخنثى ضلالا بعد ما سلكت
ولى بحب رسول الله منزلة
لا أدعى عصمة ، لكن يدى علقت
خدمته بمدحى ، فاعتلتوت على
وكيف أهرب ضيما بعد خدمته
أم كيف يخذلنى من بعد تسميتى
أبكائى الدهر ، حتى إذ لجأت به
فهو الذى يمنح العافين ما سألوا
نور لمقتبس ، ذخىر للمتبس
بث الردى والندى شطرين فانبعا
فالكفر من بأسه المشهور فى حرب
- بعد الرجاء سوى التوفيق للسلم^(١)
نفسى بنور الهدى فى مسلك قيم^(٢)
أرجو بها الصفح يوم الدين عن جرمى^(٣)
بسيد ، من يرد مرعاته يسلم^(٤)
هام السماك ، وصار الأفق من خدمى^(٥)
وخادم السادة الأجواد لم يضم لى^(٦)
باسم له فى سماء العرش محترم لى^(٧)
حنا على ، وأبدى ثغر مبتسم لى^(٨)
فضلا ، ويشفع يوم الدين فى الأمم^(٩)
حرز لمبتس ، كهف لمعتصم^(١٠)
فيمى غوى وهدى بالبؤس والنعم^(١١)
والدين من عدله المأثور فى حرم^(١٢)

الاعتذار من التقصير فى المدح لسمو المدوح ،

وعندما تنبه من تأثير تلك الشحنتات الوجدانية — بعد أن أفرغها فى هذه العبارات
المصورة — أخذ يتحدث عن مدحته التى يقدمها فى تلك القصيدة ، معتذرا عن تقصيره بأن

- (١) حاشا لله : تنزيها لله ، العثار : الشر ، أو ما يعثر به ، التوفيق من الله للعبد : سد طريق الشر ، وتسهيل طريق الخير ، السلم
— بالتحريك : — التسليم والنجاة .
- (٢) الضلال : العدول عن الطريق المستقيم عمدا أو سهوا ، سلك به وفيه : دخل ونفذ ، القيم — بكسر الفتح — جمع القيمة :
النيات والدوام على الأمر .
- (٣) الصفح : العفو ، الجرم — بالتحريك : — الذنب .
- (٤) العصمة : ملكة إلهية تمنح من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة على الفعل ، علق الشيء بالشيء — بفتح فكسر — : نسب فيه
واسمك به ، ورد المعنى — بالتحريك : — : أشرف عليه دخله أو لم يدخله ، سامت الماشية : رعت .
- (٥) الهام — جمع الهامة — الرأس ، وأعلى الشيء ، السماك — بكسر السين — : هما سماكان : نجمان ليران ، أحدهما فى الشمال
وهو الراجح ، والآخر فى الجنوب وهو الأعزل . الأفق — بضم فسكون — : متى ما تراه العين من الأرض كأنها التقت عنده
السماء .
- (٦) رهب — بفتح فكسر — خاف ، الضيم : الظلم أو الإذلال .
- (٧) خذل فلاناً : تخلى عن عونه ونصرته .
- (٨) لجأ به : لاذ إليه واعتصم به . أبدى : أظهر .
- (٩) منح : وهب ، العافى : كل طالب معروف . سأل احتاج : طلب ، الفضل : الإحسان ، شفع فى الأمر — بالتحريك : — :
كان شافعاً فيه .
- (١٠) القبس النور : طلبه ، الذخر — بضم فسكون — : انخبا لوقت الحاجة إليه ، المتبس : المشبه ، الحرز : المكان المنيع يلجأ
إليه ، المتبس : المكتب الحزين ، الكهف : الملجأ ، المعتصم : اللاتل اللاجئ .
- (١١) بث الشيء : نشره وفرقه وبسطه ، الردى : الهلاك ، الندى : العطاء والجلود ، انبعث : هب واندفع ، غوى
— بفتحين — : أمعن فى الضلال ، البؤس : المشقة والفقر .
- (١٢) البأس : الحرب والشدة ، الحرب — بالتحريك : — : الويل والهلاك ، الحرم — بالتحريك : — : ما يقاتل عنه ويحمى .

الممدوح - عليه الصلاة والسلام - أعلى من أن يدركه مادح ، فلا يمكن أن يبلغ شاعر - مهما كانت قدرته - هذه المرتبة فكل ما يقوله المادحون وما يقدمونه من ثناء لا يمكن أن يفى بحق من أثنى عليه خالقه جل وعلا في كتابه الكريم ، ثم فصل الحديث النقدي ، فقال ، إني يا رسول الله أقدم هذه القصيدة - وفق استطاعتي - زاهرة بما تحمله إلى أنفسكم الشريفة من عاطر الذكر ، وقد سمتها بأن أطلقت عليها اسمك الكريم ، فكان لها ثوبا حريريا لا ينال منه البلى ؛ فهي غريبة بين مثيلاتها ، لو تعطف عليها بنظرة رضا لأغنتها عن الناس وما يطلبونه في الشعر من صنعة ، لم ألتمها ، لحرصى على التزام المعاني ، فهي أبيات نظمها رجاء أن أنال بها ما أتمناه يوم يبعث الناس جميعا للحساب ، وقد صدرتها بالنسيب - على عادة الشعراء - لكنه لا يشف إلا عن عفتي التي لم يدنسها أى اتهام ، وكل ما هنالك أنى لم أشأ أن أخالف ما عليه الشعراء من قبلى ، بل تابعت فيها كعبا وحسانا ، معتزا بالإئتساء بهما ، لأن الشعر معرض عقول وأفكار يبرزها ما ينمقه التعبير الأدبي ، فليس ابتدائى بتلك المقدمة النسيبية مما يعاب على ، أو يؤاخذنى به النقاد ، لأنه تغريد بلبل أثاره للتغريد وقوفه ببابك يا رسول الله ، فحرمك الشريف هو الذى تيم قلبى ، وحرك مشاعرى ، وفاض كل وجدانى بما جاء في هيئة النسيب : فقال :

هذا ثنائى ، وإن قصرت فيه فلى
هيات أبلغ بالأشعار مدحه
ماذا عسى أن يقول المادحون وقد
فهاكها يا رسول الله زاهرة
وسمتها باسمك العالى ، فألبسها
غريبة في إزار البين لو أنست
لم ألتم نظم حبات البديع بها
عذر ، وأين السها من كف مستلم (١)
وإن سلك سبيل القالة القدم (٢)
أثنى عليه بفضيل منزل الكلم (٣)
ثهدى إلى النفس ربا الأسى والبرم (٤)
ثوبا من القز ، لا يبلى على القدم (٥)
بنظرة منك لاستغنت عن النسم (٦)
إذ كان صوغ المعانى الغر ملتزمى (٧)

(١) التناء : الوصف بالممدح ، السها - بضم السين - : كوكب صغير خفى الضوء في بنات نعل الكبرى أو الصغرى . استلم الحاج الحجر الأسود بالكعبة : لمس بالقبلة أو اليد .

(٢) هيات : اسم فعل ماض بمعنى بعد ، المدحة - بكسر فسكون - : الأمدوحة التى يمدح بها من الشعر ، القالة - جمع القائل - : المتكلم ، القدم من الرجال - بضمتين - : الشجاع .

(٣) أثنى على فلان : وصفه بالخير .

(٤) هاك : اسم فعل أمر بمعنى خذ ، زاهرة : صافية خالصة . الريا - بفتح الراء والياء المضعفة - : الرجى الطيبة . الأس : شجر دائم الخضرة ، أبيض الزهر أو وردية ، عطرى . البرم - بالتحريك - : جمع البرمة : الأراك .

(٥) وسم الشيء : ميزه ، القز - بالفتح - : الحرير .

(٦) الإزار : ما يقيده الأسير ، البين - بفتح فسكون - : الفرقة ، أنس به وإليه - بفتحيتين - : سكن إليه وذهبت وحشته ، وأنس به - بفتح فسر - : فرح ، النسم - بفتحيتين - : الخلق .

(٧) البديع : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، الصوغ للمعاني : تهيئتها وترتيبها ، الغر - بالضم - : جمع الأغر : المشهور .

- وإنما هي أبيات رجوت بها
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت
صدرتها بنسب شاف باطنه
لم أتخذة جزافاً ، بل سلكت به
تابعت كعبا وحسانا ، ولي بهما
والشعر معرض ألباب يروج به
فلا يلمنى على التشبيب ذو عنت
وليس لي روضة ألهو بزهرتها
فهى التى تيمت قلبى وهمت بها
معاهد نقشت في وجنتى لها
- نيل المنى يوم تحيا بذة السرم^(١)
أحسن بمن تشر منها ، ومنظم^(٢)
عن عفة لم يشنها قول متهم^(٣)
في القول مسلك أقوام ذوى قدم^(٤)
في القول أسوة بر غير متهم^(٥)
ما تمقته يد الآداب والحكم^(٦)
قبلل الروض مطبوع على النغم^(٧)
في معرض القول إلا روضة الحرم^(٨)
وَجدا ، وإن كنت عف النفس لم أهم^(٩)
أيدى الهوى أسطراً من عبرتى بدم^(١٠)

الرغبة في زيارة الحرم النبوي والتوجه الى الله بالرجاء .

ومع الحديث عن الحرم النبوي الشريف ، تفعم نفس البارودي بالرغبة في زيارة هذا المكان الكريم ، فينطلق لسانه مصورا عمق تلك الرغبة ، فينادى حادى الإبل التى تحمل الزائرين ، مبديا رغبته في الزيارة ، مغريا هذا الحادى بأن يقدم له كل ما يطلب منه نظير تبليغه تلك الرغبة ، حاضا إياه بأن يواصل السير بالمطايا من غير رفيق ، حتى يوصله إلى مبتغاه بأسرع ما يمكن ، مع طمأنة هذا الحادى إلى أنه لن يصادف في هذا الطريق ما يخاف فلا يخش الضلال ؛ لأنه حين يسير سوف يهديه نور المصطفى إلى الطريق ، بل سوف يريه ما كان خافيا عليه ، فلا يمكن لإنسان يقصد هذا المكان الشريف أن يخالج صدره خشية الضلال ؛ لأن محمدا ﷺ في هذا المكان مشكاة فوق قمة عالية يشع النور ، عبر البارودي عن ذلك في قوله :

- (١) الرم - بكسر ففتح - جمع الرمة : العظام البالية ، والرم البذة - بفتح الباء وتضعيف الدال - : سيفة الهيئة .
(٢) نثر الكلام : صاغه نثراً ، ونثره : نشره ، أو رمى به متفرقا ، الفريد : الحب من فضة وغيرها يفصل بين حبات الذهب والؤلؤ في العقد . انتظم الشيء : تألف واتسق .
(٣) النسب في الشعر : الرقيق منه المتغزل به في النساء : العفة : ترك الشهوات في كل شيء .
(٤) الجزاف : الشيء لا يعلم كيله أو وزنه .
(٥) كعب بن زهير بن أبى سلمى ، حسان بن ثابت ، أسوة : قدوة ، البر - بكسر الباء - : الخير .
(٦) الألباب : العقول ، راجت السلعة : نفقت وكثر طلابها ، غنى الكتاب - بالفتح مع تضعيف الميم - : جود كتابته .
(٧) التشبيب من الشاعر : ذكر أيام اللهو والشباب ، أو التغزل بالمرأة ووصف محاسنها ، العنت - بالتحريك - : المكابرة عناداً .
(٨) الروضة : البستان الحسن ، معرض الشيء - بفتح الميم وكسر الراء - : موضع عرضه وذكره .
(٩) تيمم الحب : استعبده وذهب بعقله ، هام به : شغف حبا به ، الوجد - بفتح فسكون - : الحب .
(١٠) المعاهد - جمع المعهد - : محضر الناس ومشهدهم ، نفس الشيء : لونه وزينه ، ونقش الرحي : نقرها لتخشن . الوجنة : ما ارتفع من الخدين ، العبرة - بفتح فسكون - : الدمعة .

يا حادى العيس إن بلغتسى أملى
سر بالمطايا ، ولا ترفق ، فليس فتى
ولا تخف ضلة ، وانظر فسوف ترى
وكيف يخشى ضلالا من يؤم حمى

من قصده ، فافتح ما شئت واحتكم^(١)
أولى بهذا السرى من سائق حُطَم^(٢)
نوراً يريك مَدَبَ السدر فى الأكَم^(٣)
محمد ، وهو مشكاة على علم^(٤)

من هنا أخذ البارودى - فى طريقه إلى ختم قصيدته - يصور عمق هذه الرغبات والأمانى ، وأثرها فى حياته الدنيوية والأخروية ، منبها إلى ما أمله بتقديم مدحته تلك من فوز بنعمة الله قبل الشيب والهرم ، معلنا طمأنينته إلى كرم الله سبحانه وتعالى وفضله على عبده الذى يلتزم طاعته والسعى إلى الاقتراب منه ، مؤكدا ثقته بأن ذلك الالتزام من العبد يكفل له بلوغ ما شاء من الجاه والمنزلة ، لأنه عبد يعيش فى كنف المليك الذى يخضع لعزته الملوك جميعهم ، والذى بيده إحياء البرايا إذا أراد بعثهم ، كما يصنع فى إحياء النبات فى دنيانا تلك بإنزال المطر .

ويقوده تذكر البعث وما يكون بعده من حشر وحساب فجزاء ، إلى أن يعود إلى توجيهه الله تعالى راجيا منه أن يشملہ بفضلہ ، ويمن عليه بعفوه ، مستشفعا بالمصطفى ﷺ أن يقبل رجاءه ، بعد أن تبرأ من كل ما يعتز به من دون الله ، وأصبح هو وحده الملاذ والمعاذ من كل ما يخشاه ، داعما هذا الرجاء والاستشفاع بالصلاة الدائمة على المختار ﷺ وعلى آله وأصحابه وأنصاره الذى تبعوا هداة ، وثبتوا على ما عاهدوه عليه ، طالبا منه سبحانه وتعالى أن يمن عليه بمغفرة تحو ما قدم من خطايا وما أخر .

هذى مُنْأى ، وحسبى أن أفوز بها
ومن يكن راجيا مولاه نال به
فاسجد له واقرب ، تبلغ بطاعته
هو المليك الذى ذلت لعزته

بنعمة الله ، قبل الشيب والهرم^(٥)
ما لم ينله بفضل الجد والهمم^(٦)
ما شئت فى الدهر من جاهٍ ومن عظم
أهل المصانع من عاد ومن إزم^(٧)

(١) الحادى : السائق ، العيس - بكسر العين - جمع الأعيس والعيساء : الكرم من الإبل ، اقترح الشيء : اختاره ، احتكم فى الشيء : تصرف فيه كما يشاء .

(٢) المطايا جمع المطية : ما يعطى من الدواب ذكراً وأنثى ، السرى - بالضم - : السير ليلاً ، الحطَم - بضم ففتح - : السوف العنيف .

(٣) الضلة - بالفتح - : الخيرة ، المدب - بفتحين - : الدب : المشى وريداً ، الدر - بفتح فسكون - : النسل ، الأكَم - جمع الأكمة - : التل .

(٤) يؤم : يقصد ، المشكاة : كوة فى الخائط غير نافذة يوضع فيها مصباح .

(٥) الهرم - بالتحريك - : بلوغ أقصى الكبر .

(٦) الجد فى الأمر : الاجتهاد ، الهمم - جمع الهمة - : العزم القوى .

(٧) المصانع : المباني من القصور والحصون والقرى والأبوار وغيرها من الامكنة العظيمة ، العلد - بفتح فسكون - : الصلابة الشديدة من كل شيء . إزم - بكسر ففتح - : مدينة كبيرة لقوم عاد ، وفى المطبوعة : أهل المصانع من علد ، ولعله من خطأ المطبعة ، فما ذكرته أنسب .

يحیی البرایا إذا حان المعاد ، كما
یا غافر الذنب ، والألباب حائرة
حاشا لفضلك - وهو المستعاذ به -
إنی لمستشفع بالمصطفى ، وكفى
فاقبل رجائی ، فمائی من ألوذ به
وصل رب علی اختصار ما طلعت
والآل والصحب والأنصار ، من تبعوا
وامنن علی عبدك العالی بمغفرة

یحیی النبات بشؤبوب من السديم (١)
فی الحشر، والنار ترمى الجو بالضم (٢)
أن لا تم على ذی خلصة عدم (٣)
به شفیعا لدى الأهوال والقحَم (٤)
سواك فی كل ما أخشاه من فقَم (٥)
شمس النهار ولاحت أنجم الظلم
هداه ، واعترفوا بالعهد والذم
تمحو خطایاه فی بدء ومختم (٦)

فالبارودی رحمه الله تعالى صور - بشعره - رسول الله ﷺ من خلال ما قدمه ابن هشام في سيرته التاريخية ، لافتنا النظر إلى ما تعكسه الأحداث التاريخية من مواقف محمدية ، تبدى وطيد صلته بالله سبحانه وتعالى ، وتظهر أطرافاً مما بذله في سبيل نشر الدعوة ، وما تحمله من عناء وعنت في هذه السبيل ، حتى هياً للدعوة الإسلامية كل أسباب الذبوع والانتشار في المكان وفي الزمان ، ملياً أمر ربه ، كي تتحقق العالمية للإسلام . !

ومن هنا ... كان تأثر البارودی وتجاوبه الوجداني والعقلي مع محمد ﷺ ، ذلك التجاوب الذي أوصله إلى مرحلة راقية من الحب الخالص له ﷺ ، والصفاء النقي في تقربه إلى الله تعالى ، وإنابته وتضرعه ورجائه . !

وبذلك تميز عن أستاذه الإمام البوصيري ، فلم يكن - في محاذاته - تكراراً له ، ولكنه كان إضافة يشعر المتلقي بأنه إلى جوار البوصيري ، سقى فني من البارودی إلى تقديم تصويره للرسول ﷺ ، احتذى فيه البوصيري ، دون أن يفقد شخصيته الفنية والوجدانية ، على الرغم مما بين التصويرين من تباين واختلاف ، هو في حقيقته تباين واختلاف بين الشاعرين فنيا ووجدانياً ، ودوافع ، بدا في تلك الهيئة . !

-
- (١) البرايا - جمع البرية - : الخلق ، المعاد : الحياة الآخرة ، الشؤبوب - بالضم - : الدفعة من المطر ، الدم - بكسر الفتح - جمع الدية : المطر يدوم أياماً .
- (٢) الألباب : العقول ، الضرم - بالتحريك - : هب النار .
- (٣) الخلعة - بالفتح - : الخلعة ، العدم - بفتح فكسر - : عدم المال وفاقده .
- (٤) استشفع : طلب الناصر ، الأهوال - جمع الهول - : الفزع ، القحَم - بضم ففتح - : جمع القحمة - بضم فسكون - : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .
- (٥) لاذ : لجأ ، الققم للأمر - بالتحريك - : اشتداده وعدم جريه على استواء .
- (٦) العالی : الذي يهيم الأمر ويشق عليه .

- ٢ -

أحمد شوقي في قصيدته

(نهج البردة)

إذا كان البارودي في قصيدته قد نظر إلى البوصيري بعين ، وإلى ابن هشام بعين أخرى ، فإن أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته نظر إلى ابن الفارض بعين ، وإلى البوصيري بعين أخرى ، على الرغم من أن شوقيا سمى قصيدته (نهج البردة) ، مما يوحي بأنه قصر نظره فيها على محاكاة البوصيري فحسب ... !

ولا أعنى بذلك أن البارودي لم يتأثر إلا بالبوصيري وابن هشام ، وأن شوقيا لم يتأثر إلا بابن الفارض والبوصيري ، وإنما أعنى أن هذين هما أبرز من استصحب البارودي في رحلته تلك ، وأن هذين هما - كذلك - أبرز من استصحب شوقي في رحلته أيضا ... وقد يكون البوصيري في برده محتذيا بابن الفارض في ميميته ، على ما ينبىء بذلك ما بينهما من التقاء في المطلع ؛ فقد بدأ ابن الفارض قصيدته بقوله :

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان ! هلا نسمة سحرأ وماء وجرة ! هلا نهلة بفم
وقد بدأ البوصيري قصيدته بقوله :

أمن تذكر جيران بذي مسلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
هذا احتمال يجسم الرأي فيه دراسة خاصة للقصيدتين ، أرجو أن يتيسر من الوقت ما يمكن من ذلك ، !

بيد إن الذي يعيننا هنا أن نقرر أن شوقيا لم يغب عنه في قصيدته (ابن الفارض ، والبوصيري ، ثم البارودي) فكان مطلعها :

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَسَانِ وَالْعِلْمِ أَحْلَ سَفْكَ دُمِي فِي الْأَشْهَرِ الْحَرَمِ^(١)
رَمَى الْقَضَاءُ بَعِيْنِي يُنْوِذِرُ أَسْداً يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجَمِ^(٢)
وشوق في تقديم مدحته بدأ مشبهاً - وفق ما التزمه الشعراء العرب - ثم انتقل إلى المدح ،
ولذلك نراه يوظف التشبيب فنياً ، ليكون وسيلة تصله بغرضه الأصيل .
والتشبيب في (نهج البردة) يستغرق أكثر من ثلاثين بيتاً من قصيدته التي ضمت تسعين
ومائة بيت ! .

وهو في هذه المقدمة التشببية يتغنى بالحسنة التي تشبه ربما صادفه في سهل مطمئن بين
أشجار البان وأحد الجبال الشاهقة ، فملك له ، وكان حبه إياه يفتك به ، حتى لكان القضاء
رماه بسهم صائب سدّد من عيني هذا الطّبي ، فلم يملك إلا أن يستنجد بمن حوله من الناس
لينقذوه من فتك هذا الطّبي .

ويبدأ شوقي في وصف تأثره بهذه الحسنة ، وكيف ابتداءً ذلك مع نظرة منها مصوبة إليه ،
أنشأت بينه وبين نفسه حديثاً - حيث استشعر ما أحدثته تلك النظرة فيه ؛ إذ أصابت جنبه
بسهم مصيب - فانطلق مستنجدا مسترحماً ، على الرغم من أنه أنكر ذلك الأثر وكنمه ، لإيمانه
بأن جرح الأحبة لا يؤلم ، كما هو شأن ذوى الأخلاق الطيبة .

لما رنا حدثني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي^(١)
جحدتها ، وكنمت السهم في كبدي جرح الأحبة عندي غيّر ذى ألم^(٢)
رزقت أسمع ما في الناس من خلق إذا رزقت التماس العذر في الشيم^(٣)

ويتنبه شوقي إلى أن هناك من يلومه على ذلك ، فيتوجه بالخطاب إليه منها إلى أن الهوى قدر لا
سلطان لإنسان عليه ، وموضحاً أنه ما لأمة إلا لأنه لم يتعرض لآثار الهوى ، ولو أن الهوى أصابه ما
كان منه عدل ولا لوم ؛ ولذلك فإن لوم اللائم لا أثر له في شوقي وإن بدا منتصتاً إليه ، لأنه
لا ينتصت إليه إلا في الظاهر :

يا لا ثمى في هواه ، والهوى قدر لو شفتك الوجد لم تعزل ولم تلم^(٤)
لقد أنلتك أذناً غير واعية ورب منتصت ، والقلب في صمم^(٥)

(١) الرّم : بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء - : الطّبي الخالص البياض ، القاع : الأرض السهلة المطمئنة ، والبان - جمع

بانة - : ضرب من الشجر ، والعلم : الجبل ، الأشهر الحرم : ذو القعدة ، ذو الحجة ، الحرم ، رجب .

(٢) الجوّذر - بضم فسكون ففتح - : ولد البقر الوحشية ، الأجم - جمع الأجمة - : الشجر الكثير المنلف ، ويسكنه الأسد .

(٣) رنا : أدام النظر مع سكّون الطرف ، ويح : كلمة ترحم وتراجع .

(٤) جحد الشيء : أنكره .

(٥) التمس العذر : طلبه ، الشيم : جمع الشيمة : الطيبة والخلق .

(٦) شفته : أخل جسمه وأصابه بالفضال ، الوجد - بفتح فسكون - : الحب . العدل - بفتح فسكون - : اللوم .

انتصت له : سكّت له مستمعاً .

ثم يتوجه بالخطاب إلى تلك الحسناء التى سلبته لبه بعيونها الوسنانة ، فأقضت مضجعه وحرمته النوم ، متقرباً منها بجعل نفسه فداءها :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فم (١)
أفديك إلفاً ، ولا آلو الخيال فدى أغراك بالبخل من أغراه بالكرم (٢)

ومن هنا ينطلق واصفاً ما كان من هذه الحسناء ، حتى أوقعتة فى هواها ، وما كان من خياله الذى تحرك فى الليل سارياً وراء هؤلاء السافرات اللائى يشبهن البدور ، واللأى يقتلن بأجفانهن من يصادفن ، واللأى يعشن بقول الرجال ، بما أبدين من حمرة فى خدودهن كأنما أشعلن فيها نارا ، واللأى يحملن ألوية الحسن المختلفة إعلاناً عن بلوغهن أعلا درجات الجمال ، حتلاً إن إشارة من بنانهن لتأسر الأسد الكاسر ، فلم يكن من شوقى إلا أن استسلم لهؤلاء الحسان ، وجعل خده مرتعاً لهن ، وكله دهشة وتعجب من سطوتهن ، حتى أصبح فى حيرة من أمرهن ، أيقطن الغاب مع الأسود ، أم يلقاهن فى القصور ؟!

وهكذا .. يتحول شوقى من وصف جمالهن ، إلى الحديث عن امتناعهن ، وبعدهن عنه ، حتى لكأنهن مقيمات فى حصون ، دونها المنايا ، مما يدفعه إلى التساؤل الحائر بحثاً عن سرهن ، وتطلعا إلى معرفة الروابط بين حسناته وتلك المخاوف من السيوف والوحوش الضواري ، حتى أصبحت حواجز تمنعه من الوصول إليها أو الدنو منها ، فأصبحت تلك الحواجز مع ما هو عليه من عفة عذرية تمثل الموانع التى لا تسمح له بأن يغشى منزلها أو يقترب منه إلا فى أثناء النوم ، حتى لكأن منزلها فى بعده عن التناول هو إرم ذات العماد التى لم يبق منها إلا الذكري ، وذلك قوله :

سرى ، فصادف جرحاً دامياً ، فأسا ورب فضل على العشاق للخلم (٣)
من الموائس باناً بالرى وقناً اللاعباث بروحى ، السافحات دمی (٤)
السافرات - كأمثال البدور - ضحى - يُغرن شمس الضحى بالخلوى والعصم (٥)
القاتلات بأحفان بها سقم وللمنية أسباب من السقم

(١) الطرف - بالتحريك - : العين ، والناعس : الذى هرت حواسه لقارب النوم ، المضنى - بضم فسكون - : الذى أصابه المرض أو الهزال الشديد .

(٢) الإلف : الذى يؤلف ويؤنس به ، آلو الخيال : الألو : الترك ، والإبطاء ، والتقصير ، والمنع . أغراه بالشئ : زينه له ، وحرضه عليه .

(٣) السرى - بالضم - : السير ليلاً ، صادق الشئ : وجده من غير موعد ولا توقع ، أسا الجرح : عاجله ودأواه ، الخلم - بضمين - : الرؤيا فى النوم .

(٤) الموائس - جمع المائسة - : الختالة المتبخرة ، البان : نوع من الشجر لدن مستقيم ، يشبه به قوام المرأة الجميلة ، والقنا - بالفتح - : جمع القناة : الرحم ، سفح الدم : سفكه وأساله .

(٥) السافرة : المرأة التى كشفت عن وجهها ، الخلى - بفتح فسكون - : ما تتزين به المرأة ، العصم - بكسر ففتح - : جمع العصمة كعصبة وعقب : القلادة .

- العائثرات بألباب الرجال ، وما
المضرمات خدوداً أسفرت وجلت
الحاملات لواء الحسن مختلفاً
من كل بيضاء أو سمراء زُيتاً
يُرعن للبصر السامى ، ومن عجب
وضعت خدى ، وقسمت الفؤاد رُبى
يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه
ما كنت أعلم - حتى عن مسكنه -
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر ؟
ببنى وبينك من سمو القنا حجب
لم أغش مغناك إلا فى غضون كرى
- (١) أُقِلْن من عثرات الدل فى الرّسم
(٢) عن فتة تُسلم الأكباد للضرم
(٣) أشكاله وهو فرد غير منقسم
(٤) للعين ، والحسن فى الآرام كالغصم
(٥) إذا أشرن أشرن الليث بالقنم
(٦) يرتعن فى كنس منه ، وفى أم
(٧) ألقاك فى الغاب ، أم ألقاك فى الأطم
(٨) أن المنى والمنايا مضرب الجيم
(٩) وأخرج الريم من ضرغامة قريم ؟
(١٠) ومثلها عفة عذرية العصم
(١١) مغناك أبعد للمشتاق إرم

الحديث مع النفس ،

ومن هنا يتوجه شوقى بحديثه إلى نفسه ، مهبطاً بذلك للخلوص إلى غرضه الأصيل - وهو الحديث الواسف المادح لسيدنا محمد ﷺ - ولذلك كان حديثه إلى نفسه - أو مع نفسه - حديث محاسب لنفسه عما صدر منها ، محذراً إياها من الاستمرار فى الخطأ إذا وقعت فيه ، وعلى هذا الطريق نجد الشاعر يقول : يا نفسى لا تخدعى فى هذه الدنيا ، فهي تخفى وراء مسراتها

- (١) الألباب : العقول ، عثر المرأة بلب الرجل : كبت به ، أقاله من عثرته : أنهضه من سقطته ، الدل - بالفتح - : الحالة التى يكون عليها المرء من السكينة والوقار ، يقال امرأة ذات دل : ذات شكل يمكنها من أن تدل على زوجها وتظهر عليه الجراءة كأنها تخالفه وما بها من خلاف ، الرسم - بالتحريك - : حسن المشى .
(٢) أضرم النار : أشعلها ، وإضرام الخدود : صبغها بالحمرة . جلّت عن فتة : كشفت .
(٣) اللواء : العلم ، الفرد : المفرد المتوحد .
(٤) الآرام - جمع الرّم - : الظى ، العصم - بضمين - جمع الأعصم والعصماء : الظى الأسود أو الأحمر فى ذراعيه يياض .
(٥) راعه : أخافه الليث : الأسد ، العنم - بالتحريك - : شجرة حجازية لها ثمر أحمر ، تشبه به بنان المرأة المخطوبة .
(٦) وضع الحد : كناية عن الخضوع ، الكنس - بضمين - جمع الكناس بكسر الكاف - موج فى الشجر يأوى إليه الظى ليستر ، الأكم - بالتحريك - جمع الأكمة : التل .
(٧) اللبد - بكسر ففتح - جمع اللبدة : الشعر المتراكب بين كتفى الأسد ، الأطم - بضمين - : الحصن أو القصر .
(٨) عن الشيء - بتضعيف النون - : ظهر ، المنى - جمع المنية - : الأمنية والبغية ، والمنايا - جمع المنية - : الموت ، مضرب الجيم : المكان الذى تقام فيه . والمقصود : المكان الذى تنزل فيه الخبوبة .
(٩) الصمصامة - بفتح فسكون - : السيف القاطع ، والضرغامة - بكسر فسكون - : الأسد ، ويقصد بهما أبا معشوقته والقرم : شديد الشهوة إلى اللحم .
(١٠) السمر - بضم فسكون - جمع الأسمر : الرمح ، القنا : اسم جنس جمعى . مفردة القناة : الرمح الأجوف ، العفة العذرية : نسبة إلى قبيلة بنى عذرة ، العصم - بكسر ففتح - جمع العصمة : الحفظ والمنع .
(١١) غشى المكان : نزل به ، المنى : المكان الذى يبنى به أهله عن الاحتياج ، الكرى : النوم ، إرم : هى إرم ذات العماد التى كانت تقوم عاد .

البادية أحزاناً وآلاماً تفرض على العاقل الحذر منها ، والحذر من الانخداع بهذه الدنيا يفرض عليك أيها النفس أن تواجهها بالتقوى ، فإن ذلك منك يجعلها تفصح عما تخفيه لك ؛ كما يفرغ أذى الحية الرقشاء بكسر أسنانها ... إن طبيعة الدنيا بما تشتمله من إغراءات تجعل منها كيانا يخشى دائماً من خداعه ، حتى إن الإنسان لا يستطيع التخلص من أذاها إلا بالصبر والقوة والمعاناة ، فإن أثر أذاها يبقى على الزمان ، بل إنه يمتد إلى ما بعد فناء الزمان ، على ما نرى عليه أبانا الأول آدم الذى ما زال يذكر ما أصابه منها ، فلا تهتمى يا نفس بما قد تلوح به إليك من ثمراتها في هيئة معسولة ، لأن هذه الثمرات تحمل الموت بين طياتها ، فلا فرق بين جناها وجنايتها ، حتى إن كثيراً من الناس قد وقعوا فريستها ، وخدعوا بها ، فعموا عن حقيقتها ، بينا هي واعية ساهرة لا تغفل لحظة عن ابتكار مصائبها ونوازها ، فتارة ترخي للإنسان حبل الرخاء والتنعيم والعافية ، حتى يظل في غفلته ، وطورا تلهيه بالأوثة والأمراض الفتاكة فلا يعي من أمره ما يستعين به على الخلاص منها ، والتنبيه إلى ما تخفيه من سموم وأوصاب .

ومع هذا التحذير النفسى من شوق يشعر ويشعرنا أن نفسه تكاد تقع في المخدور ، فيصبح مستغيثاً مستنجدا لنفسه التي وقعت في الخطيئة قبل أن يتمكن من إنقاذها ، حيث انهمك بها في المعاصي وتركها مطبقة في طرق الغواية ، حتى هامت وراء اللذات تبحث عنها وتسعى إليها في كل موطن ، دون مقاومة منها على ما طبعت عليه النفوس .

ومن هنا يبلغ شوق بنفسه درجة عالية من السمو والرفعة ، يتمكن معها من تحويل مشاعره إلى حكم تنساب في عبارات رشيقة يقرر فيها أن صلاح الإنسان يقوم - بالضرورة - على الأخلاق ، فيها وحدها تقوم النفوس ، ولذلك ارتبط سلام النفس بما تكون عليه من خلق . وهكذا ... يخلص شوق من مقدمته الغزلية لموضوعه بذلك الحديث النفسى كما خلص

البوصيرى في برده ، وذلك قوله :

يا نفس دنياءك تحفى كل مبكية	وإن بدا لك منها حسن مبـتسم ^(١)
فضئى بتقواك فاها كلما ضحكت	كما يفض أذى الرقشاء بالثـرم ^(٢)
مخطوبة منذ كان الناس ، خاطبة	من أول الدهر ، لم ثرمل ولم تـم ^(٣)
يفنى الزمان ، ويبقى من إساءتها	جرح بآدم ، يكى منه فى الأدم ^(٤)
لا تحفل بجناهاها ، أو جنايتها	الموت بالزهر ، مثل الموت بالفحم ^(٥)

(١) المبسم - بفتح السين - : الابتسام ، أو موضع الابتسام وهو الفم .

(٢) فضئى فاه : نثر أسنانه وكسرها ، الرقشاء من الحيات : المنقطة بالسواد والياض ، أذى الرقشاء : سمها ، الثرم

- بالتحريك - : كسر السن من أصلها .

(٣) أرملت المرأة : مات زوجها فصارت أرملة ، وأمت من زوجها : فقدته ، أو أقامت بلا زوج بكرأ كانت أو أياً .

(٤) الأدم - بالتحريك - الجلد .

(٥) حفل بالشئ : عنى به ، الجنى - بفتح الجيم والنون - : ما يجنى من الشجرة وما يقطف من ثمرها ، الجنابة : الذنب

والجرم . الفحم - بالتحريك - والفحم يسكون الحاء : مادة سوداء ذات مسام ، تتخلف من إحراق الخشب والعظم

ونحوهما إحراقاً جزئياً .

- كَمْ نَائِمٌ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتُكَ ، وَمَنْ تَحْجِبُ بِصِيرَتِهِ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي ، رَاعَهَا ، وَذَهَا
رَكُضَتَهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ ، وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ ، تَطْلُبُهَا
صِلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجَعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْفِي إِذَا مُكِنْتَ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوَى
- لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنِمِ^(١)
وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصْمِ^(٢)
إِنْ يَلْقَى صَابَأَ يَرُدُّ ، أَوْ عُلْقَمًا يُسْثِمِ^(٣)
مُسَوْدَةُ الصَّحْفِ مَبِضَّةُ اللَّئِمِ^(٤)
أَخَذَتْ مِنْ جِمِيعَةِ الطَّاعَاتِ لِلتَّخَمِ^(٥)
وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِي الصَّبَا تَهَمِ^(٦)
فَقُومِ النَّفْسُ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ^(٧)
وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخَمِ^(٨)
طَفَى الْجِيَادُ إِذَا عَضَتْ عَلَى الشَّكَمِ^(٩)

التقرب إلى الله بمدح المصطفى :

وبعد أن تخلص الشاعر من مقدمته التشبيبية ، خلص إلى مدح المصطفى ﷺ متقرباً إلى الله تعالى بذلك ، راجياً أن يغفر ذنوبه التي تفاقمت حتى أصبح يخشى عليه من عدم المغفرة ، مصرحاً بأنه مطمئن إلى عفو الله تعالى عنه عفوا يعصمه ويحفظه من الموبقات ، وأنه واثق من أن الله بكرمه ورحمته يقبل رجاءه في الوقت الذي لا يوجد فيه من يجير ، فهو وحده مفرج الكرب ، ومبدد الغم ، ومزيل الهموم .. في الدنيا والآخرة . ومن هنا يعلن شوقه أن طريقه الذي يراه موصلاً إلى تحقيق هذا الرجاء .. هو تقربه من رسول الله ﷺ ، فيقول : إنني حين أسأل المصطفى ﷺ أن يشفع لي ، إنما أسأله أمراً يسيراً عليه وإن بدا أمراً عسيراً ، وإذا كان المعتاد عند طلب المغفرة أن يقدم الإنسان عملاً صالحاً ، فإنني لا أملك في هذا الصدد إلا أن أقدم دموع الندم والتوبة ، وأن ألزم بابه ﷺ وأن ألتجئ إلى كرمه موقناً أن هذا هو خير سبيل لحصولي على رضا الله وعفوه ، ولا غرابة في ذلك ، فهو ﷺ مصدر كل فضل ومعروف

- (١) يريد بالنائم : الغافل .
(٢) الوصم - بالتحريك - : الألم والمرض .
(٣) الصاب - جمع الصابة - : شجر مر له عصارة يبيضاء كاللبن ، شديدة المראה ، إذا أصابت العين أثلثتها ، العلقم : كل شيء مر ، وشجر الحنظل ، السوم : الرعي .
(٤) راعه الشيء : أفزعته ، دها : يعني : دهاها : أصابها بدهاية ومعصية عظيمة ، اللمم - بكسر ففتح - جمع اللمة : شعر الرأس الجاوز الأذن ، وبياضه يعني : شبيه .
(٥) ركض الدابة : استحثها على العدو ، والمقصود هنا إطلاق النفس على هواها في طريق الغواية ، الرعي المريع : الذي تستطيع الدابة ، الحمية - بكسر الحاء - : الإقلال من الطعام ونحوه ، والتخم - جمع التخمة - : فساد المعدة بالطعام .
(٦) هام على وجهه : ذهب من غير تحديد مقصد ، داعي الصبا : اللهو والملاذات .
(٧) قوم النفس : هذبها .
(٨) المرتع : موضع الرتوخ ، وهو الأكل ، الوخم - بفتح فكسر - : الرديء .
(٩) الطفيان : مجاوزة الحد ، الشكم - بضمين - جمع الشكيمة : الحديدية المعروضة في لجام الفرس ، فإذا عضت عليها فقد راكمها السيطرة عليها ، ولم يعد يملك زمامها .

وإحسان ، ولقد نلت بمدحه ما أعز به يوم القيامة ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ، ففقت بمدحى إياه مدح زهير حين مدح هرم بن سنان ، ونلت منه ما لم ينله زهير من هرم وذلك قوله :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل
ألقى رجائى - إذا عز المجير - على
إذا خففت جناح الدل أسأله
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة
لزمت باب أمير الأنبياء ومن
فكل فضل وإحسان وعارفة
علقت من مدحه حبلا أعزبه
يُزرى قريضى زهيراً حين أمدحه

فى الله يجعلنى فى خير معصم (١)
مفرج الكرب فى الدارين والغمم (٢)
عزالشفاعة لم أسأل سوى أحم (٣)
قدمت بين يديه عبرة الندم (٤)
يمسك بمفتاح باب الله يغتصم (٥)
ما بين مستلم منه ومتلزم (٦)
فى يوم لا عز بالأنساب واللحم (٧)
ولا يقاس إلى جودى لدى هرم (٨)

المدح بذكر بعض الصفات :

ومن هنا أخذ شوق يذكر بعض صفات محمد ﷺ الذاتية التى أصبحت - بشباتها واستمرارها - شمائل وطبائع تلازمه ، فهو ﷺ صفوة البارى الذى خلق الخلق واختاره من بينهم متفردا ، وهو ﷺ رحمة الله المهداة إلى خلقه ليحفظهم به من كل شر وسوء ، وهو ﷺ إرادة الله من الإنسان ، وهو ﷺ المنعم عليه من ربه بالحوض الذى يتشوف إلى وروده يوم القيامة جميع المرسلين وأممهم ؛ لينهلوا منه فى ذلك اليوم ما ينقع ظمأهم . وهو ﷺ الرفيع الشأن ، المشرق النور كأنه الشمس الساطعة بين سائر الأفلاك والكواكب ، حتى لقد نال آباؤه السيادة والشرف بانتمائهم إليه - على خلاف ما تعود الناس من اعتزاز الآباء بآبائهم - ولا غرابة فى ذلك إذا عرفنا أنه قبل أن يولد كان فى جهات آبائه نورا مشرقا ، وذلك قوله :

(١) جل : عظم ، المعصم - بفتح الصاد - : موضع الاعتصام ، أو هو الاعتصام نفسه ، وعصمة الله العبد : حفظه مما يورقه ويهلكه .

(٢) عز المجير : قل من يجير فلا يكاد يوجد ، فرج الله الغم : كشفه ، الكرب : الحزن والغم ، الغمم - بالتحريك - جمع الغمة : الهم والحزن ، يقصد الشاعر بذلك يوم القيامة .

(٣) خففت جناح الدل : كناية عن شدة التواضع والانكسار ، الأحم - بالتحريك - : اليسير القريب التناول .

(٤) العبوة - بفتح فسكون : الدموع .

(٥) أمير الأنبياء : محمد ﷺ ، ولزوم بابه : كناية عن الالتجاء إلى كرمه ، وعدم الانحراف عن التوسل به فى قضاء الحاجات .

(٦) العارفة : المعروف ، استلم الزرع : خرج سنبله ، يعنى أن الفضل والإحسان والمعروف نابع منه ﷺ ، والمتلزم - بفتح الزاى - : موجب ومقتضى منه .

(٧) علق الرجل - بفتح فكسر - الحبل وبالحبل : استمسك به ، يعز الإنسان بالله - بفتح العين - : يقوى ويبرأ من الدن ، اللحم - بضمين - جمع اللحمة : القرابة .

(٨) يزرى : يعيب ، القريض : الشعر ، وزهير هو : ابن أبى سلمى ، أحد شعراء الجاهلية الفحول ، وهرم - بفتح فكسر - هو ابن سنان بن أبى حارثة ، شارك فى إنهاء حرب داحس والغبراء ، فمدحه زهير ، فأجزل له هرم العطاء .

محمد صفوة الباري ورحمته
وصاحب الخوض يوم الرسل سائلة
سنائه وسناه الشمس طالعة
قد أخطأ النجم ما نالت أبوءه
ثموا إليه ، فزادوا في الورى شرفا
حواء في سُبُحات الطهر قبلهم

وبُغية الله من خلق ومن نسَم (١)
متى الورود ، وجبريل الأمين ظمى (٢)
فالجُرم في فلك ، والضوء في علم (٣)
من سؤدد باذخ في مظهر سنم (٤)
ورب أصل لفرع في الفخار لمى (٥)
نوران قاما مقام الضلب والرحم (٦)

المدح بذكر بعض الأحداث التاريخية ،

وكما قصر شوق ما ذكره من سجايا وطبائع على ما وصف به القرآن الكريم محمدا ﷺ ،
وما اشتهر به بين قومه مشركيهم ومسلميهم ، ذكر في هذا السياق بعض ما أثر من أحداث
ومواقف صادفها في حياته ﷺ قبل بعثته ، تنبىء بما له من خصوصية تميزه بين خلق الله جميعا ،
مثال ذلك ما كان من (بحيرا) الراهب حين رآه وهو صبي في تجارة عمه أى طالب ، حيث
تعرف عليه بما كان يصاحبه من أمارات تعلن عنه من قرأ كتب الديانات السابقة ، وما كان منه
في حياته الخاصة به رائحا وغاديا في وادى مكة مع الإصباح والإمساء ، وما كان منه حين اعتزل
أترابه وعشيرته بما نشأوا عليه من عادات وتقاليد ومعتقدات ، مؤثرا الوحدة في غار حراء ،
حتى يتجنب مساوئ القوم ، وحتى يتزود بالتأمل من كل خير ، ممهدا بذلك - من غير أن
يدرى - لاستقبال رسول الوحي ، فقال معبرا عن ذلك :

لما رآه بحيرا ، قال : نعرفه
سائل حراء وروح القدس هل علما
كم جيئة وذهاب شرفت بهما

بما حفظنا من الأسماء والسيِّم (٧)
مصون سر عن الإدراك منكهم (٨)
بطحاء مكة في الإصباح والنَّسَم (٩)

- (١) النسم - بالتحريك - جمع نسمة : النفس أو الإنسان .
- (٢) الخوض : مجتمع الماء ، والمقصود هنا حوضه ﷺ يوم القيامة ، والمقصود بظما جبريل - لأن الملاكمة لا نظما - هو تشوفه
لورود الناس حوضه ﷺ إشفاقاً عليهم بما يرهقهم في ذلك اليوم من حرج وهلع .
- (٣) السناء : الرفعة ، والسناء : الضوء ، الجرم : الجسد ، الفلك : الفضاء يدور فيه النجم أو الكواكب ، والعلم
- بالتحريك - يقصد به هنا العالم .
- (٤) السؤدد - بفتح الدال - : السيادة والشرف ، الباذخ : العالى ، السنم - بفتح فسكون - المرتفع .
- (٥) غنى فلان إلى فلان - بضم النون - : نسب ، الورى : الخلق .
- (٦) السباحات : بضمعين - جمع السبحة : مواضع السجود ، الضلب - بضم فسكون - : فغار الطهر .
- (٧) السيم - بكسر ففتح - جمع السيمة : العلامة ، وبحيرا - بفتح فسكون - راهب نصراني .
- (٨) حراء : جبل بمكة فيه الغار الذى كان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل الرسالة ، روح القدس : جبريل عليه السلام ، من إضافة
الصفة للموصوف ، أى الروح القدس .
- (٩) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، والنسم - بالتحريك - : ظلمة الليل .

ووحشة لابن عبدالله بينهما أشهى من الأُنس بالأحباب والْحَشَم^(١)
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه ومن يشترّ بسمي الحير يتسم^(٢)
ومن هنا انطلق يحدثنا عن بعض معجزاته ﷺ ، مقتصرًا من ذلك على ما شاع في
الألسن ، وتناقلته كثرة من الرواة تكاد تبلغ به درجة التواتر ، كنبع الماء العذب من أصابعه
ﷺ ، حين ضج أصحابه من شدة العطش ، وكمصاحبة الغمامة إياه في حله وترحاله ، تظلمه
وتقيه حرارة الشمس ، وكتلك الحبة التي أفعمت بها قلوب كثير من الرهبان نحوه ﷺ ، فكان
ذلك دليلاً على ما ضم من شمائل ، فقال :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمًا فاضت يده من التسيم بالسسم^(٣)
وظلمته - فصارت تستظل به - غمامة ، جذبتها خيرة الديم^(٤)
محببة لرسول الله أشربها قعائد الدير ، والرهبان في القمم^(٥)
إن الشمائل إن رفّت يكاد بها يُغرى الجماد ، ويُغرى كل ذى نسم^(٦)

وهكذا ... خلس للحديث عن بعثته ﷺ ، حيث نزل عليه جبريل عليه السلام داعياً إياه
بأمر الله أن يقرأ ، فكان ذلك إيذاناً بعهد جديد واجه أهل مكة ، حيث امتلأت أسماعهم
بالدعوة الصادرة منه ﷺ إلى الإيمان بالله الرحمن الرحيم وحده ، فأصيبوا بحيرة أذهلتهم ،
وأخذوا بمفاجأة لم تخطر لهم على بال ، حيث رأوا في تلك الدعوة الجديدة ، خروجاً على تقاليد
ورثوها عن آبائهم ، وأحسوا بأن ذلك يعنى أنهم وأسلافهم كانوا على خطأ ، مما يعنى تسفيه
أحلامهم ، والانتقاص من مقدساتهم ، فالتقوا على محاربتهم ، ونهضوا محاولين صرفه عن تلك
الدعوة بكل الوسائل ، غافلين - أو متغافلين - عما كان له في أنفسهم من مكانة مرموقة ، حتى
لقبوه منذ صباه بالأمين ، ذاهلين بما آل إليه أمرهم من تناقض ، حيث اضطرتهم جاهليتهم إلى أن
يتهموا بالكذب من لقبوه منذ صباه بالأمين .. فقال :

ونودى : اقرأ ، تعالى الله قائلها لم تتصل قبل من قِلت له بفهم

(١) الوحشة : الخلوة ، والخوف منها ، والمهم . ابن عبد الله : محمد ﷺ ، والواضح من سياق البيت أن المقصود هنا
بالوحشة : مطلق الخلوة ، والحشم : الخدم والخالصون بولاهم .

(٢) سامره : حادله ليلاً ، المهبط - بكسر الباء - : الهبوط .

(٣) التسيم : عين ماء بالجنة يثر بها المقربون . السسم - بالتحريك - : الذى ارتفع على وجه الأرض ، والمقصود به الماء
الذى فاضت به يده صلى الله عليه وسلم .

(٤) الديم - بكسر ففتح - : جمع الديمة : المطر الدائم .

(٥) أشرب قلب فلان حب فلان - بضم الهزعة وكسر الراء - : خلط به ، القعائد - جمع القعدة - : من يلازمون القعود ،
وقعائد الدير : ملازموه من متسكة النصارى ، القمم - جمع القمة - : أعلى الشيء ، والمراد هنا : أعالي الجبال .

(٦) الشمائل - جمع الشمال بكسر الشين - : الخلق ، رف البرق وغيره : تلاًل ، أغرى الإنسان بالشيء : حرضه عليه ، ذو
النسم - بالتحريك - : ذو النفس ، والمراد الكائن الحى .

هناك .. أذن للرحمن ، فامتلات
فلا تسل عن قریش کیف حیرتها
تساءلوا عن عظیم قد ألم بهم
یا جاهلین علی الهادی ودعوتہ
لقبتموه أمين القوم فی صغر
أسماع مکه من قدسیة النعم (١)
وکیف نُفّرتها فی السهل والعلم (٢)
رمى المشایخ والولدان باللّم (٣)
هل تجهلون مکان الصادق العلم (٤)؟
ومــــا الامین علی قول بمتهم

الدع باختصاصه بالعجزة القرآنية والبيانية .

وحديث شوق عما كان له فی نفوس من يتصل به منذ صغره ... يسوقه إلى ذکر شيء مما
يمتاز به عن غيره من عامة الناس وخاصتهم ، بل وما يمتاز به عما يحيطه من أبرز المظاهر الكونية ،
فشوق يراه ﷺ فی مظهره الجسمیة يفوق البدور نورا ، وفی أخلاقه يفوق من تقدمه فی الزمن
من الأنبياء ، ويقرر أنه فی رؤيته تلك لا ينطلق من تأثر عاطفی ، ولكنه الواقع الملموس فی الفرق
بین دورهم ورسائلهم وبین دوره هو ورسائله ، فقد اقتضت الحکمة الإلهیة أن يكون خاتم
الأنبياء والمرسلین ، فتكون رسالته عامة شاملة خالدة ، بینما انحصرت رسالات من سبقه فی قوم
بأعيانهم ، وفی زمن محدود ، وذلك قوله :

فاق البدور ، وفاق الأنبياء ، فكم
جاء النبیون بالآیات ، فانصرفت ،
بالخلق والخلق من حسن ومن عظیم
وجئتــــا بحکیم غیر منصرم (٥)

وكان حديث الشاعر عما جاء به محمد ﷺ منطلقا إلى الحديث بشيء من التفصيل عن
القرآن الكريم ، فأشار إلى إحدى مظاهر خلوده ، وإحدى مظاهر إعجازه ؛ فأیات القرآن
الكريم متجددة دائما ، فمهما امتد بها الزمان ، ومهما تغيرت الظروف والبيئات ، ينظر فيها
الإنسان فيجدها ملبية حاجاته كأنها أنزلت فی ذلك العصر بعينه ، وفی تلك البيئة نفسها ، كما إن
آياته الکريمة لا تقتصر فی عطائها على شيء واحد ، بل إن فيها لكل داء دواء ، ولكل محتاج
حاجته ؛ ففيها الفكر ، والتشريع ، والتوجيه ، والتهذيب ، والترية ، والتسلية ... إلى آخر ما
يحتاجه الإنسان من غير تقصير فی جانب الحساب جانب آخر ... وفی ذلك كان قوله :

-
- (١) أذن للرحمن : دعا إلى الله ، النعم – بالتحريك – جمع النعمة : حسن الصوت فی القراءة وغيرها ، وقدسية النعم : النعم
المنزه عن تطريب الغناء بتكثير الألفاظ واعصار الحناجر وإيقاع الأصوات .
(٢) لا تسل عن حيرة قریش یعنی : إن أمر قریش فی ذلك واضح غنى عن السؤال ، العلم – بالتحريك – : الجبل .
(٣) ألم به الأمر : نزل به ، رمى فلاناً بأمر قبيح : قذفه ولسبه إلى الفاحشة ، اللّم – بالتحريك – الجنون ، يريد : إن بعض
قریش أقبل علی بعض يتساءلون عن الأمر العظیم الذى نزل بهم ، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من سلطان ، يدعوهم إلى
غير ما ألفوه من معتقدات وعادات .
(٤) جهل فلان على غيره – بفتح فكسر – : جفا وتساهف ، والاستفهام فی البيت إنكارى .
(٥) انصرفت : انقطعت . الحكيم : القرآن .

آياته - كلما طال المدى - جُدد يزين جلال العشق والقـدم^(١)
يكاد في لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق ، والتقوى ، وبالرحم

ومن هنا تسنح المناسبة لتناول بيانه ﷺ ؛ إذ العلاقة بين بيانه وبين القرآن الكريم وطيدة ،
وأثر القرآن الكريم في منطقته واضح بين لا يمارى فيه عاقل محايد ؛ ولذلك لا عجب في أن يراه
شوق - كما رآه الكثيرون - أفصح من تكلم بالعربية ، حتى أصبح لحديثه مذاق الشهد عند كل
ذوق فنى متوازن ، وحتى أصبح كلامه حلى يتحلى بها جيد البيان - على الرغم من تميزه عن فنى
البيان المعروفين النثر والشعر - وحتى كان لقوله أثر الروح في القلوب والهمم ، فقال شوق :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم^(٢)
حليت - من عطل - جيد البيان به في كل منثر ، في حسن منتظم^(٣)
بكل قول كريم أنت قائله تحيى القلوب ، وتحى ميت الهمم

ملابسات مولد محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا يملك شوق - بعد هذا الحديث العام عن محمد ﷺ - إلا أن يرجع النظر في لحظة
مولده ، ومالابسها من بشائر لأهل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وما صاحب ذلك من
أحداث كانت في مجملها منبهات لأهل الأرض إلى أن حدثا مهما قد وقع ، ينبىء بأن تغييرات
مهمة توشك أن تكون ؛ فقد رأى شوق أن البشائر بالهادى وبمولوده قد سرت في الشرق
والغرب ، كما يسرى النور في الظلام ، وأن أثر تلك البشائر في الطاعين والباغين على اختلاف
أجناسهم وبيعاتهم كان أثرا عكسيا ؛ فقد تحطفت أمارات مولده ﷺ مهج الطغاة ، وأدركوا أن
سلطانهم يوشك أن يزول ، وأن دولتهم تنذر بالدمار ، حتى لقد ظهرت بعض تلك الآثار في
هيئة نذر تنبه ، حيث تصدع إيوان كسرى فزعا من أمارات الحق ١.

ورأى شوق ما كانت عليه الأرض حين ولد محمد ﷺ من فوضى ، وجهل سيطر على أبناء
آدم حتى تحولوا إلى أصنام تخضع لأصنام ، وحتى امتلأت الأرض ظلما وجورا واستبدادا
وطغيانا ؛ فأهل فارس يملكونهم ملك ظالم باغ ، وأهل الروم يستبد بهم قيصر المتكبر المتعجرف ،
وهذا وذاك يفرضان سلطانهما بالقهر والتعذيب لأقل شبة ، حتى يفزعا الناس ، ويخضعاهم
إلى سلطانهما ، فكان هذا سببا يقود الآخرين إلى الاقتداء بملوكهم ، فكل ذى سلطة يسير بين
من تحت سلطانه بالسيرة نفسها ؛ من فتك وتعذيب ، كما يصنع الوحوش الضواري بالكائنات
الضعيفة ... فكان قوله :

(١) المدى - بالتحريك - : المسافة ، جدد - بضمين - جمع الجديد : ضد البلى ، الجلال : العظمة ، عنى الشيء -
بالتحريك - : قدم .

(٢) الضاد : اللغة العربية ، جاء القوم قاطبة : جميعا ، بعضهم غتلط ببعض ، الشهد : بفتح فسكون - : العسل .

(٣) العطل - بالتحريك - : خلو عنى المرأة من الحل . المنثر : النثر ، المنتظم : النظم .

في الشرق والغرب ، مسرى النور في الظلم
وطيرت أنفُسَ الباغين من عجم^(١) ،
من صدمة الحق ، لا من صدمة القدم^(٢)
إلا على صنم قد هام في صنم
لكل طاغية في الخلق محتكم
وقيصر الروم من كبر أصم عم
ويذبحان ، كما ضحيت بالغنم
كاللث بالبهيم ، أو كالحوت بالبحم^(٣)

سرت بشائر بالهادى ، ومولده
تخطفت مهج الطاغين من عرب
ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت
أنيت والناس فوضى ، لا تمر بهم
والأرض مملوءة جُوراً ، مسخرة
مسيطر الفرس ييغى في رعيته
يعبدان عباد الله في شبه
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم

معجزة الإسراء والمعراج .

والحديث عما لابس مولده ﷺ من أمارات وعلامات ، يدفع الشاعر إلى أن يتحدث عن
معجزة الإسراء والمعراج في واقعها وآثارها ، مبتعدا عما أثاره بعض المتشككين والماديين من
تساؤلات حول كيفية ذلك ، غافلين عن حقيقتها ومقاصدها ، فقال : دبر الله أمر السير بك
ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لتلقى هناك تلك الوفود الحاشدة القائمة لاستقبالك
من ملائكة الله تعالى وأنبيائه السابقين ، تكريما لك ، وتنجبرا لما أصابك به قومك في موقفك
الآخر ، وتصبيرا لك ، وطمأنة إلى أنك في رعاية العزيز الحكيم ، وعند وصولك إلى المسجد
الأقصى نهض هذا الحشد الكريم لاستقبالك ، فالتفوا حولك ترحيبا وتكريما ، كما تلتف الشهب
بالدر ، أو كما يحيط الجند بالعلم ، ثم أقيمت هناك صلاة ، كنت فيها الإمام ، ومن خلفك
اصطف هؤلاء جميعا ، حرصا منهم على أن يفوزوا بالانتماء بك والصلاة خلفك ، تمهيدا لرحلة
أخرى أشق من تلك - وإن كانت تكملة لها - ارتقى فيها بك إلى السماوات وما فوقهن مما
لا يعلم بأمره إلا خالقه ؛ فمررت في معراجك هذا بطائفة من أنبياء الله مما أثار شكوك كثير من
الملحدين والماديين غافلين عما تعنيه مشيئة الله وقدرته ، فلو أوتى هؤلاء شيئا من التعقل والروية
لتبينوا إلى أن قدرة الله فوق الشكوك والشبهات .. ولقد ظللت يا رسول الله في مرقاك
ومعراجك حتى بلغت في السمو والارتفاع مكانا لا يصله مخلوق مهما أوتى من أسباب الارتفاع
والارتفاع ... فلم يصل إليه قبلك أحد من الأنبياء ؛ إذ لكل نبي رتبته التي تقف به عند حد من
التقدم ، فلا يستطيع أن يتجاوزه ، أما أنت يا محمد فقد مكنت من تجاوز كل تلك الموانع حتى
أصبحت أمام العرش ، حيث أذن لك باستلامه ، ومكنت من الاطلاع على ما حواه اللوح

(١) المهج - جمع المهجة - : دم القلب .

(٢) ريعت : خافت وذعرت . الشرف - بضم ففتح - جمع الشرفة : ما يوضع في أعلا البناء يزين به ، والإيوان : مجلس كبير
على هيئة صفة واسعة لها سقف محمول من الأمام يجلس فيه السلطان ، انصدع : انشق ، القدم - بضم تين - جمع القدم :
آلة للنجر والنحت .

(٣) البهم - بالتحريك - جمع البهية بفتح فسكون : الصغير من الضأن ، والبلم - بالتحريك - : صغار السمك .

المحفوظ من خير يرقى بأمته في دينها ودنياها ، وأتيح لك أن تلم بكثير من العلوم والحكم التي انكشفت لك خزائنها ؛ فكان ما قلده بتلك المنن والنعم دليلاً بينا على مدى قربك من الله ربك ورب العالمين ، فكان قول شوق المعبر عن ذلك :

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكته	والرسل في المسجد الأقصى على قدم ^(١)
لما خطرت به التفوا بسيدهم	كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم ^(٢)
صلى وراءك منهم كل ذي خطر	ومن يفرز بحبيب الله يأتم ^(٣)
جُبت السماوات ، أو ما فوقهن بهم	على منورة درية اللجم ^(٤)
ركوبة لك من عز ومن شرف	لا في الجياد ، ولا في الأنيق الرسم ^(٥)
مشيئة الخالق الباري وصنعه	وقبلة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها	على جناح ، ولا يسمعى على قدم
وقيل : كل نبى عند رتبته	ويا محمد هذا العرش فاستلم
خططت للدين والدنيا علومهما	يا قارئ اللوح ، بل يا لأمس القلم ^(٦)
أحطت بينهما بالسر وانكشفت	لك الخزان من علم ومن حكيم ^(٧)
وضاعف القرب ما قلدت من منن	بلا عداد ، وما طوقت من نعم ^(٨)

حادثة العجزة وما لبسها من معجزات ،

ومن الحديث عن حادثة الإسراء والمعراج ، واصل شوق حديثه ، فاستعرض حادثة أخرى تقابل الإسراء والمعراج في دلالتها وما قامت عليه من معجزات لا يستها ، تلك هي حادثة الهجرة ، حيث قام الغار بدور شبيه في أثره بالدور الذى قام به البراق ... فوجه الشاعر المتلقين إلى أن يسألوا ، سؤال تهكم واستنكار وسخرية عصبية الشرك المضطربين حول الغار يبحثون عن

(١) على قدم : قائمون محشدون .

(٢) خطر في مثيه : اهتز وتبخر .

(٣) ذو الخطر : ذو القدرة والمنزلة ، يأتم : يأتم .

(٤) جبت السماوات : قطعها سيراً ، كناية عن تمكنه منها ، بهم : أى ماراً بهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، والمراد بقوله (منورة دوية اللجم) : البراق ، إشارة إلى سرعته الحافظة بما تحمله من لمعان كأنه حركة الدر .

(٥) الركوبة - بفتح الراء - : الدابة المخصصة للركوب ، ومن هنا : تفيد التعليل ، أى من أجل عزمك وشرفك ، والأنيق : الرسم : الشديدة الوطء للقوتها ، والرسم - جمع الرسوم بفتح الراء - : الذى يبقى على السير يوماً وليلة ، والذى يؤثر في الأرض من شدة وطئه ، والجياد - جمع الجواد - الفرس الرائع البين الجودة .

(٦) خططت علوم الدين والدنيا : كناية عن تصديده صلى الله عليه وسلم لتعليمها الناس . وقراءة اللوح وملامسة القلم : كناية عما أطلع الله عليه من الغيب المسطور في اللوح المحفوظ . .

(٧) إشارة إلى ما رواه ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم : «عجبني رنى ليلة الإسراء علوماً شتى ، علم أخذ على كتابه ، وعلم خيرى فيه ، وعلم أمرى بتبليغه» .

(٨) قلده القلادة : جعلها في عنقه ، المنن - جمع المنة - : الإحسان والنعمة ، يقول : إن قربك من الله ضاعف ما قلده من منن ونعم .

المصطفى ﷺ : فإذا لم يبصروا أثره ﷺ على الرغم من أنه أثر مشرق يشع النور ؛ ولماذا لم يسمعوها همس التسابيح والقرآن الصادرة منه ﷺ : على الرغم من اقترابهم من مصدرها ؟ ولماذا بدأ نسج العنكبوت في أعينهم غابا لا يشف عما خلفه ؟ ولماذا رأوا الحمام الرقيق في هيئة الطيور الكواسر الضخام ؟! لو أنهم أمعنوا النظر والفكر فيما أصابهم عند الغار لعرفوا مدى تجنيهم وخطئ تفكيرهم ، ولكنهم أصرروا على عنادهم وجهلهم ، فلم تتكشف لهم الحقيقة ، وسول لهم طغيانهم وجبروتهم أنهم لا شك متمكنون من محمد ، ولكنهم ما دروا أن الله جنودا تؤدي دورها من غير أن يتنبه إلى وجودها أحد .. ولم يكن لهم مفر من العودة خائبين ، عودة أشبه بالإدبار محملين باللعنات التي أخذت تلاحقهم في كل مكان ، وتواجههم من كل موقع . وهكذا .. وضح لكل ذى بصيرة أنه ما حفظ محمدا وصاحبه من هذه الطغمة الباغية إلا القوة العليا ، وأن دين الله لم يتحقق له النصر إلا لأن عين الله ترعاه وترعى من يدعو إليه ، وكيف يتصور عاقل أن يصل أذى هؤلاء الجبارين لأحد ممن يحتفى بجناح الله ؟ . وفي هذا يقول شوقي :

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة	لولا مطاردة المختار لم تُسم (١)
هل أبصروا الأثر الوضاء ، أم سمعوا	همس التبايح والقرآن من أمم ؟ (٢)
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم	كالغاب ، والحائمات الزغب كالرخم (٣)
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم	كباطل - من جلال الحق - منهزم (٤)
لولا يد الله بالجارين ما سلما ،	وعينه حول ركن الدين لم يقم (٥)
تواريا بجناح الله واسترا	ومن يضئ جناح الله لا يضم

من مظاهر عقته صلى الله عليه وسلم :

عندئذ تهباً الشاعر للوقوف أمام محمد ﷺ ، كى يقدم بعض الخطوط التي تبدو من خلالها صورته ﷺ ، من غير حاجة إلى تزييف المادحين وتصنعهم ، فواحد ترعاه العناية الإلهية تلك الرعاية ، وتنصره هذا النصر ، ليس في حاجة إلى إضافة المادحين ، لغنائيه بسجاياه وطبائعه . وقد مهد الشاعر لتقديم هذه الخطوط المصورة بوقفة توسلية ، يبنى فيها نفسه بما يتوقعه من

(١) العصبة : الجماعة ، يقصد جماعة المشركين الذين ذهبوا يطالبونه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة ، السائمة : الراعية .
(٢) الأمم : القرب .

(٣) الغاب - جمع الغابة - : الشجر الكثير المتكاثف : والحائمات - جمع الحائمة - : الطائر الذي يحوم حول الشيء ويدور ، الزغب - بضم فسكون - جمع الأزغب والزغباء : الطائر الذي لبت زغبه ، وهو الريش والشعر ، والرخم - بالتحريك - جمع الرخمة : طائر على شكل النسر إلا أنه منقط بالسواد والبياض .

(٤) الجلال - بفتح الجيم - : العظمة .

(٥) الجاران : رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ، يد الله : قوته وتأيدته ونعمته . وعين الله : عنايته .

جراء معايشته محمدا ﷺ في هذه الجولة الفنية الصادقة ، مقتديا في ذلك بصاحب البردة ، من غير قصد إلى منافسته ولا ملاحظته ، ولكن قصاره من ذلك السعى إلى أن ينال بعض ما نال البوصيري من بركات ، فكما كان دافع البوصيري فيمدحته الحب الخالص لرسول الله ﷺ ، كان دافع شوقي في مدحته - كذلك - الحب الخالص له ﷺ ؛ ثقة منه بأن هذا الدافع يمل على الشاعر التعبير الصادق الخالص من الزيف والتصنع ، فقال :

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي — وكيف لا يتسامى بالرسول سمي (١)
المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مدحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحي يمل صادق الكلم (٢)
الله يشهد أني لا أعارضة من ذا يعارض صوب العارض العرم (٣)
وإنما أنا بعض الغابطين ، ومن يغبط وليك لا يؤذم ولا يَلَم (٤)

ومن هنا ينطلق الشاعر - على وجل - مع بعض صفات المصطفى ﷺ وسجاياه وأفعاله ، ليرينا منها ما يسهم في إبراز صورته ﷺ .

يبدأ شوقي جولته تلك مقرا تهيئه اقتحام هذا المقام احتراما وتوقيرا ، وليس لقصور في بيانه وشاعريته ؛ فلو تعرض لمثل هذا الموقف سبحانه المعروف بالفصاحة لأصابه الخرس ، ولما استطاع أن يبين .

وشوقي بهذا التقرير يعتذر عما قد يصادفه من تقصير بأنه أمام من اصطفاه الرحمن واختاره للقيام بتبليغ رسالته إلى الناس ، فالبدر بإشراقه وسموه لا يدانيه ، والبحر في عطائه وخيره لا يجاريه ، والجبال الشاهقة تبدو أزاءه منخفضة ، والأنجم الزهر إلى جواره تبدو باهتة ، فإذا مشى المصطفى إلى الحرب رأينا الشدة والبأس الذي يتضاءل إلى جواره بأس الليوث ، والذي يجعل الأبطال الكماة يهفون إليه سراعا . مهما ناهم من عناء في متابعته ... ولا عجب في ذلك فتلك المحبة والهبة من النعم التي ألقاها الله عليه ﷺ ، حتى لكأن وجهه ﷺ تحت غبار الحرب - في إشراقه - بدر الدجى الذي يضيء في كل الأحوال ، فكان في غزوة بدر بدرا جلا بالنصر ظلام الشرك .

(١) أحمد : من أسمائه ﷺ ، يتسامى : يتعالى ، وشوقي في تيمنه بموافقة اسمه لاسم رسول الله ﷺ ، يفعل ما فعله من قبله البارودي الذي وافق اسمه محمود أحد أسماء المصطفى ﷺ ، فقال : أم كيف يهذلي من بعد تسميتي : باسم له في السماء العرش محرم والبارودي وشوقي سبقهما البوصيري إلى ذلك في برده حيث يقول : فإن لي ذمة منه بتسميتي محمداً ، وهو أوفى الخلق بالذم .

(٢) مدحه حب : ناشئ من الحب .

(٣) المعارضة في الشعر : المحاذاة في الوزن والقافية والموضوع ، الصوب : المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي . العارض : ما اعتراض في الأفق فسد من سحب أو جراد أو نحو ذلك ، والمراد هنا السحاب ، والعرم - بفتح كسر - : السيل الذي لا يطاق .

(٤) الغابط : الذي يتمنى مثل ما للغير .

حتى ما يظنه الناس أمانة ضعف أو نقص ، كان فيك عنوان تكريم وتعظيم ؛ فإذا وصفك القرآن باليتم ، فليس ذلك إلا للتنبيه إلى ما تمتاز به من بين سائر الكائنات ، وإذا قدر الله عليك رزقك ، فليس ذلك إلا لأنك خيرت فاخترت الآخرة على الدنيا وزهرتها وما فيها ، ولم يكن هذا الاختيار منك عن عجلة في الأمر ، أو سوء اختيار ؛ لأن اختيارك - أيا كان - هو اختيار الله . وليس في هذا وحده تميزك يا رسول الله ، فقد تميزت كذلك بين إخوانك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فكانت لك فيما جرى على يديك خصوصية إذا ما قورن بمثيله مما جرى على أيدي الأنبياء السابقين ، فإذا كان عيسى عليه السلام دعا ميتا فقام بإذن الله حيا ، فقد دعوت أنت أجيالا بعد أجيال قضى عليها الجهل فانبعثت بعون الله تعالى قوية واعية بعد أن تخلصت مما ران عليها من جهل .. وذلك قوله :

<p>(١) ترمى مهاتبه سحبان بالكم والبحر دونك في خير وفي كرم والأنجم الزهر ما واسمتها تسم إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي في الحرب - أفعدة الأبطال واليهم على ابن آمنة ، في كل مصطدم يضيء ملثما أو غير ملثم كفرة النصر ، تجلو داجي الظلم وقيمة اللؤلؤ المكنون في الثم وأنت خيرت في الأرزاق والقسم فخيرة الله في (لا) منك أو (نعم) وأنت أحييت أجيالا من الرمم فابعث من الجهل ، أو فابعث من الرجم</p>	<p>هذا مقام من الرحمن مقتبس البدر دونك في حسن وفي شرف شم الجبال إذا طاولتها انخفضت والليث دونك بأسا عند وثبته تهفو إليك - وإن أدميت جبتها حبة الله ألقاها ، وهيئه كأن وجهك تحت النقع بدر دجي بدر تطلع في بدر ، فغرت - ذكرت باليم - في القرآن - تكرمة الله قسم بين الناس رزقهم إن قلت - في الأمر - لا ، أو قلت فيه : نعم أخوك عيسى دعا ميتا ، فقام له والجهل موت ، فإن أوتيت معجزة</p>
---	---

(١) سحبان - يفتح فسكون - هو سحبان وائل من بني باهلة ، كان يضرب بفصاحته الخلل . والكم - بالتحريك - :

الفرس .

(٢) واسمه في الحسن فوسمه : غلبه فيه .

(٣) الليث : الأسد ، والكمي : لابس السلاح .

(٤) هفا إليه : أسرع نحوه ، والمراد هنا : شدة ميل القلوب له ، حبات القلوب : سويداؤها ، الأفدة - جمع الفؤاد - : العقل أو القلب .

(٥) المصطدم : الاصطدام .

(٦) النقع : غبار الحرب الملتصق : الذي يوضع على وجهه اللثام ، وهو النقاب .

(٧) بدر الثانية : موضع دارت فيه الغزوة المشهورة ، داجي الظلم : شديد الظلام .

(٨) الرمم - جمع الرمة - : العظام البالية .

(٩) الرجم - بالتحريك - : القبر .

محمد صلى الله عليه وسلم داعي السلام ورائد الحضارة .

والحديث عن مواجهته ﷺ موت الناس بالجهل ، ليعث فيهم حياة العزة والكرامة من جديد .. يفرض على الشاعر الحديث عن الحرب التي ووجه بها محمد ﷺ من القريب والبعيد ، سعياً إلى إجهاض الدعوة ، وإيقاف مدها المستمر ، واضطراره ﷺ إلى الحرب إقراراً للسلام الذي جاء به ومن أجله .. ولكن خصوم الحق حاولوا أن يشوهوا الصورة الناضرة ، فأذاعوا أن محمداً ﷺ نهج غير نهج الأنبياء السابقين ؛ فقد جاء غازياً محارباً ، بينما رسل الله السابقون إنما بعثوا لإحياء النفوس ، وليس للقتل وسفك الدماء ، والحقيقة أنهم ما أذاعوا مثل هذا إلا عن جهل من بعضهم بحقيقتك يا رسول الله ، وقصد من بعض آخر إلى تضليل الناس وفتنتهم ، ومحاولة من طائفة ثالثة أن يزيفوا الحقائق بما أوتوه من قدرة في الجدل القائم على غير أساس ، لأن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم وأنصفوا الحقيقة لتهبوا إلى أنك قد توسلت بالقلم والرأى قبل أن تتوسل في دعوتك بالسيف وتوابعه ، فلم تستعمل السيف إلا مع الحمقى والجهال الذين أرادوا أن يقفوا في وجه المقبلين على الإسلام ، والاستجابة لك ؛ لأن الشر إذا قبل بالخير ازداد طمع الأشرار ، وتفاقم سوءهم كما تقرر ذلك المسيحية التي التزم فيها بالسماحة ، فأذيق أهلها المر ، وعملوا بالقسوة والظلم الثائر ، وظل أهل الشرك يطاردون أهلها بالإيذاء ، ويوسعونهم قتالاً وعدواناً ، وما ردهم عن غيهم هذا إلا طائفة قاموا لحمايتها ، ونصرة إخوانهم فاضطروا - كما اضطرت - إلى أن يشهروا سيوفهم في وجه المعتدين الظالمين ، ولولا ذلك منهم لما استطاعت أن تنشر ما عرفت به من رفق ورحمة ، بل لقد تعرض عيسى عليه السلام ، نفسه لأقسى ألوان الكيد والظلم ، حتى دبروا خطة لقتله عليه السلام لولا عناية الله به وحفظه إياه ، الذي قلب عليهم تدبيرهم ، فصلبوا عذو عيسى وهم يظنون أنه عيسى ؛ إذ وجدوا فيه شبيه عيسى ، ليكون ذلك من الله تعالى عقاباً لهذا الخائن ماثلاً شاخصاً ينبه كل من تسول له نفسه أن يخون رسل الله وجنده ، بينما عيسى عليه السلام أخو محمد ﷺ في الرسالة فوق السماء الدنيا محفوظاً من أذى الجاهل ، يلقي كل تكريم واحترام .

لقد جئت يا محمد معلماً ، فنال الناس على يديك من العلم ما نهض بهم في كل ميادين الحياة ، حتى نظم الحرب والقتال ، وما يجب أن يسود المتقاتلين من أخلاق وقيم ، دعوت المسلمين لجهاد يردون به عن أنفسهم الظلم والظيم ، وينالون به السؤدد والريادة ، كما يقرر بذلك واقع الحياة ، فلولا الحروب لما استقرت الدول والممالك ، ولعاث المفسدون في الأرض فساداً ، على ما تصرح به تلك الأدلة والشواهد الماثلة والمتواليّة في كل مكان وفي كل زمان ، حتى يسود العدل ، وينتشر العلم ، فالجرب ليست مذمومة لذاتها ، ولكن الذم ينشأ من سوء مقاصدها ، والدوافع إليها ، بخلاف ما إذا كان الدافع إليها قهر الشر ، واستئصال الجهل ، وفي ذلك قال شوقي :

قالوا غزوت ، ورسل الله ما بعثوا
 جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة ؛
 لما أتى لك عقواً كل ذى حسب
 والشر إن تلقه بالخير ضقت به
 سل المسيحية الفراء كم شربت
 طريدة الشرك ، يؤذيها ويوسعها
 لولا حماة لها هبوا لنصرتها
 لولا مكان عيسى عند مرسله
 لَسُمِرَ البدن الطهر الشريف على
 جل المسيح ، وذاق الصليب شائئه
 أخو النبى ، وروح الله فى نزل
 علمهم كل ذى شئ يجهلون به
 دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم
 لولاه لم تر للدولات فى زمن

لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
 فتحت بالسيف ، بعد الفتح بالقلم^(١)
 تكفل السيف بالجهال والعمم^(٢)
 ذرعا ، وإن تلقه بالشر يحسم^(٣)
 بالصاب من شهوات الظالم الغليم^(٤)
 فى كل حين قتالا ساطع الخدم^(٥)
 بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُحم^(٦)
 وحرمة وجبت للروح فى القدم^(٧)
 لوحين لم يخش مؤذيه ولم يحجم^(٨)
 إن العقاب بقدر الذنب والجُرم^(٩)
 فوق السماء ، ودون العرش محترم
 حتى القتال ، وما فيه من الدم^(١٠)
 والحرب أس نظام الكون والأُمم^(١١)
 ما طال من عمد ، أو قر من دُعم^(١٢)

- (١) الأحلام - جمع الحلم بكسر الحاء - : العقل ، السفسطة : قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته .
- (٢) جاء عقواً : بغير مسألة أو طلب . الحسب - بالتحريك - : ما يعده المرء من مناقبه أو شرف آباءه . العمم - بالتحريك - : اسم جمع للعامه .
- (٣) يحسم : يقطع .
- (٤) الصاب : شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرامة إذا أصابت العين أتلفتها . الغليم - بفتح فكسر - الشديد الغائر .
- (٥) الساطع : المتشتر والمرفع ، الخدم - بالتحريك - : شدة احتراق النار .
- (٦) الرحم - بضمين - : الرقة والمغفرة والتعطف .
- (٧) المكان : المكانة والمنزلة ، الحرمة - بضم فسكون - : المهابة ، وما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق أو صحة أو نحو ذلك . وجبت : ثبت له من القدم .
- (٨) سمر : جواب الشرط المتقدم فى البيت السابق والمراد : ثبت المسمار . الطهر : الطاهر ، اللوحان : الصليب الذى أعد له عليه السلام ، والمراد بالتسمير : الصلب ، لم يحجم : لم يفرع .
- (٩) جل المسيح : تزه عما رماه به اليهود من الأكاذيب ، وعما زعموه من أنهم صلبوه ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ الشائء : المبهض ، الجرم - بضمين - : الجرم فسكون الرائ ، وحرمت الرائ اتباعاً لحركة الجيم قبلها .
- (١٠) الدم - جمع الدمة - : العهد والأمان والحق .
- (١١) السؤدد - بضم فسكون فضم - : السيادة والجد والشرف ، الأس : الأساس .
- (١٢) الدولات - بفتح فسكون - جمع الدولة ، العمد - بضمين - جمع العمود : القوام ، قر الشئ : ثبت ، الدعم - بضمين - جمع الدعاء والدعامة : ما يسند به الشئ ، وعماد البيت ، وهى هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك ، ويرتفع به شأنها .

تلك الشواهد تترى كل آونة .. في الأعصر الغر ، لا في الأعصر الدهم^(١) .
 وحرصا من شوق على دحض هذا الزعم الذى يروج له في العصر الحديث خصوم
 الإسلام ، استثارة لغضب العامة من الناس ، وإظهارا للإسلام ولرسوله محمد ﷺ بالميل إلى
 سفك الدماء ، تقريراً منهم بأن الإسلام لا يقوم على الفطرة البشرية بدليل أنه لا ينتشر إلا
 بالحرب والرعب والتخويف ، ولولا ذلك ما انتشر ولا اعتنقه أحد .
 حرصا من شوق على دحض هذه الفرية .. واصل حديثه عن أهمية الحروب ، والحاجة إليها
 في بعض الأحيان ، وقدم البرهان على ذلك من واقع الحياة — عموما — ومن واقع من اعتنقوا
 المسيحية دينا ، وشايعوا عيسى ، ودفعه هذا إلى أن يعقد مقارنة بين الحرب عند من يشايعون
 عيسى ومن يعتنقون الإسلام ، مشيرا إلى ما أعدده المسيحيون اليوم من أسباب الدمار والفتك
 والإهلاك ، وما يشعلونه من حروب بقصد السيطرة والاستغلال ، حتى أصبحت الحرب
 والاستعداد لها شغلهم الشاغل ، فاستنزفوا كل الطاقات البارزة والكامنة لصنع آلات الحرب ،
 واختراع المزيد المهلك منها .. في حين نرى أن أهل الإسلام المتهمين بالظلم وحب الحرب
 والقتال هم أهل السكينة والسلام ، حتى تكرر عدوان المسيحيين عليهم وعلى أرضهم ، دون
 جريرة أو ذنب .

ثم يعود شوق إلى الحديث عن منهج رسول الله ﷺ في الحرب ، فيقول له : إنك لم تقصر
 في أى حال ، ولم يرهبك أمر ، فكلما ناجزك قوم الحرب ، نهضت لردعهم ومواجهتهم بأبطال
 من المسلمين كأنهم الأسود ، ومعك ومعهم عون الله تعالى بأسباب النصر ، ففى كل معركة
 كان يرفع لواءك وينضوى تحته من هؤلاء كل بطل مغوار ، باع نفسه لله ، راغب عن الحياة
 ليلقى الله مجاهدا ، وكله شوق لتحقيق النصر أو لنيل الشهادة ، حتى يبدو على جواده كالبرق
 الخاطف ، لا يهرب شيئا ، ولا يصده مانع ، حتى شغلوا عن متع الحياة ، وبدوا كالسيوف
 المثلومة من كثرة ما خاضوا الحروب ، وحتى ملأت الأرض أجساد الشهداء منهم الذين حافظوا
 على ما عاهدوا الله عليه .. فقال :

بالأمس مالت عروش ، واعتلت سرر لولا القذائف لم تثلهم ولم تصم^(٢)
 أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ولم يُعد سوى حالات منقصم^(٣)
 مهما دعيت إلى الهيجاء قمك لها ترمى بأسد ، ويرمى الله بالرجم^(٤)

(١) جاءت الشواهد تترى : متواترة ، والشواهد — جمع الشاهد — : الدليل ، الآلة — جمع الألوان — : الحين ، الأعصر —
 جمع العصر : الدهر ، والزمن ينسب إلى ملك أو حدث ، الغر — جمع الأغر — : ذو الفرة ، وهي بياض في الجبهة ،
 والمقصود : الأعصر التى ساد فيها العلم والعدل ، الدهم — بضمين — : الدهم يسكون الماء الحركة إتباعاً لحركة الدال :
 جمع الأدهم : المظلم لشروع الجهل والظلم .

(٢) اعلى : علا ، ثلم : السيف : شقق فصار غير ماض ، وثلم الجدار : حدث فيه شق . وصمه : عابه .

(٣) القاصمة : الكاسرة ، ومنقصم : منكسر .

(٤) الهيجاء : الحرب ، الرجم — بالتحريك — : النجوم التى يرمى بها .

على لوائك منهم كل منتقم
مسبح للقاء الله مضطرم
لو صادف الدهر يغى ثقله فرمى
بيض مفايل من فعل الحروب بهم
كم في التراب إذا فتشت عن رجل
من مات بالعهد ، أو من مات بالقسم (٥)

ومن الحديث عن الأسد الذين قاموا على لواء المصطفى ﷺ ، ملقين بأنفسهم في الأهوال والمهالك غير عابئين بما يصيبهم في سبيل الدفاع عن دين الله تعالى ، والحفاظ على ما عاهدوا الله عليه .. انتقل ليحدثنا عن هؤلاء الصفوة من صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله تعالى عنهم ، فذكر أن هؤلاء الرجال ما نالوا هذه الفضائل وتلك الدرجة إلا بما بذلوا من الجهد والتضحية في سبيل نصرة الحق ، ونشر دين الله ، ولولا ما قدموه لكانوا كغيرهم من الناس ؛ فبالمواهب والفعال يتفاوت الناس في القيم والأقدار ، ولقد استطعت يا رسول الله بما قدمت هؤلاء من شرائع وقيم أن تفجر فيهم من القوى ما استطاعوا به أن يحوزوا ذلك الفخار ، فقد كانت تلك الشريعة نورا اجتذب أفئدة هؤلاء الرجال ، ومنحهم الاستقامة والهدى ، فتمكنت بهم من تحضير بداة الصحراء ، واجتياز عقبات الجهل الذي طالما أناخ بأقطارها ، فجعل من أهلها مصلحين عاملين يثرون الإصلاح والنور في شتى مناحي الدنيا ، حتى أقاموا دولتهم العظمى على أنقاض ما كان سائدا من جهل وظلم وطغيان ، فقادوا الناس في طريق واضح إلى الفلاح ، وشيدوا على العدل ركنا قويا ، نالوا به سعادة الدنيا والآخرة ، وجمعوا الناس على كلمة التوحيد في ظلال رضوان الله تعالى . وذلك قوله :

لولا مواهب في بعض الأنعام لما
شريعة لك فجّرت العقول بها
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
غراء حامت عليها أنفس ونهـى

- (١) اللواء : العلم ، المعززة : الماضي في الأمر لا يثنى شيء .
(٢) الاضطرام : توقد النار وتأججها ، والسابح : الجواد .
(٣) يغى الشيء : يريده ، الرحال - جمع الرحل يفتح فسكون - كل شيء يعد للرحيل من متاع وغيره ، لم يرم : لم يتحول من رام مكانه يرم : برح وفارق .
(٤) المفايل - جمع المفاول - المتلوم ، على التشبيه بالسيف التي تلم وتتشقق من كثرة الضرب . الهندي : وصف للسيف التي تطيع في الهند ، الخدم - بضمين - جمع خدم - بفتح فكسر - : السيف الماضي ، والبيض : السيف . شبه بها الصحابة .
(٥) مات بالعهد : محافظة على ما عاهد الله عليه .
(٦) المواهب - جمع الموهبة - : العطاء بلا عوض .
(٧) الزاخر : المتلى ، المنتظم : الذي بلغت كثرته درجة جعلته كالبحر تضرب أمواجه بعضها بعضاً .
(٨) السنا : الضوء ، جوهر كل شيء : ما خلقت عليه جبلته ، الحل - بفتح فسكون - : ما يزين به ، الرشي : النقش .
(٩) حامت : عطف ومالت ، النهى - جمع النية - : العقل ، السلسل : العذب .

نور السبيل يساس العالمون بها
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
وعلمت أمة بالقفر نازلة
كم شيد المصلحون العالمون بها
للعلم والعدل والتقدم ما عزموا
سرعان ما فتحوا الدنيا للمتهم
ساروا عليها هداة الناس فهم بهم
لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم
نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا

تكفلت بشباب الدهر والهرم^(١)
حكم لها نافذ في الخلق مرتسم^(٢)
مشت ممالكه في نورها التمس^(٣)
رغى القيصر بعد الشاء والنعم^(٤)
في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم^(٥)
من الأمور ، وما شذوا من الخزم^(٦)
وأهملوا الناس من سلساها الشم^(٧)
إلى الفلاح طريق واضح العظم^(٨)
وحائط البغي إن تلمسه يهدم^(٩)
على عيم من الرضوان مقتسم^(١٠)

ويقوده الحديث عن جهاد الصحابة بعد أن حولهم الإسلام إلى رواد حضارة ، ازدهرت
بهم الدنيا .. ليقدم لنا صورة عن تلك الدولة الجديدة التي نشأت في ظل الإسلام ، وقامت
دعائمها على هذا الهدى التشريعي المستقيم .

وكانت وسيلة شوقي في تقديم تلك الصورة ، عقد موازنة بين تلك الدولة من جهة ، وبين
ما قامت على أنقاضه من دول ذاعت شهرتها ، فنبه ابتداء إلى أن ما اشتهرت به هذه الدول إن هو
في حقيقة الأمر إلا عيب تؤخذ به ، وكان من عوامل الإسراع بنهايتها ، فإذا نظر إلى ما كانت
عليه بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية العباسية ، وجدنا من أسباب الحضارة والتقدم ما يجعل
روما وأثينا حاضرتي المملكتين الأوربيتين الشهيرتين خاملتين لا قيمة لها ، كما يظهر ما انطوى
عليه ملك كسرى من ظلم وبغى على الرغم مما كان يدل به كسرى وبيته على العوالم المجاورة من

(١) السبيل : الطريق ، شباب الدهر والهرم : يقصد أوله وآخره .

(٢) المرتسم : الذي لا يتخطى ما التزمه .

(٣) اعلنت : علت ، التمس - بالتحريك : التام الخلق والأوصاف .

(٤) القفر : الخلاء من الأرض ، القيصر - جمع القيصر - لقب ملوك الروم ، النعم ، بالتحريك - جمع الأنعام - : المال
السائم أو الإبل خاصة .

(٥) الباذخ : العالي علواً ظاهراً .

(٦) مدله - بالتضعيف - : جعله يعيش عيشة أهل المدن ويأخذ بأسباب الحضارة ، الخزم - بضمين - جمع حزام ، كناية عن
الأخذ بالتقشف .

(٧) سرعان - بفتح السين وضمها وكسرهما مع سكوت الراء - : اسم فعل ، يستعمل خيراً محضاً ، وخيراً فيه معنى التعجب :
يعنى ما أسرع ، أهمل الناس : سقاهم حتى رويوا ، السلسال : الماء العذب ، الشم - بفتح فسكون - : البارد .

(٨) ساروا عليها : أخذوا بها والتزموا أحكامها ، هداة الناس : أى حال كونهم هادين للناس ، فهمي : أى الملة .

(٩) الركن : أحد الجوانب التي يقوم بها الشيء ، شاد عدلهم : أى شاده عدلهم .

(١٠) العميم : كل ما اجتمع وكثر .

مظاهر لا تتجاوز القشرة الخارجية ، وكذلك كان حال مصر في ظلال الفراعنة الذين اعتزوا بتشييد المقابر والمعابد ، مغفلين الأهم وهو النهوض بالعدل .

لقد أذاعوا أن روما كانت موطن التشريع ، ولو نظروا إلى ما احتوته بغداد في ظل الإسلام لتبينوا أنهم يعتزون بسراب لا يتجاوز الشكل الخادع ، فالفارق شاسع واضح بين روما ودار السلام .

وليست الفوارق في التشريعات والعلوم فحسب ، بل إنها فوارق بينة كذلك في طبائع القادة والزعماء ، فأنى لهم بمن يمثّل الرشيد والمأمون والمعتمد ، وغيرهم ممن سارت بذكرهم ركبان التاريخ ، حيث أعدوا الكتابات لإقرار السلام وإشاعته في شتى بقاع الأرض ، وهبوا مجالس العلم والمعرفة ، فحقق العلماء في كتفهم ما لا يداني ، حتى المشتغلين بالعلم على أن يطأطئوا الرعوس تسليماً وهيبة ، ودبروا أسباب الرغد والتعيم ، فوفروا الأرزاق لكل كائن فوق الأرض ، وفي هذا قال :

دع عنك روما وآثينا ، وما حوتها	كلّ اليواقيت في بغداد ، والثَّوَم ^(١)
وغل كسرى وإيواناً يُدَلُّ به	هوى على أثر النيران والأَيِّم ^(٢)
واترك رعمسيس ، إن الملك مظهره	في نهضة العدل ، لا في نهضة الهرم ^(٣)
دار الشرائع روما ، كلما ذكرت	دار السلام لها ألفت يد السلم ^(٤)
ما ضارعتها بياناً عند ملتأم	ولا حكمتها قضاء عند مختصم ^(٥)
ولا احتوت في طراز من قياصرها	على رشيد ، ومأمون ، ومعتصم ^(٦)
من الذين إذا سارت كتابهم	تصرفوا بحدود الأرض والثَّخُم ^(٧)
ويجلسون إلى علم ، ومعرفة	فلا يدانسون في عقل ولا فَهْم ^(٨)

(١) روما : قاعدة مملكة إيطاليا اليوم ، وهي سابقاً قاعدة لمملكة الرومان ، وآثينا : قاعدة مملكة اليونان ، الثوم - بضم ففتح - جمع التومة : الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .

(٢) كسرى : لقب لكل من على ملك الفرس ، والإيوان مقر العرش ، أدل بالشئ : تجرأ به على الآخرين ، هوى الإيوان :

(٣) سقط ، على أثر النيران : على أثر حرقها ليلة مولده ﷺ ، الأيم - بضمين - جمع الأيام - بكسر الهجمة - : الدخان .

(٤) الهرم : الأهرام ، ورعمسيس : اسم بعض الفراعنة ، رمز به الشاعر إلى من اغتروا في نهضتهم بالأهرام ، وإن كان ليس منهم .

(٥) دار السلام : بغداد ، السلم - بالتحريك - : التسليم .

(٦) ملتأم : مجتمع ، ومختصم : اختصام .

(٧) الطراز : علم الثياب ، والجيد من كل شئ ، الرشيد : هارون ، المأمون : ابن هارون الرشيد ، والمعتصم : ابن هارون كذلك ، ولي الخلافة بعد موت المأمون .

(٨) الكتابات - جمع الكتيبة - : الجيش ، والثخم - بضمين - جمع تخوم : الفواصل بين الأرضين من معالم وحدود . داناه : قاربه .

يطأطىء العلماء الهام إن نسبوا من هبة العلم لا من هبة الحكم^(١)
ويمطرون ، فما بالأرض من محل ولا بمن بات فوق الأرض من غُدم^(٢)

ولكن شوقيا - بعد ذلك العرض المصور - يخشى أن يؤخذ ذلك منه على أنه موازنة منه بين صحابة رسول الله ﷺ ، وبين هؤلاء الملوك ، فيصرح بتحفظه على ذلك ، في قوله : إن الخلفاء الراشدين أعظم قدرا من أن يوازنوا بأحد غيرهم ، بل إن ملوك الأرض جميعا لا تقاس بهم ، فمن هذا الذى يعدل الفاروق رضى الله تعالى عنه في عدله ، أو يضارع عمر بن عبد العزيز في خشوعه واحتشامه ، أو يوازن بالإمام على كرم الله وجهه في صولاته الحربية ، وفي وضوح آرائه ، ودقة فتاواه ، وسعة علمه ، ونصوع بيانه ، أو يشبه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه في حنوه على القرآن الكريم ، وحرصه عليه ، حرصا دفعه إلى النهوض بجمعه ، حتى يحميه من التشتت والضياح ، ومع ماله من فضل لم يسلم من الأحداث الحسام التى أصابت كبد الإسلام بجرحين غائرين تمثلا في مقتل عثمان نفسه ، وإسقاط المصحف من يديه ودمه يسيل عليه .

وأما أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فما كان بلاؤه بأقل من بلاء أصحابه ، فبالإضافة إلى ما قدمه من جلائل الأعمال ... لا يمكن أن ينسى موقفه الحازم في مواجهة ما حاط بالإسلام من محن أضلت أحلام العقلاء ، حتى الفاروق رضى الله تعالى عنه ، فقد ذهل عن الضوابع حين فتن المسلمون بموت المصطفى ﷺ كما ذهل جمهور المسلمين ، حتى نهض الصديق بكلماته الحاسمة التى ردت المسلمين إلى الرشيد ، أوردت إليهم رشدهم ، فواجهوا فراق الحبيب بالتسليم لما غاب عنهم في لحظة الذهول من أن محمدا ﷺ رسول كغيره من الرسل ، وليس فوق عوارض البشرية !

حيث يقول :
خلائف الله ، جلُّوا عن موازنة
من في البرية كالفاروق معدلة
وكالإمام إذا ما فض مزدهما
الزاهر العذب في علم وفي أدب

فلا تقيسنَّ أملاك الورى بهم^(٣)
وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم^(٤)
بدمع في مآق القوم مزدهم^(٥)
والناصر الندب في حرب وفي سلم^(٦)

(١) نيس - بالتحريك - : تحركت شفتاه بشيء ، الحكم - بضم فسكون - : السلطان ، وحركت الكاف تبعاً لحركة الحاء .

(٢) اخل - بالتحريك - : الجذب ، العدم ، - بضم فسكون - : الفقر ، وحركت الدال تبعاً لحركة العين .

(٣) خلائف الله : عام في الخلفاء ، ثم خصص بمن ذكر بعد ذلك .

(٤) المعدلة : العدل ، الحشم : الخجل .

(٥) الإمام : على بن أبى طالب ، فض الشيء : فرقة ، المزدهم : تراحم القوم بعضهم مع بعض ، مآق العيون : أطرافها مما يلي الأنوف ، وهى مجارى الدموع .

(٦) الرجل الندب : السريع الخفيف عند الحاجة ، الظريف النجيب .

- أو كابن عفان ، والقرآن في يده
ويجمع الآي ترتيبها ، وينظمها
جرحان في كبد الإسلام ، ما التأم
وما بلاء أبي بكر بمتهم
بالحزم والعزم حاط الدين في محن
وحُدن بالراشد الفاروق عن رشد
يجادل القوم مستلا مهنده
لا تعذله إذا طاف الدهول به
وشوق — في حديثه عن موقف المسلمين من وفاة الرسول ﷺ — يحسن استخدام هذا الحدث
الجليل ، فكما توسل به إلى إبراز حزم أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، نراه يتوسل به إلى التنبيه على
فراغه من إبراز تلك الشحنة الوجدانية المتدفقة مع إجتلاء سجايا المصطفى ﷺ من أفعاله
وأقواله ، وتاريخه المجيد ، ومن آثاره الخالدة .

ابتهاال ورجاء :

ومن هنا تسنح له الفرصة من جديد ليتجه بتوسلاته وابتهاالاته إلى الله تعالى أن يصلى ويسلم
على خير المرسلين محمد ﷺ الذى أحيا الليالى صلاة ، وخشوعا وإشفاقا وتسبيحا لله ، محتملا
في سبيل ذلك ما يجلبه عليه السهد والسهر من ضر ، راضى النفس ، منشراح الصدر ، لا يشعر
إلا براحة اللقاء بمن يحب ... ويشفع هذه الابتهاالات برجائه ربه أن يصلى على آل محمد ﷺ
الذين رضى الله عنهم باصطفاء محمد من بينهم ، وبأن يكونوا معه على الأحداثات التى واجهته
ﷺ في أثناء قيامه بأمر الدعوة ... وأن يصلى على أصحابه الأربعة الذين تميزت صحبتهم بما
جعلهم في مقدمة المسلمين ؛ إذ كانوا أسرع تلبية لنداء رسول الله ﷺ كلما نزل بالمسلمين أمر
جليل ، وكانوا معتزين دائما بالصبر في مواجهة الحن .

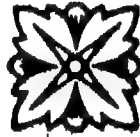
- (١) ابن عفان : عثمان بن عفان : الفطم — بضمين — جمع فطيم : الصبي : المفصول عن الرضاع .
(٢) الآي : الآيات القرآنية ، العقد — بكسر فسكون — : خيط ينظم فيه خرز ونحوه يحيط بالعنق . الجيد : الحق .
(٣) يشير بالمرحين إلى مقتل عثمان — رضى الله تعالى عنه ، ووقوع المصحف من يده ، حيث سال دمه عليه ؛ فكان هذان
الحدثان جرحين أصابا كبد الإسلام ، إذ فصحا أبواب التجرد على الخلفاء ، والتجرد على كتاب الله .
(٤) البلاء : مبالغة الجهد في الأمر ، الجلائل — جمع الجليل — : العظيم ، الخدم — بكسر ففتح — جمع الخدمة بكسر فسكون :
القيام بمحاجة الخدم ، وهو هنا الإسلام والمسلمون .
(٥) يشير بالحن التى حاط الدين منها إلى وفاة رسول ﷺ ، وما كان بعد وفاته ﷺ من ارتداد بعض العرب . الحلم : العقل :
الكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، اختلم : الصبي إذا بلغ مبلغ الرجال .
(٦) حاد الأمر به عن الصواب : مال به ، يشير بهذ البيت وما بعده إلى ما كان من عمر رضى الله عنه حين سمع نبأ وفاة رسول
الله ﷺ .
(٧) المهنت : السيف المنسوب إلى الهند .
(٨) العذل — بالتحريك ، وبسكين الذال — : اللوم ، الرغم — بالتحريك : الإكراه على العمل .

وينتظر الشاعر تلك الفرصة — أملاً في الاستجابة — فيبتل إلى الله تعالى أن يلطف بالمسلمين الذين يعانون في هذا الزمان أشد المعاناة من تكالب الأمم عليهم ، حتى أصابهم التخلف عن ركب الحياة ، متوسلاً في ابتهاله هذا برسول الله ﷺ ، راجياً من الله أن لا يزيد الكرب بالمسلمين ، وأن يتم فضله فيمنح المسلمين من يقودهم إلى ما فيه رضا الله ، والنهوض من تلك الكبوة ، كما أحسن بالمسلمين في البدء فأعز الأمة بخير المرسلين .. وفي ذلك يقول :

<p>نزيل عرشك ، خير الرسل كلهم^(١) إلا بدّمع — من الإشفاق — منسجم^(٢) ضراً من السهد ، أو ضراً من الورم^(٣) وما مع الحب إن أخلصت من سأم^(٤) جعلت فيهم لواء البيت والحرم^(٥) شم الأنوف ، وأنف الحادثات حمى^(٦) في الصحب صحبتهم مرعية الحُرَم ما هال من جلل ، واشتد من عمم^(٧) الضاحكين إلى الأخطار والقَحَم^(٨) واستيقظت أمم من رقدة العدم^(٩) تدبيل من نعم فيه ، ومن يقم^(١٠) أكرم بوجهك من قاض ومتقمم ولا تزد قومك خسفاً ، ولا تُسم^(١١) فتمم الفضل ، وامنح حسن مختم^(١٢)</p>	<p>يارب صل وسلم — ما أردت — على محيي الليالي صلاةً ، لا يقطعها مسبحاً لك جنح الليل ، محملاً رضىة نفسه ، لا تشتكى سأمها وصل رضى على آل له نُحِب بيض الوجوه ، ووجه الدهر ذوحلك واهد خير صلاة منك أربعمة الراكبين إذا نادى النبى بهم الصابرين ونفس الأرض واجفة ، يارب هبت شعوب من منيتها سعد ونحس ، ومملك أنت مالكة رأى قضاؤك فينا رأى حكمته فالطف لأجل رسول العالمين بنا يارب أحسنت بدء المسلمين به</p>
---	--

-
- (١) نزيل عرشك : كناية عن محمد ﷺ ، إشارة إلى ما كان ليلة المعراج .
 (٢) انسجم الدمع : انصب .
 (٣) جنح الليل — بضم أو كسر فسكون — : طائفة من الليل ، السهد : الأرق .
 (٤) الرضىة : المطيعة والخبية ، السأم — بالتحريك — : الملل .
 (٥) النصب — بضم ففتح — جمع النخبة : الوجيل اختار .
 (٦) الخلك — بالتحريك — : شدة السواد : الشمم في الأنف : ارتفاع القصبة وحسنتها ، وهو هنا كناية عن الحمية وشرف النفس ، وأنف الحادثات حمى : كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر .
 (٧) هاله الأمر يوله : أفزعه ، والجلل — بالتحريك — : الأمر العظيم ، والعمم — بالتحريك — : الخام العام من كل أمر ، يقال : أمر عمم أى تام عام .
 (٨) الواجفة : المضطربة . القحم — بضم ففتح — جمع القحمة بضم القاف وسكون الحاء : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .
 (٩) هب من نومه : استيقظ ، المنية : الموت .
 (١٠) أدال الشيء : جعله متداولاً .
 (١١) اللطف من قبل الله تعالى : التوفيق والعصمة . الخسف : الدلل ، سامه ذلاً أو خسفاً أو هواناً : أراد عليه وأولاه إياه .
 (١٢) الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، المختم : الختام .

فشوق في وقوفه أمام رسول الله ﷺ إنما استضاء بمن تقدمه في هذه السبيل — خصوصاً البوصيرى — في بعض الجوانب الفنية ، ولكن رؤيته العقلية والوجدانية تختلف عن الآخرين ، بالقدر الذي يختلف به الإنسان عن الإنسان ، تأثراً بمشاعره الذاتية ، وثقافته البيئية ، بما تتضمنه من خصائص وسمات ؛ ولذلك تميز شوقي بمناقشة بعض أفكار المستشرقين ، والمبشرين الأوروبيين الصليبيين ومن احتذاهم في فضائلهم وافتراءاتهم على الإسلام ورسوله ﷺ ، كما رأيناه في وقفته أمام زعم انتشار الإسلام بالسيف ، فقد رأى ما في هذا الزعم من تضليل عن حقيقة الإسلام ، وما فيه من تشويه لصورته ﷺ ، وتميز بالاشارة الى ما واجه الإسلام والمسلمين من محن في وقت مبكر ، كان من أشدها وفاة رسول الله ﷺ ، وارتداد بعض القبائل عن الإسلام وتعرض القرآن للضياع ، إيماء إلى ما قام به صحابة رسول الله ﷺ من جليل الأعمال في مواجهة ذلك كله ، مما يكشف عن نجاحه ﷺ في إعداد المسلمين لإعداد المنشود ، فكانوا من بعده الخلفاء الجديرين بأن يخلفوه ﷺ . كما تميز في ختامه بتوجهه الجماعي في ابتهاجه ودعائه ، فلم يقصره على نفسه ، ولا غفران الذنوب للمسلمين ، ولكنه أوماً الى ما يعانيه المسلمون من ذل الاستعمار ، فرجا الله أن ينقذهم مما هم فيه . !



- ٣ -

محمد عبدالمطلب (١)

في قصيدته

(ظل البردة)

لا شك أنه تشريف وتكريم يسعى إليه كل عاقل طموح من شعراء أمتنا ... أن يستطيع الوقوف بباب الرسول محمد ﷺ مادحاً ؛ إذ هو بذلك ينال من السمو والرفعة والمكانة ، ما يجعله يدرك أنه مهدي موفق - فليس ذلك بميسور لكل شاعر - وأنه قد أدى بعضاً من

(١) محمد بن عبدالمطلب بن واصل بن بكر بن بخت بن حارس بن قراع بن علي بن أبي خير . ولد ببلدة (باصونه) إحدى قرى مديرية (الآن محافظة) سوهاج سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧١ م .

وجده السابغ (أبو الخير) هو أبو واحدة من عشائر جهينة - إحدى بطون قضاة - التي استوطن أكثرها محافظة سوهاج منذ فتح مصر .

وكان والد الشاعر رجلاً صالحاً ، متفكهاً ، متصوفاً خلوتياً ، ولما أتم الشاعر حفظ القرآن دون العاشرة ، أرسله أبوه إلى الأزهر فجاور نحو سبع سنين ، ثم انضم في سلك طلبة دار العلوم أربع سنين ، تلقى العلم في أفتائها على كبار العلماء ، أمثال الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمود العالم ، والشيخ حسونة النواوي ، والشيخ سليمان العبد ، وغيرهم . لم يقتصر في قراءته القرآن الكريم على رواية حفص ، بل كان يتقن بعض الروايات الأخرى ، مما مكّنه من اللغة وآدابها ، وأعانته على أن يكون في شعره على مستوى شعراء القرن الثالث والرابع الهجري ، لغة وصياغة . وكان رحمه الله شديد الحفاظ على شعائر الإسلام وآثاره ، عاملاً على نشر آدابه ، فكان عضواً فاعلاً في جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية الإسلامية ، كما كان شديد العصبية لسلف الأمة الإسلامية ، وقوادها ، وعلمائها ، وشعرائها ، ومؤلفيها .

وبعد تخرجه في دار العلوم عمل مدرساً بالمدارس الابتدائية (الإعدادية اليوم) بمدينة سوهاج ، فقصى بها بضع سنين ، ذاع في أثنائها صيته - خطيباً وشاعراً - بين كبار الحكام والأعيان ، واختصه منهم بمصادقته الشيخ عبد الرحمن قراعة . وتقلب بين التعليم الابتدائي والثانوي .

ثم اختير مدرساً بـ مدرسة القضاء الشرعي ، ومنها انتقل للتدريس في دار العلوم . ولما شبت ثورة الاستقلال خاض عباها ، أدبياً قوالاً ، وسياسياً فعالاً ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى سنة ١٣٥٠ هـ الموافقة سنة ١٩٣١ م أنظر ديوان عبد المطلب ص م إلى ص ع الطبعة الأولى طبع مطبعة الاعتدال ، بشرح وتصحيح إبراهيم الإياري وعبد الحفيظ شلبي .

واجب الوفاء ، والاعتراف بالفضل لمن بذل حياته وراحته ليصلنا على الأرض بالسماء ،
فيمكننا من الرق بأنفسنا ، والسمو بنوازعنا ، والسداد في تفكيرنا ، والاستقامة في سلوكنا ...
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه .

ولقد كان الشاعر محمد عبد المطلب واحداً من شعرائنا المعاصرين الذين شرفهم الشعر
بأداء ذلك الواجب نحو الإنسانية ، فسار في ظلال الإمام البوصيري ، وجاؤل أن يحاذيه ، في
تقديم صورة للنبي ﷺ ، تعكس ما قام بنفسه - عقلياً ووجدانياً وتاريخياً - من حياته ﷺ
وسجاياه ، وسلوكياته .. على مدى ثلاثة وعشرين ومائة بيت من الشعر .

وعبد المطلب إذا قرر أن قصيدته تلك هي ظل للبردة ، فهو - فيما أرى - لم يقصد أن
ينفى عن نفسه التأثير بغير البوصيري ، ولكنه قصد أن ينيه إلى أن أثر البردة فيه أبلغ وأوضح ،
وإن كان لغيره ممن سبقه إلى هذا الميدان نفسه آثارهم !..

وعبد المطلب في قصيدته التزم المسار التاريخي في تصوير حياته ﷺ على وجه العموم ،
تاركاً للفيض الوجداني المجال بين الفينة والفينة ، يتخلل التنقلات التاريخية ، فجاءت القصيدة
نسيجاً سداه التاريخ ولحمته الوجدان .

وعبد المطلب - في رحلته تلك - كان يتحرك وعيناه مسطرتان على واقع المسلمين أكثر
من سابقه ؛ ولذلك - فيما أرى - لم يطل نفسه الشعرى في مقدمته ، كما كان أوضح اتصالاً
فيها بموضوعه ومقاصده ؛ فقد بدأها بحديث نفسى عن أشواقه التى جاشت بها مشاعره ،
وحركت نفسه بعد أن أسكنها ما نزل به من الشيب والهرم ؛ منبهاً إلى أنها أشواق من نوع
آخر ، غير ذلك النوع المعهود مع نزوات الشباب ؛ فهى أشواق حركتها مؤثرات وافدة من
أرض نجد إلى أرض مصر ، تهفو إليها نفس كل مؤمن لاشتياها على ريح المصطفى ﷺ ، إذ
يقول :

أغرى بك الشوق - بعد الشيب والهرم -	سار ، طوى البيد ، من نجد إلى الهرم ^(١)
يا سارى الطيف ، يجتاب الظلام إلى	جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم ^(٢)
يغريه بالدمع حادٍ بات مرتجزا	يحدو المطى لأجراع بلدى سلم ^(٣)
إذا خفا البرق أذكى في جوانبه	نارا توججها الذكرى بلا ضمرم ^(٤)

(١) أغراه بكدا : حرضه عليه ، طوى الطريق : قطعه ، البيد - جمع البداء - : الصحراء .

(٢) اجتباب الظلام : غرقه واجتازه .

(٣) المرتجز : الذى يقول الأراجيز ، وهى القصائد من بحر الرجز ، الأجراع - جمع الأجرج - : الأرض ذات الخزونة
تشاكل الرمل ، وذو سلم : واد ينحدر على الدنانير .

(٤) خفا البرق : لمع ، أذكى النار : أوقدها ، أجمع النار : ألهبا ، الضرم - بالتحريك - : الاشتعال .

فالشاعر في تلك المقدمة التشبيبية يدور حول موضوعه الأصيل ؛ إذ يكشف لنا أن أشواقه ليست موجهة إلى امرأة قد يرمز بها إلى ما يريد ، ولكنها موجهة إلى الأرض التي نشأ فيها حبيبه الحقيق بأضعاف تلك الأشواق ، ﷺ ، والتي كانت ميدان دعوته وما صاحبها من صراع محترم بينه ﷺ وبين مشركى قومه ، فتضوعت الأرض كلها بنسائم من أنفاسه ، نفحتها من روحه ﷺ ما يذكر به في كل حين .

والشاعر - كما نرى - قد أعجلته شدة الشوق إلى المصطفى ﷺ ، عن منهج سابقه في المقدمات التشبيبية الذى يلتزم فيه الطول ، والرمز إلى مقصوده باسم نسائي يجعله مثار تلك الأشواق ؛ فكانت تلك الصراحة والوضوح من أول الأمر ، من غير حاجة إلى الإيماء والإشارة .

الشكوى مما آل إليه حال المسلمين ،

ومن هنا هجم الشاعر - بعد أن كشف عن أشواقه إلى أرض المصطفى ﷺ - على موضوعه ؛ فخلص إلى شكواه مما وصل إليه حاله وحال المسلمين جميعاً بعد أن نزلت بهم النوب ، وبعد أن ضل الطريق من أقدامهم حين ابتعدوا عن نهج الرسول ﷺ ، فأخذ يحث البرق على أن يحكى آلام الشاعر ، ويصور ما يعانيه من شوق إليه ، ويناشد ربح الصبا أن تهب عليه بما يريحه بعد أن أفقده إياه الفراق ، ويسقط لساكنى البان ما أصابه به النوى والبعد من ضيق وعنت لا يحتمله الصبر ، وتنوء به الهمم ؛ فقد تفاقمت النائبات حتى صارت في افتراسها كالأسود ، وحتى جعلت من بنات آوى أسداً تخيف الأشبال في منازلها ، وتجترى عليها في مواطنها ، فأنى نحن اليوم تحت وطأة هؤلاء المستعمرين مما كنا فيه يوم امتد سلطاننا ، وبلغنا من القوة درجة توحى بأن القضاء يجرى وفق مشيئتنا . فكان قوله :

يا برق مالك لا تحكى جوى كبدى	إذا تألقت ليــــــــــــلا في يديهم ^(١)
ويا صبا رّوحى ، رّوحى ، فقد ذهبت	بها النوى بعد عهد البان والعلم ^(٢)
يا ساكنى البان ، طال البين في غير	أزبت على الصبر فاستعصى على الهمم ^(٣)
واستأسدت نوب الأيام فاجترأت	بنات آوى على الأشبال في الأجم ^(٤)
لله أيام كنا والوجود لنا	يجرى القضاء بما شئنا على الأمم

(١) حكى الشيء حكاية : ألقى بحفله ، وحكى عنه الحديث : نقله ، الندى - بفتح فكه - مجلس القوم ومجتمعهم .
(٢) الصبا - بالفتح - : ريح مهبها من شرق الشمس إذا استوى الليل والنهار . روح عنه - بفتح الراء وتضعيف الواو - : أراحه ، وروحهم : ذهب إليهم في الرواح ، النوى : البعد ، البان : ضرب من الشجر .
(٣) البين : الفراق ، الغير - بكسر ففتح - جمع الأغيار : أحوال الدهر وأحواله المتغيرة . أرى على الشيء : زاد .
(٤) النوب - بضم ففتح - جمع النوبة بضم النون : النازلة أو المصيبة ، بنات آوى - جمع ابن آوى - : حيوان وحشى شبيه بالذئب ، الأجم - جمع الأجمة - : الشجر الكثير الملتف .

وذلك أن الله عز وجل هياً لنا بهذا الدين الخفيف ، ما جعل لنا دولة تعلقو كل الدول ، بدت بشائرها في غرر الأجيال السالفة ، بما خلفت من آثار ، أشرق على الوجود نورها ، فبعث العالم من العدم تمهيداً لمقدم أبى القاسم طه ﷺ المبعوث من مضر إلى الناس جميعاً ، لينشر بينهم رحمة الله ، في وقت اشتدت فيه حاجتهم إلى رحمته :

إذ يرفع الله بالدين الخفيف لنا على الذرى دولة خفاقة العلم (١)
في سورة العز والمجد الذى سلفت بشراً به غرر الأجيال في القدم (٢)
مجد بنه الذى فاض الوجود به نوراً له قامت الدنيا من العدم
طه أبو القاسم المبعوث من مضر إلى البرية من عرب ومن عجم (٣)

حال العالم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ،

ومن هنا انطلق الشاعر يرسم صورة لما كان عليه العالم قبيل مبعث محمد ﷺ ، تكشف عن مدى حاجة الناس إليه من مشرق الأرض إلى مغربها ؛ بحيث يرى الناظر ما أصاب بلاد العالم من بلاء ، وما نزل من مصائب ، تفتك بالناس الذين أعماهم الضلال فلم يعرفوا طريق الخلاص ، فصاروا يخطون في الأرض خبط عشواء ، وأصبحوا هائمين على وجوههم كأنهم الإبل العطاش تسعى بحثاً عن الماء ، ولا راعى لها يرعاها أو يقودها ، فقدوا العقل المتزن ، فاجتذبتهم الأهواء ، واستبدت بهم النحل المختلفة التي لا تقوم على أساس ثابت من عقل أو روية ؛ لأنهم أخطأوا القصد ، فافتروا الأهواء التي أوردتهم - على ظمأ - موارد التهلكة ، بما تضمنه من أسباب الضلال ، والاختلال ، وتفرقوا - بذلك - شيعاً ، يستهوى كل شيعه مذهب من مذاهب الكفر ، فلم يجنوا من وراء ذلك إلا الخزي والانقسام ، والتشتت ؛ فهذا يرى الأفلاك على غير حقيقتها ، حتى يتخدع في قوتها وسلطانها ، فيراها إلهاً يخلص له العبادة ، وذاك تفتنه النار بسطوتها وآثارها فيخصها بالعبادة ، وآخر يستهويه كائن ضعيف لا يحجر جواباً من شخص أو صنم ، ولكن العمى يبرزه له في صورة إله ، فيسعى إليه بالعبادة ، ويسلم النفس بالطاعة لمن يقومون بأمره من السدنة .

وكما انقسم الناس هذا الانقسام المذهبي بحثاً عن المعتقد ، انقسموا كذلك انقساماً قُبلياً واجتماعياً ، فكانوا قبائل وشعوباً يسيطر على كل منها التعصب الذى لا ترى في ظله جديراً بالحياة والسيادة سواها ، مما أغفلها عن وحدة الأصل ، وأذهلها عن روابط الأخوة ، ووشتج القرى ، وعلائق الأرحام ، وانقسم الشعب الواحد ، أو القبيلة الواحدة - بتأثير هذا التعصب الضال - إلى سوقة تبذل كل الجهد في سبيل الحصول على الضرورى من أسباب العيش ، وملوك

(١) الخفيف : المستقيم الذى لا عوج فيه ، الذرى - جمع الدررة - : أعلا الشيء .

(٢) السورة - بفتح فسكون - : الوثبة ، سورة المجد : أثره وعلامته ، وسورة الرجل أو السلطان : سطوته .

(٣) مضر - بضم ففتح - : أحد أجداد الرسول ﷺ ، وبه اشتهرت قريش ، البرية : الخلق .

ينعمون بكل شيء ، فحال بينهما ما حال بين سباع الجو والنعم ؛ فبينما يستمتع الملوك فوق عروشهم بكل أسباب الرخاء والنعم ، يقوم السوق بكل أعمال الخدمة والحراسة والقتال ؛ تجد الصورة واحدة هنا وهناك ، فكما تجد القياصرة في بصرى يستعبدون الروم ، تجد الأكاسرة في المدائن تستهلك العجم .

وكان من أثر هذا الانقسام الاجتماعي أن عمل كل على إبقاء سيادته وتسلمته ، فلم يسمح لواحد أن يلجأ إلى العقل في التقسيم الاجتماعي . وإلا أطاح السيف عنقه ، ولم يبح لأحد أن يبدى سجره مما يعانيه ، ويتطلع إلى العدل في الحكم ، وإلا سامه السادة الردى ، وأوقعوا به ألوان العذاب .

ولم يكن هذا مقصوراً على الفرس والروم ، فقد كان العرب الجاهليون ، مثل هؤلاء وأولئك ، تسودهم الأحقاد ، وتشتعل بينهم نيران العدواة والبغضاء ، ولا أدل على ذلك مما كان بين القبائل المختلفة من حروب وغارات ، فأينما سار الفرد وجد الموت في انتظاره يتربص به ، فالحياة يسودها الجهل المبيد ، والفوضى الزاخرة ، والفقر المدقع ، والفتنة الشاملة . في ذلك قال الشاعر :

ولو ترى قبله الدنيا ، وما لقيت	من البلاء ، وما ذاق من النقم
والناس ضلّال قفر في مسارحها	هيم من السرح ، أو غفل من الغنم ^(١)
ضلوا سواء أثنى ، فاستمسكوا عمها	بكل جبل من الأهواء منجذم ^(٢)
هاموا بكل سيل في غياهبها	من يخطئ القصد في ليل الهوى يهيم ^(٣)
فأوردتهم ظمأ كل مهلك	يشوبه الكفر بالأقذاء والوخم ^(٤)
تفرقوا شيعا في الكفر ، وانقسموا	شتى ، فباءوا بما يخزي من القسَم ^(٥)
هذا عن الحق - بالأفلاك - في عمه	وذاك - بالنار - عن نور الجلال عمي ^(٦)
وذا يؤله من لا يستجيب له	من ناطق بشر ، أو صامت صنم

(١) ضلال - بضم الضاد وتضعيف اللام - جمع الضال : مقابل المهتدى ، والقفر : الحلاء من الأرض لا ماء فيها ولا كلاً ،

المسرح - جمع مسرح - : مرعى الماشية ، هيم - جمع الأهميم - من الرجال والإبل : العطشان أشد العطش ، السرح :

الماشية ، الغفل من الماشية - بضم فسكون - جمع الأغفال : كل ما لا سمة عليه .

(٢) النهى - جمع النية - : العقل ، العمه : التحير والتردد بحيث لا يدري أين يتوجه ، وهو في البصيرة كالعمى في البصر ،

الأهواء - جمع الهوى - : الميل إلى الشهوة ، المنجزم : المنقطع .

(٣) هاموا على وجوههم : خرجوا على وجوههم في الأرض لا يدرون أين يتجهون . السيل : الطريق ، الغياهب : الظلمات .

(٤) الظماء - بالكسر - جمع الظمآن : العطشان . اهتلك : ألقى نفسه في التهلكة . شابه الكفر : خالطه ، الأقذاء - جمع

القذى ، وهو القذاة - : ما يقع في العين والشراب والماء من تراب وغير ذلك ، الوخم - بالتحريك - : داء كالباسور

بجاء الناقة .

(٥) الشيع - بكسر ففتح - جمع الشيعة : الفرقة والجماعة ، شتى - جمع شيت - يقال أشياء شتى : من غير جنس واحد ، باء

بالشئ : رجع به ، أخزاه : أهانه وفضحه وأخجله ، القسم - بكسر ففتح - جمع القسمة : النصيب .

(٦) يشير بهذا البيت إلى الصابئة والجوس .

قبائل ، وشعوب لا يعطفها
وسوقة ، وملوك حال بينهما
هذا على العرش محمود بعزته
إن عبء الروم في بصرى قياصرها
من قال بالعقل غال السيف هامته
والجاهليون بالأحقاد في هب
في يعرب ومعد كل بائقة
إن أتهموا فركاب الموت متهمه
جهل ميد ، وفوضى عب زآخرها

إخاء صدق ، ولا قرى من الرحم
ما حال بين سباع الجو والتعم^(١)
يزجى أولئك في الأجناد والخدم^(٢)
ففى مدائن كسرى تهلك العجم^(٣)
ومن يسم يوم عدل ، بالردى يس^(٤)
- من العداوة والبغضاء - محتدم^(٥)
تسقيهم الموت في الغارات والإزم^(٦)
أو أنجدوا فالردى موف على القمم^(٧)
والعيش بين الضنى والفتنة العمم^(٨)

اصطفاه محمد من أشرف الأصلاب .

ويخلص الشاعر من حديثه عن العالم وما كان عليه من ظلم وجهل وضلال ، إلى الحديث عن قريش التي جعل الله غوث الوجود على يدى واحد من أنبائها ، فهم - في جملتهم - خيرة الله مذ كانوا ، وهم موئل الناس وعصمتهم ، وهم القائمون على خدمة الحجيج إطعاماً وسقاية وحماية ؛ فلقد شيدوا في الصحراء بين الحل والحرم مجداً للإنسانية جميعها تأصل وثبت ، حتى كانوا قوام الحياة للناس قروناً متطاولة ، وذلك حيث يقول :

لولا قريش سقى الله الوجود بها غوثا من الأمن في غيث من الديم^(٩)
قوم إذا ابتدر الناس العلا نهضوا في زآخر من تليد المجد ملتطم^(١٠)

(١) السوق - بضم السين وفتح القاف - : الرعية وأوساط الناس ، وتطلق على الواحد وغيره . نعم - بالتحريك - : المال السام ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

(٢) أزجى القائد الجند : ساقهم ودفعهم .

(٣) القياصر - جمع القيصر - : لقب ملوك الروم ، والعجم : يقصد بهم الفرس .

(٤) غال السيف هامة الرجل : أخذه من حيث لا يدري فأهلكه . والهامة : الرأس ، وهامة الشيء : أعلاه أو وسطه . يسم الأولى من السوم بمعنى طلب الشراء ، والثانية من السوم بمعنى تحشم المشاق والعذاب ، يريد : أن من احتج على ما يقع عليه وطلب العدل ، سامه هؤلاء الملوك ألوان العذاب .

(٥) احتدم اللهب : اشتد اشتعاله .

(٦) يعرب : هو ابن قحطان أبو اليمن ، إليه تنسب لغة العرب العاربة ، قيل : أول من تكلم بالعربية . ومعد : هو ابن عدنان ، أبو العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام ، البوائق - جمع البائقة - : الداهية أو الشر ، الإزم - بكسر ففتح - : جمع الأزمة : الشدة .

(٧) أهم القوم : أنوا هامة - بكسر التاء - : أرض منخفضة بين ساحل البحر وبين الجبال في الحجاز واليمن ، أنجد القوم : أنوا نجداً ، ونجد : قسم من الجزيرة العربية بين الحجاز والعراق ، الردى : الهلاك ، أوفى على المكان : أشرف عليه .

(٨) عب البحر عباباً : ارتفع موجه واضطخبت ، الضنى : المرض أو الهزال الشديد ، العمم - بالتحريك - : العامة الشاملة .

(٩) الغوث : الإعانة والنصر ، والغيث : المطر ، الديم - بكسر ففتح - : جمع الديمة : مطر يدوم في سكون بدون رعد .

(١٠) ابتدره بالشيء : عاجله به . الزآخر : الفائض الطامى ، المجد التليد : الأصل القديم .

هم خيرة الله مذ كانوا وصفوته
أبناءً فهر ، بنيم في البطاح لنا
كنتم نظاماً لأقوام مضوا حقباً
يا موئل الناس والأيام راجفة
وعصمة الناس إن ضاق الفضاء بهم
يا مطعمي الناس إن أكدى الغمام ، ويا

والشاعر بحديثه عن قريش إنما يمهّد للحديث عن مولد الرسول ﷺ فيهم ومنهم ؛ فقد كان
كان مولده ﷺ من قريش تصديراً للمجد من أشرف بيوتهم ، وتوجيهاً للنور المشع ، كى يطل
على الآفاق من مرتفع ، حيث تنقل من أشرف الأصلاب إلى أشرفها ، حتى حملت به آمنة بنت
وهب بن زهرة الطاهرة الشريفة العفيفة ، فحملت بأفضل إنسان ، إذ جاء نوراً من الله بجملاً خلّفاً
وخلّفاً ، مزكى بالآداب والحكم ، عمت بشائر مولده البلاد شرقها وغربها ، في ليلة فريدة لم تر
الدنيا لها مثيلاً ، فبدا شمساً ساطعة في موكب من تكريم الله وإجلاله ، إذ يقول :

تصوب المجد من أعلى ذوائكم
مسراه في شرف الإسلام منتقلاً
حتى أقلته في عليا مشارقه
من ذا الذي حملت تلك البتول ، ومن
نور من الله سواه ، وصوره
في الشرق والغرب آيات تطوف بها

نورا أطل على الآفاق من شمم^(١)
بين القليلين من طود إلى علم^(٢)
زهراء (زهرة) ذات الطهر والعصم^(٣)
قامت لمقدمه الدنيا على قدم^(٤)
خلقها ، وزكاه بالآداب والحكم^(٥)
رُسل البشائر من شاد ومرتسم^(٦)

(١) الذمم - جمع الذمة - : الكفالة والعهد .

(٢) فهر - بكسر فسكون - : قبيلة من قريش ، البطاح - جمع البطحاء - : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والخصى الصغار ، المجد المؤئل : الثابت المؤصل .

(٣) نظام الشيء : قوامه وملاكه ، الحقب - بكسر ففتح - جمع الحقبية : المدة لا وقت لها ، أو السنة .

(٤) المؤئل : الملجأ ، رجفت الأيام : اضطربت وزلزلت . البأس : الشدة ، الحدم - بالتحريك - : شدة انقاد النار .

(٥) العصمة : الحفظ ، فاء إليه : رجع .

(٦) أكدى : بخل ، أو افتقر بعد غنى ، المهجير : نصف النهار في القيظ خاصة .

(٧) تصوب مطاوع صوب : توجه وتسدد ، الدوائب - جمع الدوابة - : من كل شيء أعلاه ، الشمم : الارتفاع .

(٨) القليلان : يعنى أصله صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه ، ومن جهة أمه ، الطود : الجبل العظيم الذاهب صعوداً إلى الجو ، : والعلم : الجبل .

(٩) أقلته : حملته ، الزهراء : يعنى السيدة آمنة بنت وهب ، والزهراء : البيضاء الصافية المشرقة ، وزهرة - بضم فسكون - : اسم جدها ، العصم - بكسر ففتح - جمع العصمة : ملكة إلهية تمتع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليه .

(١٠) البتول من النساء : العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله ، قامت الدنيا على قدم : كناية عن الاهتمام والاحتفال .

(١١) زكى الشيء : أصلحه وطهره .

(١٢) الشادى : المترنم المتغنى ، والمرتسم : المكبر المتعزذ الداعى ، يريد : المهلل المكبر .

في ليلة لم تر الدنيا لها مثلاً فيما تقصّي من الأجيال والأمم
تنفست عن سنا شمس الوجود بدا في موكب من جلال الله متظّم (١)

من نهائته صلى الله عليه وسلم وأثاره .

ومن هنا أخذ الشاعر يذكر بعض شمائله ﷺ ومناقبه التي بدت منذ طفولته ، فقرر أنه ﷺ روح الحياة الدنيا والآخرة ، وأنه نور مكة والمدينة الذي أضاء العالم كله ، وأنه إمام القبلتين الذي شرف بيت المقدس والكعبة بالتوجه إلى الله من خلّاهما ، وأنه خيرة الله من بين خلقه ، لقد ظهر عليه من الأمارات والأدلة ما ينبئ بما له من قدر ومكانة تميزه عن كل من عداه ، وذلك بخلوص أصله للمجد والعظمة ، وعين مولده وحلول البركة على الأرض به ، واختصاصه بالحمد اسماً وصفة ، يسامي النجوم رفعة ، حتى اختلط جمال محياه بجلاله ، فكان مجموعة باهرة من الشيم والسجايا . فإذا كان أبناء السادات معرضين لأن يصيبهم الهوان حين يلحق اليتيم بهم ، فإن محمداً ﷺ باليتيم زاد عظمة ورفعة ، ظهر أثرهما في عشيرته ، فتأهوا به على العشائر اعتزازاً وفرحاً . فقد قال الشاعر في ذلك :

روح الحياتين ، نور القريتين ، إما	م القبلتين ، صفى الله في القدم (٢)
لاحت مخايله ، تبيك أن له	قدراً تفرّد في السادات بالعظم (٣)
المجد محمده ، وإيمن مولده	والحمد مورده ، معنى اسمه العلم (٤)
يرمي النجوم بعين في قلبها	معنى يفوت مدى الأفلاك والنجم (٥)
يا أحمد الرسل ما هذا الجلال به	جال هذا الغيا ، باهر الشيم (٦)
ما هان باليتيم ، لكن زاده خطرا	وقد يهون بنو السادات باليتيم (٧)
لما دعوا أحمد اهتز الحمى ، وبدا	لآل عبد مناف صدق جدهم (٨)

ومن هنا انتقل إلى الحديث عن آثاره الطيبة في بنى سعد ، حين تحملت أمر إرضاعه واحدة منهم ، فقد رأى الشاعر أن الزمن قد تحول بتلك القبيلة كلها منذ رجعت حلّمة به ﷺ لتقوم برضاعته ، حيث فاضت النعمى على هوازن ، وجرى الخير بينهم كأنه الغيث ، فنالوا السعد

(١) السنا : الضوء ، الجلال - بالفتح - : العظمة .

(٢) روح الحياتين : معنى الدنيا والآخرة ، والقريتان : مكة والمدينة المنورة ، والقبلتان : بيت المقدس والكعبة المشرفة ، الصفى : اختار .

(٣) المخايل - جمع الخيلة : الدليل والعلامة .

أحمد - بفتح فسكون فكسر - : الأصل والطبع ، الإيمن : البركة ، الحمد : الثناء ، المورد : المنهل ، والطريق والمصدر ،

(٤) معنى أن اسمه العلم هو أصل الحمد ومورده .

(٥) فاته : سبقه ، المدى : المسافة والغاية .

(٦) الغيا - بضم ففتح - : جماعة الوجه ، الباهر : المدهش المعجب ، الشيم - جمع الشيمة - : الخلق .

(٧) الخطر : النيل في الشرف والرفعة . هان الشيء : ذل .

(٨) اهتز الحمى : تحرك بشدة ، الحمى : الموضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرعى .

والإكرام بما صنعته ابنتهم حليلة ، وانتشرت البشائر في حبيهم ، وأصبحت حليلة خير المراضع حين رجعت من مكة بهذا الطفل الميمون ، فما وصلت به إلى منازلها حتى نزل بهم فيض عميق من الخير ، ومازال ينمو بين بني سعد ، ويرق بشمائله حتى كان بارزاً مميّزاً بين أترابه . فقال :

واستقبل الدهر بالنعمى مراضعه
يا سعد حيّ بني سعد بما صنعت
خير المراضع من أم القرى رجعت
فما استقرت به حتى أناخ بهم
مازال ينمى ، ويسمر في مناقبه
غناء نجد بما شاء الجلال سَمى^(٣)
إلى هوازن يجرى الغيث بالنعم^(١)
فتاتهم ، وانشر البشرى بحبيهم
أما لأكرم مكفول وملتزم^(٢)
من جوده كل جود بالندى رزم^(٢)
ثم تداعى إليه في هذا السياق بعض مناقبه البارزة ، التي كانت أمانة تميز عامة ، أبرزته بين

قومه جميعهم ، فقد بدت فيه شمائل أبيه وأجداده ، إذ كان سمحاً ، وقوراً ، أميناً ، صادقاً ، ذكياً ، عفا عن الدنيا ، قديراً لا يخالجه عجز ، حريصاً على حماية الحرم ، إلى غير تلك الشمائل التي عجز حكماء قريش وعقلاؤها عن إدراك واحدة منها بالمستوى نفسه الذي توفر له ، فكان وجوده بتلك الشمائل بينهم أمانة أظهرت ما أكبرته قريش من مناقب أبنائها صغيراً ضئيلاً ، وذلك قوله :

فيه شمائل عبدالله نعرفها
سمح ، وقور ، أمين ، صادق ، فطن
شمائل قصرت عن درك أيسرها
عف ، قدير ، وصول ، مانع الحرم^(٥)
وهمة أصغرت ما أكبرت سفها
أهل النبی من قريش أو بني جشم^(٦)
عن شيبه الحمد ، عن عمرو عن الحكم^(٤)
تلك النفوس ، وكانت موطن الهمم^(٧)

تميزه منذ الصغر بين أترابه ،

وكان اشتغاله ﷺ منذ صغره على تلك المناقب ، دافعا له لفعل كل ما يميزه من أترابه ، ويسمو به عن كثير من عوائد قومه ، فلما أوشك موعد الدعوة ، وأظّل الناس أوائها ، وبدأت بشائر نورها تغزو ما سيطر على الناس من غمم وظلام ، ملك قلبه ما يدعوه إلى ترقب نور الله

(١) النعمى : النعماء .

(٢) أناخ بالمكان : أقام به . الندى : الكرم ، الرزم - بفتح فكسر - : الغيث الذي لا يقطع رعد .

(٣) نعى الحديث - بالتحريك - : شاع ، ونهى الشيء : رفعه وأعلى شأنه .

(٤) عبد الله : والد الرسول ﷺ ، شيبه الحمد : هو عبد المطلب وعمرو : هو هاشم بن عبد مناف ، ويقال له : عمرو العلاء ، أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء إلى اليمن والحشة ، ورحلة الصيف إلى الشام وغزة وأقرة .

(٥) السمع : اللين السهل ، الوقور : ذو الرزانة والحلم ، الفطن - بفتح فكسر - صاحب الاستعداد الذهني لإدراك ما يرد عليه ، الوصول - بالفتح - المبالغة في وصل الأقربين ، والعطف عليهم ، والرفق بهم ، ومراعاة أحوالهم .

(٦) الشمائل : المناقب والصفات ، قصر عن الشيء - بفتح فضم - : لم يستطع إدراكه ، النبی : العقل ، بنو جشم : أبناء الحارث بن لؤى ، وجشم يطلق على أحياء من مضر ومن اليمن ومن تغلب ومن ثقيف ومن هوازن .

(٧) الهمة : العزم القوي ، السفه : الخفة والجهل والطيش .

الذى سوف يستأصل ظلام الجهل ؛ فقد حياه الله تعالى قلباً صبيغ جوهره من الكرم ومعالي الأمور ، فشع نوراً ، جعله ﷺ يشعر بأن الله حملة مسئولية الناس جميعاً ، كى ينقذهم مما استبد بهم وران عليهم ، بينا قریش من حوله يوج أبنائوها فى تنن الكفر ، فلم يكن مجتمعهم بالذى يجد فيه راحة نفسه ، ولكنه استشعر الوحشة بينهم ، ففر إلى البيداء باحثاً عن الأمن والراحة والأنس ، حيث وجد من جلال الله فى الغار ما يؤنس وحدته ، ويبدد وحشته :

لما أظّل الورى إبان دعوته	وثار نور الهدى يسطو على الغمم ^(١)
أوفى على قلبه داع أهاب به	من جانب القدس : هذا نورنا فشم ^(٢)
نور أضاء بقلب صاغ جوهره	من الندى والمعالي بارىء النسم ^(٣)
قلب جرى فيه أن الله حمّله	عبء البرية من غرب ومن عجم
وحولته من قریش كل معتقم	من حمأة الكفر ، هوى حول معتقم ^(٤)
فاستوحشت بينهم نفس له أنست	بوحشة اليد ، وارتاحت إلى الوجم ^(٥)
مستأنساً بجلال الله ، يشهده	فى الغار بين خشوع اليد والأكم ^(٦)

وظل صلوات الله وسلامه عليه يعتكف فى الغار طلباً للأنس ، وفراراً من ظلام الجاهلية المسيطر على قومه ، حتى تبين بشائر النبوة فيما رآه حين زاره فى معتكفه رسول الوحى ، حاملاً إليه أمر ربه ، كما أوحى من قبله بالهدى والدين القيم إلى الرسل السابقين ، فأرسله الله عز وجل الذى علم بالقلم بما ينير للناس طريقهم ، ويهديهم إلى الحق ، ويصبرهم باليقين ، وفى ذلك جاء قول الشاعر :

حتى تبيّن أعلام النبوة فى —	حما قد رأى ، ثم لم يرتب ، ولم يهيم ^(٧)
أوحى إليه كما أوحى إلى رسل	من قبله بالهدى والملة القيم ^(٨)
بالنور ، بالحق ، بالعرفان أرسله الله	به الذى علم الإنسان بالقلم ^(٩)

-
- (١). الورى : الخلق ، الإبان : الأوان ، سطا عليه : بطش به .
(٢). أوفى عليه : أشرف عليه ، أهاب به : دعاه للعمل أو للترك . شام السحاب والبرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره ، وشام الشيء : حزره وقدره .
(٣). صاغه : صنعه ، الجوهر من الشيء : ما وضعت عليه جبلته ، الندى : الجود والسخاء والخير ، البارىء : الخالق ، القسم : الخلق .
(٤). الاعتقام : أن تحفر البئر فإذا قربت من الماء احطرت بئراً صغيرة بقدر ما تجد طعم الماء ، فإن كان عذباً حفرت بقيتها ، هوى — بفتح العين — هوى : سقط .
(٥). الوحشة من الناس : الانقطاع وبعد القلوب من المودات ، اليد — جمع البيداء — الفلاة : الوجم — بالتحريك — حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رءوس الآكام .
(٦). الخشوع : الخضوع ، الأكم — جمع الأكمة : التل .
(٧). ارتاب فى الأمر : شك ، هام : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يخرجه .
(٨). الملة : الشريعة أو الدين ، القيم — بكسر ففتح — جمع القيمة : الثابتة الدائمة على الأمر .
(٩). العرفان : الإدراك بإحدى الحواس .

بدء الوحي وأثر الدعوة في قومه ،

ومن الحديث عن بدء الوحي ينطلق الشاعر مستعرضاً أثر الوحي وما تلاه من جهر بالدعوة استجابة لأمر الله تعالى .. في قریش ، فقد زلزل القوم ، وأدركوا أنهم يواجهون قوة لا قبل لهم بها ؛ فحجبتهم واهية ، والأصنام التي يعتزون بها واجمة لا تضر ولا تنفع ، حتى بدت بوادر الحق زاهية مشرقة في مقابلة ما أصاب الطغيان والكفر من غيظ وندم ؛ فكان عقلاؤهم مثار الدهشة والتعجب ؛ إذ طاشت عقولهم التي كانت ترجح الجبال رزانة وحكمة ، كما كان ﷺ في نهوضه بهذا الأمر وتلك المواجهة وحده ، داعياً أُم الأرض للخلاص من الأهواء التي طالما رضخوا لها وما يصدر عنها ، بمن فيهم من الطغاة المتجبرين الذين يتبهون كبيراً وفخراً ، والذين يطوون جوانحهم على الضلال ؛ فقام ﷺ بينهم داعياً بكل وسيلة ملائمة ، ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا على عنادهم يصمون آذانهم عنه ، فإذا حاول أن يلفت ضمائرهم إلى الحق باللين واجهوه بالشراسة المؤذية ، وإذا تلا عليهم آيات الكتاب الكريم - بما تتضمنه من قوة بيانية معجزة - اشتطوا في خصومتهم ولووا رؤوسهم مظهرين انصرافهم عنه . ولكن شيئاً من ذلك لم يصرفه عنهم ، بل زاده ذلك إصراراً على مواصلة دعوتهم ، يقابل صدودهم وغلظتهم بالحنو والرحمة ، ليعلمهم كيف يكون الولي رقيقاً ، وكيف يكون السيد باراً ؛ فلم يقابل طغيانهم العجيب إلا بقلب لا يعرف العدوان ولا الحقد ، ولا عجب في ذلك منه ﷺ ، فقد أحلهم منه بمنزلة الأبناء والأهل . قال الشاعر :

هناك زلزل قوم حين قال له :	قم منذراً ، وبجبل الله فاعتصم ^(١)
فالكفر يرجف ، والأصنام واجمة	والحق ييسم ، والطاغوت في سدم ^(٢)
فاعجب لأحلامهم طاشت وكم رجحت	على شماريخ رضوى ، أو على إضم ^(٣)
واعجب له ، كيف يدعو وحده أمماً	عن دعوة الحق - بالأهواء - في صمم
من كل أصيد ، يطوى في جوانحه	- على الضلال - حنايا الوالد الرّحيم ^(٤)
إن قام باللين يسترعى ضمائرهم	رأيت كل حمى بالحنى غوم ^(٥)

(١) اعتصم بجبل الله : امتنع به وجأ .

(٢) رجف : تحرك واضطرب اضطراباً شديداً ، الواجم : الساكت العابس : الطاغوت : كل رأس في الضلال يصرف عن طريق الخير ، السدم - بالتحريك - : الغيظ مع حزن وهم وندم .

(٣) طاش عقله : خف وتشتت فجهل وأخطأ ، الشماريخ - جمع الشمراخ - : غصن دقيق رخص بيت في أعلى الفصن الغليظ ، رضوى : جبل بالمدينة ، وإضم : اسم لأكثر من موضع ، والظاهر أنه يريد به هنا جبلاً .

(٤) الأصيد : من يرفع رأسه كبيراً ، والتكبر المزهو بنفسه ، الجواخ - جمع الجائحة - : الضلع القصيرة مما يلي الصدر ، الحنايا - جمع الحنية - : القوس ، الرّحم - بالتحريك - : الغب اللين ذو العطف .

(٥) الحنى : الفحش في الكلام . العرم - بفتح فكسر - : الشديد الشرس .

أو جاء بالآى مدوا بالخصام له
يحنو عليهم وإن صدوا ، يعلمهم
وكم طفوا لم يقابلهم بما صنعوا
ومن يقف مثله قوماً أحلهم
وكانت وسيلته ﷺ في دعوته إلى الله .. هو كتاب الله الكريم بآياته البينات التي تهدي إلى
الرشد بالبرهان الساطع ، والحكمة الواضحة ، فكان - إلى ذلك - معجزة تنبئ بصدقه ،
وتؤكد أنه مبعوث من الله . هذا الكتاب الكريم الذى نزل به الأمين جبريل وحياً من الله تعالى في
هيئة أحرف عربية ونظم معجز من الكلام ، تحداهم جميعاً - وهم أرباب الفصاحة والبيان -
بأن يأتوا بمثله ، فلم يستطيعوا الا أن يقابلوا ذلك التحدى بالصمت والتسليم .

بيد إن مكابرتهم وعنادهم فرضا عليهم أن لا يدعنوا ، وأن لا يعلنوا عن هذا الاستسلام ،
فحاولوا التحدى من ميدان الكلمة ، إلى ميدان الحرب ، ولجأوا إلى أسلحتهم يشحذونها
ويشهرونها في وجهه ﷺ ومن تابعه منهم ممن جلا نور اليقين بصائرهم ، وبدد من آفاقهم
ظلام الشك ، فعرفوا صدق محمد ﷺ ، وفهموا حقيقة الإسلام . وفي هذا كان قوله :

يدعوهم وكتاب الله آيته
يتلوه في أحرف جاء الأمين بها
لم يبق حين تحداهم به لسن
وإذ قضى العجز فيهم حكمه فزعوا
إلا فريقاً جلا نور اليقين لهم
يهدى إلى الرشد بالبرهان والحكم
وحيا من الله في نظم من الكلم
إلا تردى شعار العي واللسم^(٤)
فاستجدوا بالقنا والصارم القضم^(٥)
عن ظلمة الشك ، بالعرفان والفهم

الإقبال إلى الإسلام وتحدى قريش في العداوة .

وهكذا تهيأت المناسبة أمام الشاعر ليتحدث عنم بادر إلى الإسلام من قريش - بعد أن
زالت عنهم غشاوة الجهل - مبتدئاً بالحديث عن الثلاثة السابقين ؛ أم المؤمنين خديجة التي
صدقها فراستها بما رأته عليه من عظمة ونبل ، فلم تتلجلج في تصديقه ، ولم يغيب عن الصديق أبى
 بكر ما اجتمع إليه ﷺ من امارات النبوة والعلم ، ولم يضلل عليا ما في الصبا من غفلة ؛ فعرف

(١) الأولى : الشديد الخصومة ، الخصم - بفتح فكسر - : العالم بالخصومة وإن لم يخاصم .

(٢) الخدم - بفتح فكسر - : السمع الطيب النفس عند العطاء .

(٣) الطغيان : مجاوزة الحد المقبول ، الأضم - بالتحريك - : إضمار الحق .

(٤) اللسن - بفتح اللام وكسر السين - : الفصح البليغ ، تردى بالرداء : لبسه ، الشعار : ما ولى جسد الإنسان دون ما
سواه من الثياب ، العي - بالكسر - : ضد الإبانة في الكلام ، اللسم - بالتحريك - : السكوت عيا .

(٥) القضم - بفتح فكسر - : القاطع .

صدق محمد ، ورآه بعينى الحاذق اللبيب ؛ فكان هؤلاء الثلاثة فى ميادين الهدى أعلاماً بارزة ، أحرزوا قصب السبق إلى الإسلام ، فكانوا بإسلامهم علامات بارزة اجتذبت إلى الإسلام - على آثارهم - نفراً من قومهم فكانوا جميعاً دعاة وهداة ، أذاعوا الإسلام بالقول وبالفعل فى الدنيا كلها ؛ إذ كانوا بسلوكهم وأخلاقهم وأصول آرائهم قوة ذات أثر فعال ، استطاعت أن تجتذب إلى نور الهدى صناديد يثرب وقادتهم ، فكانوا قوة تدعم ، ونوراً يبدد الغم من سماء الدعوة :

لم يكذب الرأى أم المؤمنين بما
ولم يفت نظر الصديق ما جمعت
ولا أضل على - والصبا غرر -
ثلاثة فى ميادين الهدى سبقوا
جلّوا وصلى على آثارهم نفر
من كل أبلج سام فى أرومته
وكل أروع نجد فى حفيظته
صيد صناديد فى يوم الوعى صبر

تخيلت فيه من نبل ومن عظم^(١)
فيه النبوة من آى ومن علم
فى صدق أحمد رأى الحاذق الفهم^(٢)
فأحرزوا قصب الحسنى بسبقهم^(٣)
سنوا الهدى لبى الدنيا بهديهم^(٤)
من آل فهر كبير القلب ذى شمم^(٥)
من أهل يثرب لا يكسر ولا يرم^(٦)
غر أماجيد كشافون للغم^(٧)

الهجرة إلى يثرب :

ولكن كثرة قريش فرضت لهم من السطوة ما جعل لهم اليد الطولى فى تعذيب المؤمنين ، وتبعهم فى كل مكان للتنكيل بهم ، حتى استمرأ القوم ذلك ، وأهملوا عرف العصبية القبلية ، وبلغ بهم الأمر درجة التخطيط لقتل محمد ﷺ ، فلما عزموا على إنفاذ ما دبروه ، قامت يد الله سبحانه وتعالى بالدفع عنه ، ومقابلة تدبيرهم البشرى بالتدبير الإلهى ، فأخزاهم الله ، ونصر

(١) النبل - بضم فسكون - : الشرف .

(٢) الصبا - بالكسر - : الصغر والحدالة ، الغرر - بالتحريك - : الخطر ، والغرر : الغفلة ، يقال : غر الرجل غرراً : كان ذا غفلة وقلت فطنته . الحاذق : الذى أوغل فى ممارسة العمل حتى مهر فيه ، الفهم - بفتح فكسر - : من جاد استعداده للاستيعاب .

(٣) القصب : كل نبات ساقه أنابيب ، ويقال : أحرز قصب السبق ، أصله أنهم كانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبه ، فمن سبق ألقاهما فعلم أنه السابق .

(٤) جل الفرس تجلية : سبق فى الحلبة . صلى الفرس فى السباق : جاء الثانى فى السباق ، سن الأمر : بينه .

(٥) بليج وجهه - بفتح فكسر - : ابيض وتضر سروراً . الأرومة : الأصل ، آل فهر : أجداد قريش . الشمم : الارتفاع .

(٦) الأروع : الذكى الفؤاد ، النجد - بفتح فسكون - : ما ارتفع من الأرض وصلب ، الحفيظة : الغضب ، والحمة ،

التكس - بكسر فسكون - : الضعيف ، والزذل - بفتح فسكون - : المقصر عن غاية النجدة والكرم ، والبرم - بفتح

فكسر - : السهم الضجر .

(٧) الصيد - جمع الأصيد - : كل ذى حول وطول من ذوى السلطان . الصناديد - جمع صنديد - : الشريف الشجاع ،

الروغى : الحرب ، الصبر - بضمين - جمع الصابر : غير الجازع ، غر - بالضم - جمع الأغر : الذى كرمته فعاله

واتضحت ، أما جيد - جمع ماجد على غير قياس - : النبيل الشريف .

عبده ، وحفظه من كل سوء ، ورد بقضائه عليهم سوء مكرهم ، فرجعوا من محاولتهم تلك بالخزى والندم ، فقد سخر الله لحفظه ﷺ كل ما صادف في هجرته ، فجعل من الغار خير مأوى له ولصاحبه الصديق رضى الله تعالى عنه ، حيث قام الحمام بأجل خدمة في هذا الموقف – حين رآه المشركون في هيئة نبيء بأن أحداً لم يدخل الغار وإلا لطار الحمام ولهدم العش – وكذلك قام العنكبوت بدور الجندى اليقظ ، فقد ضللت المشركين عن الحقيقة ، وأوهمتهم أن وجودها على مدخل الغار يعنى أن الغار خال من الآدميين ، وإلا لتمزق نسجها الذى غطى واجهة المدخل ، وهكذا سخر الله جنوده – على اختلاف ألوانهم وأجناسهم – لحماية من يريد حمايته .

ولما اطمأن ﷺ إلى يأس قريش ، وتوقفهم عن البحث ، يم شطر يثرب ، حيث نهض أهلها لاستقباله في فرح وسعادة ، بينا الكائنات في مكة بالبكاء تشارك البيت والحرم أحزانها لفراقه ﷺ :

لما تمادت قريش في عداوته	ويأتوا قتلته تدير معزم ^(١)
قامت يد الله تخزيهم وتنصره	من ينصر الله يعصمه فيعصم
رد القضاء عليهم سوء ما مكروا	فلم يسوءوا بغير الخزي والندم
يا طيب للغار ، آواه وصاحبه	وللحمام بما أسدت من الخدم ^(٢)
والعنكبوت لها في نصره عمل	عن درك آياته جفن الضلال عمى
من يحمه الله ساوى في حمايته	فعل الجمادات فعل الناس والبهم ^(٣)
لما نحا (يثرب) اهتز الحمى وبكت	وُزق الرنى لبكاء البيت والحرم ^(٤)

الإذن بالجهاد دعماً للظلم .

فلما وصل يثرب – وأصبح ميدان المعارضة أفسح – جاءه إذن ربه باستعمال القوة في دفع الظلم ليحمي. الدعوة بالقول المنطوق ، والكلمة المكتوبة من العدوان ؛ فأصبح على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لينهضوا بمواجهة الشرك في مختلف مواطنه ، فتتابع الداخلون في الإسلام ، والمتعاهدون معه ﷺ على المناصرة ، وهكذا أثبت الواقع أن الناس حين يظلمون الحقيقة ، ويصمون آذانهم عن الكلمة الواضحة ، والبرهان الساطع .. لا يجدى معهم إلا الحرب ، وما كان الناس كلهم من هذا النوع ، فقد كان هناك فريق أسلموا أنفسهم لله ، بعد أن عرفوا حقيقة التجارة الرابحة ، حيث باعوا أنفسهم رخيصة لله ، فأصبحت عند الله غالية

(١) تمادى في العداوة : بلغ فيها الغاية .

(٢) أسدى إليه معروفاً : أعطاه وأولاه ..

(٣) البهم – بضمين – جمع البهمة : الشجاع الذى لا يتهدى من أين يؤتى .

(٤) الورق من كل شيء – بضم فسكون – جمع الأوراق : ما كان لونه لون الرماد ، والمراد هنا : الحمام .

القدر ، وبذلك قدموا أوضح العبر والآيات التي تدل على قوة الإيمان ، حين يقدم الإنسان على الموت غير هياب ، فلا يملك الموت إلا أن يخضع وينذل أمام شدتهم . وتلك هي دروعهم خير شاهد عليهم ، تنبىء بما كان منهم في اللقاءات الحاسمة ، وتلك هي السيوف الصوارم تروى ما صنعه هؤلاء الأبطال في الطواغيت ، موقنين أن كل ما يتحملونه من مشاق إنما هو في سبيل الله ، سواء كان ذلك بتجريد السيوف من أغمادها وخوض الحروب ، أم كان بإغمادها والجنوح إلى السلام ؛ فإن هؤلاء المجاهدين ما حملوا سيوفهم لتحصيل مغنم دنيوى ، ولا استجابة لهُوى شخصى ، فالخيل تعلم أن غايات هؤلاء الفرسان انحصرت في القضاء على الشرك وحصونه ، حتى كان لهم في كل يوم معركة خالدة مثل غزوة بدر التي أصابت المشركين بالخرى والعار ، فكانت أياما خالدة انتصر بها الحق ، ولم تكن معارك دفع إليها السفه والجهل ، كما كان في يومى « الأنعمين » ، و « ذى حُسم » ، إنها أيام بنى الله بها أركان الدين القويم . وأقامه على دعائم العز الخالدة ، ففتح الله بها على العالم أبواب الحضارة والخير الذى شمل الأنام جميعا .

وحين يصل الشاعر الى ذلك يتوجه إلى الرسول ﷺ بالخطاب تعظيماً له وإجلالا ليقدم صورة تحدد معالم الجيش الذى حقق به المصطفى هذا النصر المبين ؛ إذ كان جيشا يضم جندا متميزين ، لا يعرفون الهزيمة ، وما ذلك إلا لأنه يجمع بين كبار الملائكة ، وعظماء القادة مثل جبريل عليه السلام وحزمة وعلى رضوان الله تعالى عليهما ، وغيرهما من الآل والصحب الذين حققت بهم هذا النصر الخالد ؛ فقدمت للدنيا كأس الحضارة الخالصة تنهل منه على مدى الزمان :

ما حل طيبة حتى حل حبوته	للسيف ، يدعو بأمر الله والقلم ^(١)
وأذن الله أن تغشى كتابه	منـازل الشرك فى نجد وفى تهم
فقام أهل المصل والعقيق إلى	نصر النبى ، بعهد غير منفصم ^(٢)
وشيمت البيض ، فاهتز الحجاز لها	واستنت الخيل فى شوق إلى اللجم ^(٣)
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرِب أجدى على الدنيا من السلم ^(٤)
ومعشر أسلموا لله أنفسهم	تبينوا الربح فى بيع وفى سلم ^(٥)
لله ما أَرخصوا من أنفس ذهب	فى الله غالية الأقدار والقيم

(١) طيبة : المدينة المنورة ، الحيوه : الجلوس على الأكلين ، وضم الفخذين والساقين إلى البطن بالذراعين ، ويقصد بكل الحيوه : القيام .

(٢) العقيق : موضع بالمدينة ، وبالإمامة والطائف وبنماة ونجد .

(٣) شام السحاب والبرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره . است الخيل : جرت فى نشاط على سننها فى جهة واحدة .

(٤) اعتسف القوم الطريق : ساروا فيه على غير هدى .

(٥) السلم - بالتحريك - : بيع شئ موصوف فى الذمة بثمن عاجل .

ألقوا على الدهر من آياتهم عبرا
 سل نسج داود إذ هم يخطرون به
 وسل شبا البيض كم شبوا لها لبا
 في الله ما جردوا منها وما غمدوا
 لم يحملوها لنديا - قل ما جمعوا
 والخييل تعلم كم دكت سنايكها
 في كل يوم (كيدر) جرّ أيومه
 يوم قضى الحق ، لا يوم جرى سفها
 يوم بنى الله أركان الحنيف به
 صفت سماء الليالي منذ ليلته
 يا قائد الجيش يسعى تحت رايته
 إن كان جبريل من أركان حربك في
 في آلك الغر ، مذ كانوا وهم بشر
 ويا نبيا سقى الدنيا بملته

وساوروا الموت ، فاستخذى لبأسهم^(١)
 في كل مصطرخ عال ومصطدم^(٢)
 على الطواغيت في أيامها الدهم^(٣)
 في الله ما سفكوا من أنفس ودم^(٤)
 منها - ولا عن هوى في النفس محتكم
 مما بنى الكفر من دار ومن أجم^(٥)
 على العدا كل ماض بالردى خلدم^(٦)
 بالأنعمين ، ولا يوم بدى حسم^(٧)
 على دعائم عز غير منهدم^(٨)
 على الأنام ، فلم تُظلم ولم تغم
 من عسكر الله جنّد غير منهزم
 بدر فحمزة ، والكرار في الحشم^(٩)
 ما في الملائك من أيد ومن كرم
 زوّق الحضارة من سلسالها الشم^(١٠)

فعبد المطلب في وقوفه أمام رسول الله ﷺ - كما نرى - اعتمد على ما تحيى به نفسه
 نحوه ﷺ من حب وإجلال ، وما أقدم به عقله من معلومات تاريخية ، وما خلفه سابقوه إلى
 هذا المجال من خبرات فنية ، فقدم هذه القصيدة المطولة في مدحه ﷺ مدحا لم يخرج فيه قيد أئمة
 عن الحقائق المتواترة التي لا تغيب عمن يعايشه ﷺ .

(١) ساوروا الموت : صارعوه ، استخذى : خضع وذل ، البأس : الشدة .

(٢) داود : نبى الله عليه السلام ، ونسج داود : الدروع ، خطر بالوب : اهتز به وتبخر : المصطرخ : مكان الصياح
 والاستغاثة ، والمصطدم : مكان الاصطدام والتقابل .

(٣) الشبا - جمع الشبابة - : الحد والطرف ، والبيض - جمع الأبيض - : السيف ، شب الرجل النار : أوقدها ، الطواغيت
 - جمع الطاغوت - : كل رأس في الضلال يصرف عن طريق الخير ، الدهم - بضمين - السود .

(٤) جرد السيف : سله من غمده ، وغمد السيف : أدخله في غمده .

(٥) سنايك الخيل - جمع السنبك - : طرف الحافر ، الأجم - جمع الأجمة - : الشجر الكثير الملتف .

(٦) يوم أيوم : طويل شديد ، الخدم - بفتح فكسر - : السريع .

(٧) قضى الحق : أمر ، وظهر ، السفه : الخفة والجهل والطيش ، الأنعمان ، وذو حسم : من أيام العرب .

(٨) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

(٩) الكرار : الذى يحمل على العدو المرة بعد المرة ، ويقصد هنا : على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد اشتهر بذلك ، حتى
 لقب به . الحشم - بالتحريك - : خاصة الرجل الذين يفضون لفضبه ولما يصيه من مكروه .

(١٠) الملة : الدين ، الروق - بفتح فسكون - الصافي من الماء وغيره ، السلسال : القير الصافي ، الشم - بفتح فكسر - :
 البارد .

معايشة المؤمن على الرغم من الفاصل الزمني ، فالرسول صلوات الله تعالى عليه وسلامه يعيش في وجدان كل مسلم !

ومن ينظر في شعر عبد المطلب يلمس مدى احتذائه بسابقه ، ومدى تفرده الشخصي في الوقت نفسه ، حيث دفعته مصاحبة الرسول ﷺ إلى أن يستحضر أحوال أمته على ضوء ما كان من المسلمين الأوائل بقيادة رسول الله ﷺ ، راجيا من وراء ذلك أن تتكرر المعجزة ، ويفيء الله على المسلمين من نعمه ما يوفقهم به إلى قائد يجمع كلمتهم ، وينهض بهم في الطريق المستقيم ، حتى يخلصهم من استبداد المستعمرين بهم ، ويعيد إليهم مكانتهم الريادية ، وحتى يصلح الله بهم ما أفسده الجهل المتخفي في أزياء المدنية الحديثة . !

ولذلك نرى الشاعر في ختام مدحته يوجه أنظار المسلمين إلى ما كان عليه أسلافهم ، وما قدموه في كنف رسول الله ﷺ من توضيحات وجهاد متواصل ؛ مشيرا إلى البعد الحضاري لما قدمه ﷺ للبشرية جمعاء !



— ٤ —

على أحمد باكثير^(١) فى قصيدته (نظام البردة)

(١) على بن أحمد بن محمد باكثير الكندى ، ولد سنة ١٩١٠ بمدينة (سوريا) الأندلسية ، حيث مهاجر والده إلى حضرمين ، ولكن الدكتور أحمد عبد الله السومحى رجح أن يكون مولده سنة ١٩٠٨ . وعندما بلغ الثامنة ، أرسله والده موت لينشأ تنشئة عربية خالصة لبدأ خطواته على طريق الثقافة العربية الإسلامية ، حيث أحيط بيته - خاصة وعامة - بفص بعوامل الإثارة فى مجالى العلم والأدب ، خصوصاً فى ظل ما كان يضمه المجتمع الحضرمى من صراع وتناقضات .

وتوجه باكثير إلى الاكباب على قراءة الكثير من النتاج الأدبى المصرى المعاصر قراءة مستوعبة ، إلى جوار الكثير من كتب التراث العربى ، فاستطاع أن يوازن بين السلفية والمعاصرة ، ولم يسلم نفسه لسجن التراث ، ولا لتفسيخ الانفتاح على الحياة العصرية وحدها .

وفى سنة ١٩٣٢ سافر إلى الحجاز ، فأنشأ هناك صداقات مع طائفة من الأدباء والمصلحين ، وقدم مطولته (نظام البردة) ، كما كتب فى الطائف مسرحية (همام أو عاصمة الأحقاف) إلى جانب الكثير من القصائد التى ضمنها كراسة تحت عنوان (الحجازيات) .

وفى مصر التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية سنة ١٩٣٤ ، بعد أن حصل على درجة الليسانس فى الأدب الإنجليزى .

وفى المنصورة - التى عمل بها مدرساً واصل نشاطه الأدبى ، فكتب عدة أعمال أدبية ، مثل مسرحية (أختاتون ونفرتيى) التى كتبها بالشعر المرسل ، منضجاً بذلك تجربته فى هذا الميدان ، حين ترجم مسرحية (شكسبير) ، و (روميو وجوليت) إلى العربية فى شعر مرسل ، ليؤكد مقدرة اللغة العربية فى هذا الميدان .

وكتب فى المنصورة عدة مسرحيات ، من أهمها (الفائر الأجر) ، و (سلامة القس) .

وفى سنة ١٩٥٠ انتقل إلى القاهرة ، مواصلاً نشاطه الأدبى ، فبدأ نجمه يلمع فى سماء الأدب . وفى غرة رمضان سنة ١٣٨٩هـ الموافق ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٩م أسلم روحه إلى بارئها ، ودفن فى مقبرة عائلة زوجته المصرية بمداخل الإمام بمصر .

لزيد من التفصيل راجع) على أحمد باكثير حياته ، شعره الوطنى والإسلامى (للدكتور أحمد عبد الله السومحى ، إصدار النادى الأدبى الثقافى بمجة ، و (مدخل إسلامى لدراسة الأدب العربى المعاصر) للدكتور إبراهيم عوضين طبع القاهرة ، و (ديوان على أحمد باكثير) تقديم وتحقيق الدكتور محمد أبو بكر حميد طبع الدار الجنية للنشر والتوزيع .

في سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م ذهب بالكثير إلى مكة ليؤدي فريضة الحج ، وفي جوار الكعبة المشرفة ، استشرفت نفسه أن تتخلص من أوزارها ، وتتخفف من أنقال الحياة المعقدة ، وتنفض عنها ما ران عليها من أصداء ، وتفر من ماديات الحياة العصرية الكثيفة وتتوب إلى الله خالصة .. فتجاوبت مشاعره مع نفسه ، وحلقت به في سماوات هذا الجو الروحاني ؛ لتمده منه بشيء من نسائم الحياة الحقيقية ، التي تعبق برائحة الراحة والأمان ، والتي تحمل من إشعاعات الرضوان ما تكشف به أمام البصائر أخطار ما تخفيه ماديات الحياة ، فحركت فيه وثبات الآمال ، وجسمت الأحلام والأمانى وشخصتها ، بعد أن أسقطت عنها ما شابها من أكرار ... !

وفي غمرة هذه المشاعر الفياضة رأى بالكثير في هذا الجو القدسي الباهر نجمة الأمل تبدد من نفسه ظلمات كثيفة أناخت بكلآكلها على قلبه ، حتى كادت تقضى عليه ، وتقصيه بعيدا عن ميدان الإيمان الرحيب ، ويجتر آلامه ، ويستبد به القلق ، فينزف كل مصادر الخير فيه . !

لقد رأى الشاعر في جوار الكعبة المشرفة ، نجمة تشع في نفسه الأمل من جديد ، فتعلق بها يستهديها الطريق المستقيم ؛ رجاء أن يتخلص من شقاء الحياة ، وأن يجد في إشعاعها ما يبدد ظلام الحياة القارس ، وينجو بنفسه من برد الشتات إلى دفء الإيمان ، ويأنس إلى نور الحقيقة الغائبة البازغ منها ، فيبدد عن عقله ما تسرب إليه من شكوك وريب !

فما كان من الشاعر الشاب ابن الخامسة والعشرين ، إلا أن يسلم نفسه — بكل أبعادها — لتجربته الذاتية تلك ، فتمزج في دقات شعورية وجدانية مواردة ، دفعت الشاعر — بما أوتيته من موهبة تعبيرية مع ما تلقاه من سابقه على هذا الطريق من تجارب — فقدم للعربية تلك القصيدة ، مهديا إياها إلى روح والده الكريم ، ليقوم هو — بدوره — بتقديمها بين يدي صاحب الذكرى محمد ﷺ ؛ لما يتوسم في أبيه من إحسان وتقوى ، ورطابة لسان بذكر الله ، وتقريراً منه لذلك جعل عنوانها (نظام البردة) ، إيماء إلى أثر البوصيري والبارودي وشوقي وغيرهم فيه .

وهكذا استطاع بالكثير على مدى خمسة وخمسين ومائتي بيت — أن يمزج واقع الأمة الإسلامية — كما يراه — بأحداث التاريخ الماضية ، في محاولة ليقدم صورة للمستقبل الإسلامي الذي يرجوه .

وبذلك جاءت القصيدة تعبيراً صادقا عن واقع المسلمين ، وتصويراً للمستقبل الذي تحمله آمال المخلصين للأمة .. على الرغم من أن المقصد الأساسي للقصيدة هو الحديث عن سيدنا محمد ﷺ ، حديثا يكشف عن بعض شمائله ومناقبه وآثارها في الأمة على مدى أربعة عشر قرناً .

ومع مطلع القصيدة تبدو استقلالية الشاعر عن سابقه ، حيث لم يلتزم المقدمة الطللية — على اختلاف مذاقها — ولكنه يشغل بواقعه وواقع الأمة الإسلامية ، وما يستشري فيه من

ظلام يتخبط به السارى ، حتى يكاد الشاعر لا يعرف نفسه مما يطويه من أمواج هذا الظلام الدامس الذى يرين على عقله وقلبه ، فلولا تلمسه جسمه لتأكد لديه أنه غير موجود !
والشاعر - إذ تمور نفسه بهذه المشاعر والأحاسيس - تبدو لعينيه فى حاله الظلام إشعاعاً وانية من أمل ، فيتوجه إلى تلك الإشعاع راجياً أن تكون دليلاً المنقذ فى هذا الظلام الحالك ، فيقول :

يانجمة الأمل المغمى بالألم كوى دليلى فى محلولك الظلم^(١)
فى ليلة من ليالى القر حالكة صخابة بصدى الأرواح والديم^(٢)
دجى تنالى ، كأمواج المحيط بها عقلى ، وقلبى ، وطرفى ، كل ذاك عمى
أكاد أرتاب فى نفسى فأنكرها لولا ميسس جسمى غير متهم
فى نفث هائل ، جم مزالقه رهن الحياة به فى زلة القدم^(٣)

وهكذا .. نبه الشاعر - من أول الأمر - إلى ما تضطرب به نفسه من حيرة وتوجس ، يكاد الشك معهما يفقده إحساسه بوجوده ، كما نبه إلى توجهه الاستقلالى فى مدحته ، على الرغم من إعلانه الصريح فى العنوان ، عن التزامه بمحاذاة البردة .

وينطلق الشاعر من الوصف المجمل لمعاناته النفسية .. إلى التفصيل النسبى ، الموضح لمنشأ هذه المعاناة ، فيذكر أن خشية المزالق تساوره على طريق لا يأمن سالكه الزلل ، لما ينتشر فيه من الأهوال ، فسالكه مهدد بتلك الأهوال ، ومجتنبه مهدد بالموت ، ولذلك لا يملك إلا أن يكرر توجهه إلى نجمة الأمل بالدعاء والرجاء أن تشرق لتنير له السبيل ، فإن نجاته متعلقة بنورها وحدها ، وحياته مرتبطة بها أوثق ارتباط ، حتى أصبحت هى الحياة نفسها ، ولولاها لأطبقت عليه الهموم والأسقام فضيقت عليه سبل العيش .

ولا عجب فى تحميل نجمة الأمل هذا كله ، فهى التى بإيماءتها تفتح أبواب الآمال على مصراعها أمام كل من ضاقت به السبل ، حتى كاد اليأس يقتله ، فتنبئه بإيماءتها تلك أن ما أصابك زائل ، وأن ما أصابك يوشك أن ينقشع ، وأن خير علاج لليأس هو التفاؤل ومواجهة الشدائد بالابتسام وأسباب السرور ، وذلك فى قوله :

على طريق كحد السيف ، مسلکها هوّل ، وخيذى عنها الموت من أم^(٤)
فأشرق وأنيرى لى السبيل ، فما لى غير نورك من منجى ومعتصم

(١) المغمى - يفتح فسكون فكسر - : المغطى ، اخلو لك : الذى اشتدت حلكته وسواده كاخترق .

(٢) القر - بالفتح - : البرد ، الصخاب : متلاطم الأمواج ، الصدى : رجع الصوت ، الديم - جمع الدية - : السحابة الممطرة الدائمة المطر .

(٣) النفث : المرتفع بينه وبين الأرض مهوى : والمفازة البعيدة .

(٤) الحيد - يفتح فسكون - : الميل ، يقال : حاد عن الطريق : إذا مال عنه . الأثم - بالتحريك - : القرب ، والبين من الأمور .

أنت الحياة ، ولولا أنت ما اتسعت
 ثلوحين لمن ضاقت مذاهبهم
 وأن هذه نوبة في الخال زائلة
 والوهم أمتن أسباب الحياة ، له
 وإن هذه المعاناة لتبلغ بالشاعر درجة تفعم قلبه بهموم تجعله كالبركان الذي يقذف بالحجم ،
 حتى إنه ليغن من ثقل الآمال التي يضطر إليها أمام وطأة ما يجيش به من الهموم ، على ما يصوره
 قوله :

يا ويح قلب مجنبي ، لا هدوء له
 يخيش بالهم ، كالبركان بالحُمم^(٢)
 يئن من ثقل الآمال تبطله ؛
 أن الهموم رسالات من الهمم^(٣)

واقع الأمة العربية .

ثم يأخذ في الإفصاح عن أسباب تلك الهموم المؤتسة ، فيذكر أنه ينظر بعين التأمل إلى
 العروبة - التي أصابها الزمان بالبؤس بعد العز والرفعة - فيجد شعوب الغرب قد تقاسمتها ،
 بقصد القضاء عليها ، فأصبحت خاضعة ذليلة أمام قراراتهم ، فهي تساق كما تساق الأنعام
 والشيء .. ويذكر أن ينظر إلى الدين ، فيرى الأعداء يفتكون به ، ويصيبونه بشتى ألوان
 المصائب ، حتى تجرأ هؤلاء الأعداء ، وجاهروه بالعداوة ، وأصبحوا يكيدون له بيننا في وضع
 النهار ، على مرأى ومسمع من علماء الأزهر ، الذين رصدوا - في الحقيقة - للدفاع عنه ،
 ومنعه من تجاوزات المعتدين .. وأنه يتأمل واقع العرب فيجدهم غارقين في الجهل والفوضى ،
 لا تقوم حياتهم على نظام ، ولا يحافظون على عمل ، ولكنهم يتفننون في البحث عن الطعام .
 وتصنيفه ، مهملين ما تقتضيه الحياة ، فاستبد بهم الاختلاف ، حتى مزقهم ، فتركهم كيانا
 ضعيفا وانيا .. فقال :

أرئو إلى (يعرب) ، والدهر يعرضها
 رواية البؤس ، بعد العز والنعم^(٤)
 تقاسمتها شعوب الغرب تدفمها
 إلى المهالك ، سوق الشاء والنعم
 وأرمق (الدين) ، والأعداء ثوسعه
 فتكا ، يضاف إلى أدوائه القدم^(٥)

(١) الرجم : بالتحريك - : القبر ، والبئر ، والتور .

(٢) جاش القلب : غلى غيطاً ، وجاشت العين : فاخنت بالدموع ، وجاشت النفس : اضطربت من حزن أو فزع ، الحمم

- بضم ففتح - : كل ما احرق من النار .

(٣) بهظه الأمر - بالتحريك - : شق عليه .

(٤) رنا إليه : أدام النظر في سكون طرف . يعرب - بفتح فسكون فضم - : هو ابن قحطان ، أبو اليمن كلهم - وهم العرب
 العاربة - نشأ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام معهم فتكلم بلسانهم ، فهو وأولاده : العرب المستعربة . والمقصود هنا :
 الأمة العربية جميعها .

(٥) رمق الشيء : أبغمه بصره يتعهد وينظر إليه ويرقبه ، أوسع فتكاً أو ضرباً : زاده منه وكثره له . الأدوية - جمع الداء - :
 المرض ، والقدم - بضمين - جمع القادم - : يقصد الأمراض القادمة على الدين من خارجه .

يُكاد في داره ، ظهر النهار ، على
وأرجع الطرف في (الأحقاد) غارقة
تفنت في ملاذ العيش تاركة
والخلف محتكم فيها يمزقها
مرأى العمائم من أهله والحمم^(١)
في الجهل فوضى بلا عمل ولا نظم
ما تقتضيه ، فلم تفطر ولم تصم
حتى يغادرها حما على وضم^(٢)

عندئذ يتساءل الشاعر مستنكرا أن يتمكن أحد ذو حس حيوى على القرار مع هذه الحياة
الفارغة من كل قيمة ، الخاضعة لكل أسباب الهزيمة ، بحيث لا يجد الإنسان الكريم له مكانا مع
تلك الأحوال التى يذوب لها قلب المخلص ، ويمتزج دمه بدمه ، حسرة على وطنه المهتك
المضاع .. ويتمنى أن لو عثر على الوسيلة التى تدفع به إلى العلياء بعد أن اشتد شوقه إليها ، ولكنه
يقف عاجزا عن اقتحام الصعاب التى تمنعه عنها ، حتى أصبح شوقه إليها ، وعجزه عنها يعذبانه
عذابا ألما مضطرا .

كيف القرار على حال يذوب لها
يالىت شعري ! ألعلياء من سبب
شوق إليها ، وعجزى عن تسلقها
قلب الكريم ، ويجرى دمه بدم !
ألفيه يقذفنى منها إلى القمم !
يعذبانى عذاب الويل والضم !

ومع استغراق الشاعر في هذا الخضم الزاخر من المهوم النفسية المتولدة من تمثله ما حاق به
وبأتمته وبدينه من أعدائه وأبناء جلدته معا .. أو ما إلى أن شواغله الواقعية تلك كانت أقوى من
شواغله التقليدية التى تعود الشعراء أن يجعلوا منها مطالع لقصائدهم ، حيث يقفون على أطلال
الأحباب ، ويحترون ذكرياتهم معهم .. وليس ذلك لأنه تجاوز مراحل الحب ، وما يستلزمه من
بكاء وأسى لفراق من أحب ، فقد استبدل بهذا الحب حب أمته ، واستبدل بشواغله بما يتصل
بتلك العلاقات الشخصية شواغله بأتمته وبدينه ، وبما أصابها في هذه الآونة من مصائب
وكوارث تنبض بالأسى ، وتفويض بالآلام .

ومن هنا .. قرر الشاعر أنه إذا ابتداء مدحته باكيا ، فهو لا يبكي ما بكاه غيره من الشعراء من
فراق محبوب ، أو دروس معالم ، أو نأى جيران ، ولكنه يبكي استسلام أمته للجهل بعد
ما تخلصت منه ، ووقوعها فريسة الظلم والفوضى ، فهو ليس الشاعر المقطوع عن أمته ، أو
المعزول عن مجتمعه ، أو المستغرق في عواطفه النسائية ، ولكنه الشاعر ذو الطموح الإنسانى - بما
يقوم عليه من وفاء وحفظ عهد - الذى لا يستطيع أن ينسى آلامه الشخصية إذ فقد زوجته وهى
في مقتبل عمرها .. في زحام آلامه العامة تلك ، فهذه وتلك قد أناخا بكلا كليهما عليه ، لأنه
إنسان سوى يضم جوانحه على العاطفتين معا ، ويؤمن بأن ذلك هو التوازن مع فطرة الخالق :

(١) العمائم : يقصد لابسى العمائم وهم علماء الأزهر ، الحمم - بضم ففتح - جمع الحميم - : القريب الذى توده ويودك

(٢) الوضم - بالتحريك - : نكل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصى أو نحو ذلك ، يوق به من الأرض .

والحب يُقصر من خطوى ، وهل عرفت
أوفى وأقوم في هَجَر وفي صلة
بُلِيت منه بخطب لا عزاء له
ولن يزال وطيس الحب في كبدى
وما الحياة بلا حب سوى جف
عن فطرة الله ، أو ضرب من العدم^(٢)
(معبودة الحب) مثلى عابداً صنمى
منى بحفظ عهود الحب والذم؟!
إلا اللقاء بدار الخلد والسلام
يرمى بذى شرر كالنصر مضطرم^(١)

فليس تركه التمهيد لمدحته بالحديث ناشئا عن جفاف عاطفى ، ولا عن جفاء فى الطبع ،
فالحب الإنسانى فطرة الله التى تلازم الحياة ، ولكنه ترك ذلك لاشتغاله بما يلى به فى حبه ،
وبما أصابه فى أمته !

إن المعاناة النفسية هى التى وجهت الشاعر تلك الوجهة ، وهى التى تحرك أشجانه ، وتثير
ذكرياته العامة !

وتحت تأثير هذه المعاناة ، ينظر إلى ما مضى من عمره - بعد أن يتلفت وراءه - فىرى أن
أوائل الشباب قد نددت عنه ، دون أن ينال ما يروى ظمأه من حوض الحياة القريب من تناوله ،
فقد مضى من العمر خمس وعشرون عاما ، كما يمر الطيف فى الحلم ، من غير أن يدرك شيئا من
مقاصده ، فلا يملك إلا التحسر على ما فات ، وردع نفسه عن مواصلة السعى وراء المطامح ،
منكرا الطمع فى تحقق المقاصد بعد فرار الشباب - بما يلامسه من طموح - من بين يديه ،
وما ذلك إلا لأن الشيب يصيب الإنسان بجم يصد عنه اقتحام العقبات ، سعيًا فى طلب المجد ،
فالشباب هو الآلة المعجزة التى يصل بها الإنسان إلى ما يريد . وفى ذلك يقول :

ويح الشباب ، وقد نددت أوائله
(خمس وعشرون) لم أدرك بها غرضا
يا ويلكاه! أبغى أن أسود إذا
ولى الشباب ، وما فيه من العرم؟!^(٣)
هيأت .. هيأت ، إن الشيب مجبنة
تصد عما يريد المجد من قُحم!^(٤)
إن الشباب براق المجد يركبه
إليه كل فتى شيحان معترم!^(٥)

عندئذ يسائل الشاعر نفسه - مستنكرا - عن سبب وقوفه مستسلما للدهشة ، مستغرقا
فى الندم ، بعد أن تكشفت له حقيقة الحياة ، ورأى نور الله - بما يحمله من الآمال العراض - يوم

(١) الوطيس : حفيرة يختبئ فيها ويشوى .

(٢) الجنب - بالتحريك - : الميل والجور .

(٣) ويح : كلمة ترحم وتوجع ، ند البعير : نفر وشر ، ونددت الفكرة عنى : غابت عن ذاكرتى ، ولد الشباب : ولى .

(٤) عرم الصبى علينا - مظلة - : أضر ومرح ، أو بضر ، أو فسد ، أو اشتد وشرس .

(٥) القحم - بضم ففتح - : جمع اللقمة : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

(٦) البراق : اسم المظلة التى كان بها الإبراء والمعراج ، ويطلق على كل دابة مسرعة ، الشيحان - بفتح فسكون - : الجاد الحريرى .

الوقوف بعرفة ، حيث تخلص من أدران الحياة المادية ، وتجرد من معاييرها ، وأصبح أمام الله الواحد الحكم ومعه تلك الجموع التي أتت من كل فج ، وكلهم وقوف خاشعون ، يتجهون إلى الله مولاهم ، ودموع الندم والتوبة تنساب من عيونهم ، منذ أعادت إليهم البطحاء ذكريات المصطفى ﷺ حية زاخرة .. إذ يقول :

فما وقوفك مشدوها ، تردد ما بين النكوص على الأعقاب والقدم^(١)
وقد بدا لك نور الله متقددا (يوم الوقوف) ، أمام الواحد الحكم
حيث الجموع خشوع يلجأون إلى مولاهم بدموع التوب والندم
مذ شاهدوا هذه (البطحاء) زاخرة بالذكريات (لطف) سيد الأمم

الدعوة لزيارة المسجد النبوي :

ومن هنا ينطلق الشاعر في طريقه للتخلص من مقدمته إلى موضوعه الأصيل – على الرغم من تلك العلاقة الوطيدة بين المقدمة والموضوع – على عادة السابقين من ركوب ناقة تخلصه مما هو فيه لتوصله إلى ممدوحه !

والشاعر هنا انتهر فرصة الحديث عن الوقوف بعرفات ، وما يستتبعه من ارتحال ، ليأخذ طريقه في التخلص كي يرتحل من هذا الحديث الشاكي الباكي ، إلى الحديث عن سيدنا محمد ﷺ !

وبذلك .. جعل التخلص الفني وسيلة للتخلص النفسي ، فدعا إلى جمع المتاع ، وركوب ظهر مطية سريعة لينة مريحة ، لا تحتاج من راكبها إلى بذل جهد في حثها على السير ، لأنها مثل الشاعر ومدعويه ، تسير مدفوعة بقوة جذب ذاتية ، حتى بلغت السرعة براكبها أن أصبح يرى الأشياء على عكس واقعها ، إذ يرى كل ما يقابله في رحلته مدبرا ، كأنه منهزم يلحق بمنهزم وكأنما المطية السابحة قد انطلقت هذه الانطلاقة لامتلائها بالغيط ، فلم تملك إلا أن تندفع في قوة لتخفف عن نفسها من آثار نار الشوق المحتدمة في أعماقها ، أو كأنها باحث مستكشف ، انطلقت في تلك السرعة الهائلة لتسبق إلى الأنباء المجهولة ، مخلفة وراءها الكثير ممن لا يقدر على مثل سرعتها ، فكانت في طي البلاد وفي وقوفها على المجهول كالمؤرخ الذي يمر بذاكرته – في لمح البصر – على مختلف الأعصار والأمم .

وهكذا .. قاد الشاعر متلقيه معه – في تلك السرعة الخاطفة – إلى مدينة رسول الله ﷺ ، ثم أخذ يهتبه بكل أسباب الأدب ، كي يؤدي الزيارة لمسجد رسول الله ﷺ ، فدعا إلى استجماع الأحوال المناسبة لجلال الموقف من تهيؤ قلبي ، ونفسي ، وجسمي ، ثم يدخل المسجد بقلب خاشع ، وثمر مبتسم ، ويعمد إلى الروضة الشريفة ليصلي ركعات يحیی بها المصطفى

(١) شدته الأمر : أدهشه ، النكوص : الرجوع ، تكسر على عقبه : رجع عما كان عليه .

ﷺ ، ويلقى عليه تحية السلام ، ثم يأخذ في اجترار سيرته ﷺ ، حتى يطوف تاريخه بذاكرته أمام روضته المشرفة ، فيرى الكمال الخالي من الشوائب والأوهام ، حيث يقول :

فاجمع متاعك ، واركب ظهر ساجدة	هول ، تسير بلا رحل ولا لجم ^(١)
تجربى فتبصر بالأشياء مدبرة	كأن منهزماً في إثر منهزم
كأنما امتلأت بالغيظ فانطلقت	تنفساً عن شواظ منه محترق ^(٢)
أثبتت (ويخلق ما لا تعلمون بها)	وغيرها من بنات العلم من قدم ^(٣)
تطوى البلاد كما مر المؤرخ - في	لمح - بمختلف الأعصار والأهم
حتى إذا وجدت عينك نفسك في	ربوع (طيبة) ذات المنهل الشيم ^(٤)
فيمم (المسجد الميمون) في أدب	بقلب مذكر في ثغر مبتسم ^(٥)
واعمد إلى (الروضة) الغنا فحي بها	خير الخلائق من عرب ومن عجم !
قل : السلام على فخر الوجود ، على	خير النبيين طه ، المفرد العلم
واستجل سيرته قدام روضته	تر الكمال بلا زيغ ، ولا وهم

ويواصل الشاعر مسيرته ، فينتقل من وصف ما يستقبل به الزائر مواطن الذكريات في مسجد الرسول ﷺ .. إلى وصف ما يلبس الإنسان في أثناء تلك الزيارة من أشواق وردود فعل ، ففي هذا المكان المشرف ، وأمام هذا القبر الفواح ينهض الشوق مجرداً مائلاً ، حتى كأنه كائن شاخص ، ينبىء بما يكون عليه الزائر من حيرة واضطراب حول ما يعبر به عن مشاعره تلك ، أعلن عما يكمن داخله من تعلق به وولوع بصحبته والمثول أمامه ، أم يترك لعينيه العنان فتفيض بدموعها معبرة عن هذا المكنون ، أم يستسلم لانتفاضات ضلوعه كأن بداخلها ما يود أن يقفز فرحاً محيياً ، مصوراً أشواقه ؟!

إن هذا الموقف الجليل يصاب فيه البليغ بالبكم فلا يملك ما يعبر به عن مشاعره . وفي ذلك يقول :

هناك .. حيث يقوم الشوق في خجل	لدى الجلال ، جلال المجد والكرم
تبدى ولوعك ؟ أم تدرى دموعك ؟ أم	تهفو ضلوعك للآيات والعظم ^(٦)
وما تبث من الأشواق في حرم	يصاب فيه بليغ القول بالبكم ؟!

(١) الناقة الهول : التي تفرع من سرعتها وقوتها ، الرحل - بفتح فسكون - : ما يوضع على ظهر البعير للركوب .

(٢) الشواظ - بضم الشين وكسرهما - : اللهب لا دخان له . احتدمت النار : انقادت .

(٣) أبى : نيا عن مكانه ولم يستوفى المكان المناسب له .

(٤) المنهل الشيم : ذو الماء البارد .

(٥) المذكر : المتذكر .

(٦) الولوع : التعلق الشديد بالشئ ، هفا الطائر : خفق بجناحيه .

اجترار طرف من سيرته صلى الله عليه وسلم :

وعندما يدرك الشاعر أنه قد أفرغ الشحنة الوجدانية ، التي أنفعت بها نفسه في رحاب سيدنا محمد ﷺ ، يعود إلى الذاكرة ليحرك الكامن فيها من سيرته ﷺ ، حتى يتمكن من نفخ الروح في الموقف ، وبعث الأحداث من طوايا التاريخ ، كي يشاهد وقائعها ، فيمتع نفسه برؤية المصطفى ﷺ يتكلم ويتحرك ويتنفس .

ومن هنا .. يأخذ في عرض بعض ما يرى من وقائع وأحداث ، كي يشرك المتلقى معه فيما يراه ، فيقول : كان الرسول هنا يقدم للناس النور الهادي في عبارات واضحة بيّنة ، كان هنا يلقي نصائحه على المسلمين ، فيطربون لها ، ويقبلون عليها ، وكان هنا يفصل في الأمور ، ويقتضي في المشكلات بأحكام عادلة ، وكان هنا يرتب جيوش المسلمين ، ويعددهم الإعداد المحكم ليدفع عن دين الله وعن المسلمين عدوان المعتدين ، وكان في هذا المكان يجلس بين أصحابه يستشيرهم فيما يطرأ من مشكلات ، وفيه يستقبل طالبي المعروف بما أنعم الله عليه ، وفيه يقابل وفود القبائل المختلفة ، موضحا لهم أمر ربه بوجه باش وثمر مبتسم ، ومن هذا المكان كان يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى دين الله ويحملهم مسئولية أقوامهم .. في هذا المكان الذي ضم تلك الأحداث العظام .. دفن أعظم رجل عرفته الدنيا ، وأفضل مخلوق :

كان الرسول هنا يلقى هدايته	على الأنعام ، بلا عى ، ولا لسم ^(١)
كان الرسول هنا يلقي نصائحه	فيطربون لها أشجى من النغم ^(٢)
وكان يقضى هنا بين الورى حكما	أكرم بأحمد من قاض ومن حكم
وكان من ههنا يزجى كتابه	لنصرة الدين من أصحابه البهم ^(٣)
ويستشيرهم في المشكلات به	وفيه يستقبل العافين بالثقم ^(٤)
وفيه يلقى وفود الناس آتية	من كل صوب ، بثغر منه مبتسم ^(٥)
ومنه يبعث بالذكرى رسائله	ورسله للملوك العرب والعجم
هنا .. ثوى رجل الدنيا وواحد	هنا .. ثوى خير من يسعى على قدم

والشاعر بهذا الاستذكار التاريخي ، حريص - كما رأينا - على أن يستحضر الأحداث والمواقف بحيويتها وحركاتها ، وكل ما لابسها من خلجات شعورية ، وتدابير عقلية ، حتى لكأنه ملك آلة الزمن ، فرجع بها إلى هذه المرحلة ، ليعيش في صحبة رسول الله ﷺ ، فينبض

(١) النعى - بالكسر - : ضد الإبانة في الكلام ، اللسم - بالتحريك - : السكوت عيا أوحيا .

(٢) الشجى : الاهتمام والحزن .

(٣) أزجى القائد كتابه : ساقها ودفعها ، البهم - بضمين - : الشجعان الذين يستبهم متأهم على أقرانهم ، والمفرد بهم .

(٤) العافون - جمع العافى - : كل طالب معروف ، النعم - بالتحريك - : المال السام ، وأكثر ما يقع على الإبل .

قلبه بما كان ينبض به قلب كل واحد من صحابته عليه السلام ، وبذلك يتمكن من تقديم الصورة الحية الصادقة ، فلا يجد صعوبة في مواصلة رحلته التي يزعم أن ينبض بها ، وهو مطمئن إلى أن أحدا من المتلقين لا يخالجه أدنى شك فيما يقدم من معالم الصورة المحمدية .

ومن هنا .. يأخذ الشاعر طريقه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبدأ بالتعريف به من جهة أصوله ، إذ اختاره الله من نسل إبراهيم خليل الرحمن ، من فرع إسماعيل الذبيح بن إبراهيم ، من عدنان الكريم ، من كنانة ، من مضر ، من قريش ، ثم من هاشم الجواد ، فمن جامع الفضل والشيم عبد الله بن عبد المطلب ، فكانت تلك الأصول عقدا نظيما من النسب لا يماثله عقد آخر ، حتى لكأنما الخلق روض ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو في هذا الروض خلاصة عطره والفواح ، فمد ولدته الدرة العصماء آمنة بنت وهب ، أشرق الكون من أنواره ، واهتز أهل السماوات فرحا بمقدم من علق به إنقاذ الكون مما ساءه من آثام ، فالخور تغنى معلنة سرورها ، وملائكة الرحمن تضاعف من تسبيح ربها شكرا له ، وإظهارا لبشرهم بمجيء ماحي الظلم والظلام ، وفتحت أبواب الجنان مشرقة مرحبة ، وتجلي الله على الكون برحماته .. وذلك قوله :

اختاره الله من نسل « الخليل » ، فمن	فرع (الذبيح) ، فمن (عدنان) ذى الكرم
فمن (كنانة) في العلياء من (مضر)	فمن قريش ، فمن (عمر) الندى الهشم ^(١)
فالأبيض الفهر ، والميمون طالعه	فجامع الفضل (عبد الله) والشيم
عقد من النسب العالى يفوق على	عقد من الدر والألماس منتظم !
كأنما الخلق (روض) والرسول به	(خلاصة العطر) من أزهاره الفهم ^(٢)
جاءت به الدرة العصماء (آمنة)	فأشرق الكون من أنواره العمم ^(٣)
واهتز أهل السماوات العلى طربا	بنقد الكون مما فيه من أثم ^(٤)
وغنت الخور أصوات السرور على	مقاعد النور في قدسية النغم
وسبحت ربها الأعلى الملائك عن	شكر وبشر بماحى الظلم والظلم
وأشرقت رُحُب الجات وانفتحت	أبوابها ، وتجلي الله بالرحم ^(٥)

من شائكه وصفاته :

والشاعر — حين يعرف برسول الله صلى الله عليه وسلم — يرصد بعين الفنان المسلم من أطوار حياته صلى الله عليه وسلم ما يومية الى علاج مشكلات المسلمين في هذا العصر الحديث ، فهو مدح موظف ، لا يقف به الشاعر عند حدود اجترار الذكريات ، أو استذكار الأحداث والمواقف ،

(١) عمرو الندى : هاشم بن عبد مناف ، والهشم — بفتح فكسر — : السخى .

(٢) الفهم — بضمين — جمع فهوم ، مبالغة من فهم الطيب فلانا — بالتحريك — : ملأ بخياشيمه .

(٣) العمم : العامة .

(٤) الأثم — بالتحريك — : الخطيئة .

(٥) الرحم — بضمين — الرحمة .

ولا يقصره على تقصى فضائله ﷺ وإبرازها فحسب ؛ ولكنه في مسيرته الفنية هنا يعيش بمشكلات الأمة في صحبة رسول الله ﷺ .

ومن هنا ... نرى أى الشاعر جعل من التعريف بأصوله ﷺ تمهيدا لربط الأمة — بمشكلاتها في القرن العشرين — بمنقذ الانسانية منذ مبعثه في القرن السابع الميلادى وعلى هذا الطريق واصل الشاعر مسيرته فقدم لنا محمدا ﷺ من خلال شمائله وسجاياه ، فاهتم بإبراز صفاته المعنوية ، ولم يقدم من صفاته الجسدية إلا ما يدعم غايته .

فعلى الرغم من أن محمدا في طفولته وصباه وشبابه لم يكن يعلم بما هو مذكور له .. سار بتوجيه ربه في الطريق الذى يعد لتخريج الأنبياء المرسلين ، فقد حلاه الله بكل خلق عظيم ، وشيمة عالية ، حتى كان سلوكه مثار حديث قومه ، فكان بينهم شامة بيضاء ناصعة في ثوب أسود فاحم السواد ، بما برز له من استقلال ذاتي في كلامه ، وفي لهوه ، وفي شتى ضروب الحياة العامة . فلم يتابعهم فيما هم عليه من أساليب الحياة إلا أن يكون خيرا ؛ فما شرب خمرًا كما كانوا يشربون ، ولا لها كما كانوا يلهون ، ولا عكف على صنم كما كانوا يعكفون ، ولا عرف عنه الكذب في يوم من أيام حياته .. وفي ذلك يقول :

يوما لأمته ، دع سائر الأمم	ما كان يعلم أن الله مرسله
بكل عال من الأخلاق والقيم	لكن مولاه قد حلاه من صغر
فيما يجيئون من فكر ومن كُفٍّ ^(١)	فكان في قومه بدعا يباينهم
يشرب وَيَلْهُ ، ولم يعكف على صنم	وصانه الله عما هم عليه فلم
فكيف يعرفه عن بارئ النسيم ؟	لم يعرف الكذب يوما ما على أحد

المرأة ودورها البناء في الإسلام ،

وكانت خديجة بنت خويلد — على غناها ووعبها وذكائها — في مقدمة من التفت إلى تميزه ﷺ — على وجه العموم — وإلى ما هو عليه من خلق تثير الدهشة والإعجاب ، فرأت فيه خير زوج ، ولم تتردد في السعى إلى ذلك ، ومكاشفته بأربها ، فكان عرسهما من أبرز العلامات الحيوية ؛ إذا كان ذلك من تدبير الله تعالى لتكون هذه الزوجة خير عون له ﷺ عند بعثته ، لشد أزره بعباراتها الوثيقة ، ولتهديء روعه عندما جاءها فزعا بعد اللحظة الأولى من استقباله رسول الوحى ، بما ذكرته به من عظيم شمائله ، وكريم أخلاقه ، ومستقيم خطوه ، اذ قالت له : لا تخش أذى ، فمثلك لا يصيبه الله بأذى ، لأنك تفعل كل خير ، فأنت أحمل الناس للضعيف ، وأعونهم على النوازل ، وأحنأهم على ذوى الرحم .. !

لقد أثبتت خديجة بتلك الكلمات أنها من عظيمات النساء — إن لم تكن أعظمهن — فقد بددت عنه ﷺ كل أسباب الشك والخوف ، مؤكدة بذلك دور المرأة في الحياة ، مقررّة أن

(١) النكر — بضم فسكون — : الأمر المنكر ، والكف — بالتحريك — : قصد به الانصراف عن المكارم ، يقال : كلمه عن الأمر : صرفه

حاجة الأمة إلى المرأة لا تقل عن حاجتها إلى الرجل ، داعية كل امرأة إلى أن تنهض بدورها الفعال في النهوض بأمتها ، ولا تستسلم لما وورثته عن الأسلاف من انصراف عن الحياة العامة الى حياتها الخاصة المحدودة بالماديات من بحث عن الزينة ، واهتمام بأحدث الأزياء .. إلى غير ذلك ، على ما يقول :

<p>رأت خديجة من أخلاقه عجا فكاشفته هواها في تزوجه إذ أصبحت خير عون عند بعثه وهذأت روعه إذ جاءها فزعا فأنت أحملهم للكل ، أعونهم أعظم بها امرأة ، أحييت أناملها كذلك لن ينهض الإسلام من ضعة كيف النهوض وشق من جوارحكم</p>	<p>وهي الغنية ذات الرأي والفهم فكان عرسها من أبرك القسم لبث دعوتـــــــــــــــــه بالمال والخدم من بدأة الوحى : أن لا تخش من لم^(١) على النوائب ، أحناهم على الرحم^(٢) ! (محمد ا) منقذ الدنيا من الغمم ! حتى نرى (غيده) ينهض بالعلم ! عضو أشل ، وشق غير مُعْتَزَم !؟</p>
---	--

وهكذا .. تخلى الشاعر عن الإيمان — في ربطه الحاضر بالماضى — وأعلنها صيحة عالية مدوية ، تصم آذان من يزعمون أن التنوير يقتضى إخراج المرأة عن آداب دينها ، ويوهمون الناس بأن التمسك بالدين يحجر على المرأة ، ويفرض عليها قيودا تشلها عن الحركة ، ويحرم الأمة جهودها ؛ إذ يقرر الشاعر — هنا — أن التنوير الحق هو الذى يسعى بالمرأة ليجعلها على الطريق المستقيم المنتج ، ويتنزه فرصة الحديث عن السيدة خديجة ، فيقدمها مثالا يجب على كل امرأة تحترم نفسها ، وتعنى مكانتها أن تحتذيا ، وتنهج نهجها في العمل الوطنى المثمر الجاد ، الخالى عن تلك الشكليات والمظاهر التى تبهر ولا تفيد ، فما خدعها ثراؤها ومكانتها فى قومها عما يجب أن تبحث عنه المرأة فى الزوج ، حين تتصدى لاختيار من يتزوجها ، وما كانت الإنسان التافه الذى يجرى وراء المتعة الزائلة ، أو المظاهر المادية الخادعة ؛ فقد وفرت لزوجها كل أسباب الراحة ، واستقبلت نبأ بعثته بتصديقه ودعمه ، وبذلت كل جهدها فى معاونته على اجتياز تلك المرحلة ، وقابلت فزعه بتلك الكلمات الصادقة التى كانت بردا وسلاما على نفسه ﷺ ، وظلت هكذا على مؤازرته ومعاونته إلى أن لحقت بالرفيق الأعلى ، رضى الله تعالى عنها .

السلوك الحمدي يقدم الصورة الصادقة له .

ثم أستأنف الشاعر مسيرته معه ﷺ ، فأخذ في تقديم صورة له ﷺ من خلال سلوكياته التى تكشف عما ينطوى عليه من خلال وشمائل ، فهو ﷺ لا يلقى إنسانا بوجه متجههم ،

(١) اللمم — بالحريك — : الجنون ، أو طرف منه ، يلم بالإنسان ويعتريه .
(٢) الكل — بفتح الكاف — : من يكون عالة على غيره ، النوائب — جمع النابتة — : ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة .

ولكنه البشر الصادق غير المصطنع ، وكانت عادته ألا يكلم شخصا إلا وهو مبتسم ، وبلغ به كرمه درجة جعلته يعفو عما يصدر من الآخرين من أخطاء في حقه ، ويقبل عذر من يعتذر ما دامت الأخطاء لا تنتهك بسببها حرمة الله ، فإذا انتهكت حرمة الله كان في غضبه كالليث المصور حين يستثار . أما في الشجاعة فلا مثيل له ، كما يرى حين تتلاقى الجموع ، فإذا توالى الكوارث والنوائب كان أثبت من الجبال الشم وأقوى ، فإذا انفض عنه صغبه رأى وحده كأنه جيش كامل . وفي الكرم لا يلحق به منافس ، فهو يعطى بلا حساب ولا من ولا برم ، فإذا استقبل وفود الملوك أو القبائل وجدوا لديه من الأنس والراحة ما يجذبهم إليه ، أما في علاقاته بالناس فهو نصير كل بائس محتاج ، لاسيما اليتامى والأيتامى ، لم تحده كثرة الأموال تحت يده عن حقيقة الحياة ، وكان من دماثة خلقه بحيث لم يعب طعاما قدم إليه ، فإن رغب فيه أكله ، وإن عافته نفسه تركه ، دون اهتمام بشكل الطعام ونوعه ، وبحيث لم يغلظ لخدام في المعاملة . أما زواجه عليه السلام فلم يكن الزواج إلا جزءا من خطته في الدعوة ، ولم يكن سعيا لتحقيق لذة كما توهم بعض أعداء الإسلام وإلا لما اختار للتزوج تلك المتقدمات في السن ، الساعيات نحو الشيخوخة ؛ فقد كان الزواج وثيق الصلة بمنهجه في الدعوة ، قصد من ورائه كفالة بعض من مات عنهن في سبيل الله أزواجهن ، أو توطيد العلاقة ببعض القبائل والعشائر . وأما علاقته بالآخرين فقد كانت قائمة على الود والاحترام ، فما تعالى على أحد ، ولا اعتز بمصاحبة حراس أو حشم ، وكذلك كان في بيته ، فما أنف من مباشرة العمل في منزله متعاوناً بذلك مع زوجه ، فكان يخصف نعله ، ويرفو ثوبه ، مقدما بذلك من نفسه خير قدوة وأحسن أسوة ، وفي ذلك قال الشاعر :

يلقى الأنام ببشر غير مصطنع	ولا يكلم شخصا غير مبتسم
يعفو ذنوب الورى في حقه كرمه	ويقبل العذر من جان ومجترم
حتى إذا انتهكت الله حرمة	رأيت غضبه ليث هيج في الأجم ^(١)
يسفر الشجاعة فصل من شجاعته	إذا الجموع تلاقى والوطيس حمى ^(٢)
يبدو - إذا وهت الأركان من جزع -	أقوى وأثبت أركاننا من الهرم !
وربما انفض عنه جيشه فيرى	كأنه وحده جيش من البهائم ^(٣)
يعطى العفاة عطاء غير منقطع	بلا حساب ، ولا من ، ولا برم ^(٤)
ويستميل وفود العرب ، تقدم من	شتى النواحي يذل المال والنعم

(١) انتهك حرمة الله : نقض العهد وغدر بالمعاهد ، الأجم - بالتحريك - جمع الأجمة : الشجر الكثير المنلف .

(٢) السفر - بكر فسكون - الكتاب الكبير ، الوطيس : المعركة .

(٣) البهم - بضم ففتح - جمع البهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غليته .

(٤) العفاة - جمع العافى - : طالب الحاجة ، البرم : السأم والضجر .

يخنو على كل ذى بؤس ومتربة
يطوى الليالى جوعا بعدما جبت
ما عاب قط طعاما قدموه له
إن شاء يأكله ، أو شاء يتركه
وما تزوج تسعا كى يلد بها
لكنه كان يرجو أن يم به
كما تزوج من بعض ليكفلها
يكون فى صحبه فردا كأصغرهم
ويخصف النعل ، يرفو الثوب ، يأخذ فى

لا سيما بؤساء الأيم واليتم^(١)
له الغنائم من نجد ومن ثمهم^(٢)
وما نعى قط تقصيرا على الخدم
أكان مؤتدما أو غير مؤتدم
إذن لما اختار من يجون للهرم
نشر الهداية فى الأقبام باللدم^(٣)
ومن تفز برسول الله لم تتم
شأنا ، ويمشى بلا صحب ولا حشم
إعانة الأهل ، يسمى فى سرورهم

ويحس الشاعر أن ما ذكره من الصفات والسلوكيات المحمدية قد يكون موضع دهشة من بعض المتلقين ، فأراد أن يزيل أسباب تلك الدهشة والتعجب ، فذكر أن السر وراء ذلك يرجع إلى أن محمدا ﷺ لم يكن ملكا يعتز بأسباب العظمة ، ويحرص على قيام الفوارق بينه وبين رعيته ، حتى يحفظ لنفسه مكانته .. ولكنه كان مرسلا اختاره ربه ليكون للناس رسول هداية ، جاء قومه بما يهديهم به من آيات وحكم ، وقد بعثه ربه فى وقت اشتدت فيه حاجة الدنيا إليه ، حيث امتلأت الأرض بشتى ألوان الكفر والإلحاد ، حتى ضجت بالظلم ، وخلت تماما من شرعية سماوية تنقذ أهلها من ظلم بعضهم بعضا ، يستوى فى ذلك كل بقاع الأرض من غير استثناء ، أما (أوروبا) فقد أصبح أهلها وحوشا تقوم حياتهم على البغى وسفك الدماء ، وأما (الهند) و (الفرس) فقد صاروا غرقى فى الإباحية ، وباتوا موزعين أحزابا لا يهدأ لأحدهم بال مع السلام فلم يكن فى الأرض كلها ركن خاليا من جبار يستعبد الناس المحيطين به ، ويعاملهم كالأنعام ، لا فرق فى ذلك بين من يتشبهون بما توارثوه من أديان شكلية ، سواء فى ذلك القبط واليهود ، والهنود والصينيون بدياناتهم المختلفة ، والرومان بوثنيتهم المتحجرة .. فى ظل هؤلاء وأولئك كان الفساد سائدا ، والشر عاما ، وبراكى الصراع والحروب لا تتوقف عن التفجر ، وحتى لا يقف معارض فى وجه مفسد ، عمدوا إلى الكتب السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون فحرفوها حتى تكون فى خدمة مقاصدهم ، وبذلك داسوا بأقدامهم العدل والآداب والنظم ، فلم يعد بين الناس إلا الفوضى وطغا أهل البغى والطمع على سطح الزعامات والقيادات ، فتمكنوا من التستر بالدين فى تعذيبهم الناس ، واستيلائهم على ما يملكون من مال وعقار ... وقد رسم الشاعر هذه الصورة التى سبقت بعثه ﷺ فى قوله :

(١) المرة : الحاجة والفقر ، الأيم - بفتح فسكون - : الإقامة بلا زوج بكرا أو ثيبا .

(٢) جيت الغنائم : جمعت .

(٣) اللدم - بالتحريك - : الحرم فى القرباب .

لا تعجبوا .. إن (طه) لم يكن ملكاً
 وافي على فترة ، والأرض واجفة
 تضج بالظلم ، لا شرع يقوم بها
 أما (أوربا) فأهلوها برايرة
 و (الهند) و (الفرس) غرق في إباحتها
 في كل ركن من الدنيا جبابرة
 في أمة القبط ، في شعب اليهود كما
 ساد الفساد ، وعم الشر ، وانفجرت
 وحرفت كتب الرحمن ، وامتهنت
 وأصبح الناس فوضى ، لا يسودهم
 وعذب الناس باسم الدين واستلبت

بل مرسل ، جاء بالآيات والحكم
 مما بها من صنوف الكفر والحرم^(١)
 من السماء ، ولا من واضع فقم^(٢)
 مثل الوحوش ، على بغى وسفك دم
 والروح من إحن الأحزاب في ضم^(٣)
 يستعبدون ركاب الناس كالغنم
 في الهند ، في الصين ، في الرومان ، في العجم
 براكن الوغى والشحناء والوغم^(٤)
 كرامة العدل والآداب والنظم
 إلا الزعانف أهل البغى والعشم^(٥)
 أموالهم للقسوس الفسق العشم^(٦) !

لقد ساد الفساد والظلم والحقد كل بقاع العالم ، ولم يعد في مقدور أحد أن يرد على الحياة
 رونقها ، أو يطمئن على نفسه من بطش طاغ ، أو ظلم جبار ، أو يعيد الإنسان إلى حقيقته ،
 وتمكن الفساد من كل النفوس ، حتى نفوس أولئك الذين ينتمون إلى الدين ، فسخرها الدين
 لحماية أطماعهم ، وجعلوا مكانتهم بين الناس وسيلة لاستبدادهم وتمكنهم من رقاب العباد ؛
 حتى أصبحت الأرض في أمس الحاجة إلى الإنقاذ السماوى ، فشاعت حكمة المولى جل شأنه أن
 يبتعث هؤلاء الناس من يهدى الضال ، وينقذ المظلوم ، ويعيد العقول إلى استقامتها ، ويقدم
 المنهج العادل المتوازن ، ويتم ما بعث به الرسل السابقون ، على ما تقتضيه سنة خالق الكون جل
 شأنه ، من أن تكون الرسالة ملائمة لعقول المرسل إليهم ، متدرجة مع أطوارهم ... !

ومن هنا اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن تكون رسالته — بعد أن بلغ الإنسان رشده في
 هذه الآونة — قائمة على الدليل المقنع ، والحجة البينة التى تخاطب العقول ، بعد أن كانت في
 الرسائل السابقة تعتمد على الخوارق المادية فحسب . !

ولذلك كان محمد ﷺ أنسب من يسند إليه أمر هذه الرسالة ، لنشوئه من أمة لم
 تخضع لإفساد رجال الدين ولا لتحريف الحكام والملوك ، فقد نشأ بين قوم بداءة ، أقرب في

(١) الفترة : المدة تقع بين زمنين أو لبيين ، الواجب : المضطرب .

(٢) الفقم — بفتح فكم — : الرجل الفهم يعلو خصومه .

(٣) الإحن — جمع الإحنة — : الحقد والضغن ، الضرم — بالتحريك — : لب النار .

(٤) الوغم : الحقد .

(٥) الزعانف — جمع الزعفة بفتح الزاى والنون — : ردىء كل شيء ورذاله ، أو القطعة من القبيلة تشذ وتنفرد ، العشم —

بالتحريك — جمع العشمة : الطمع .

(٦) العشم — بضمين — جمع العشوم : الظالم أشد الظلم .

طبيعتهم إلى الفطرة ، لم تجرفهم العلوم الوافدة عن تلك الفطرة الخالصة المستندة على لغتهم القوية الصافية ، التي كانت أصلح اللغات لأن يختارها الحكيم العليم لغة لكتابه الموحى به إلى هذا الرسول المختار ، ذلك الكتاب الذى استطاع به محمد أن ينفخ روح الحياة — بقدرة الله — فى الناس ؛ فنهض بهم من غفلتهم ، وحقق بهم دولة عظمى — لم يعرف لها التاريخ مثالا — تقوم على دعائم القوة كلها مثل الإيمان والهدى والتقوى والعدل والكرم ، فتمكنت بذلك فى أقصر زمن من سيادة العالم ورعايته ، بعد أن كانت مشغولة برعى الإبل والأغنام .. وفى ذلك قال الشاعر :

يهدى شعوب الورى للمنهج اللقم^(١)
من دين موجد هذا الكون من عدم
على الجدار ، إلى أن سار بالقدم
فى كل طور ، ويزجيجه إلى الأثم^(٢)
ثم استوى رشده فى آخر الأثم^(٢)
على الأدلة ، لا بالخرق للنظم
من قبل ، فهو بهذا العصر لم يقم
(محمد) العرى الطاهر الشيم !
ها على خلـق حر ، ولا شمم
شماء ، ماخضعت للطرس والقلم^(٣)
أن أخرج الدهر منها أبدع النغم !
والله أعلم بالأقدار والقيم !
بقدره الله أجيالا من الرم^(٤)
شعبا عزيزا ، قويا ، جد ملتئم
هدى والتوق والعدل والكرم !
كبرى الممالك بعد الشاء والنعم

فكان من حكمة المولى ابتعاث فتى
يتم ما جاءنا الرسل الكرام به
من منذ أن كان يحبو (العقل) ، ثم مشى
والدين يوحى إليه ما يناسبه
إلى أن اشتد زندهاه مراهقة
حيث استعد لفهم الحق معتمدا
فالحارقات إذا قام الدليل بها
فكان أصلح شخص للقيام به
من أمية ما قضى قس ولا ملك
أمية ما حوت علما سوى لغة
فلم تزل تترقى فى العصور إلى
فاختارها لغة القرآن منزله
ذاك الكتاب الذى أحيا النبى به
أقام من (يعرب) من بعد شقوتها
قامت به دولة عظمى على أسس الـ
رعت — ولم يمض من تكوينها زمن —

العجزة الخالدة ،

واضح من هذا المنهج العقدى الذى سيطر على الشاعر فى أثناء حديثه عن بعث محمد ﷺ وحاجة الناس إليه فى هذه المرحلة بخصوصها ، .. أن الذى يسيطر على فكره ووجدانه — فى هذه القضية — هو ما أثاره كثير من الناس — وما زالوا يثيرونه — حول الحاجة الى رسالة على

(١) اللقم — بالتحريك — : الطريق الواضح .

(٢) الزندان — بفتح الزاى — : الساعد والذراع .

(٣) الطرس — بكسر فسكون — : الصحيفة .

(٤) الرم — بكسر ففتح — جمع الرمة : العظام البالية .

الرغم من وجود بقايا الرسالتين السابقتين — وهما اليهودية والنصرانية — وحول اختصاص محمد ﷺ بذلك ، وحول اختيار الرسول من بين العرب الأميين ، واختيار اللغة العربية لغة للقرآن الكريم .. !

فإذا كان السرد التاريخي قد استولى على البارودي هناك فإن الحوار العقلي قد استولى على الكثير هنا ؛ بيد إن الكثير في ذلك ينطلق من معاناة وجدانية عقلية ، فرضت عليه تلك الوقفة ، ليبين من خلالها مدى الحاجة إلى ممدوحه ﷺ ومدى الخير الذي ناله الكون على يديه .

وحديث الكثير عن معجزته ﷺ التي أيده الله بها — وهى القرآن الكريم — من دون الأنبياء السابقين ؛ فرض عليه أن يمد نفسه بالحديث عن تلك المعجزة وقيمتها ، ودورها في حياة الناس جميعا ، وما تمتاز به عن المعجزات المادية الأخرى .

فالقرآن هو المعجزة الخالدة ، الباقية بمجديتها على الزمان ، بحيث يجد فيها كل عصر حاجته ، بخلاف المعجزات الأخرى فإنها لا تخاطب إلا الموجودين في لحظتها ، ثم تفقد أثرها بمرور الوقت .

وخلود القرآن بين واضح من قيامه على العلم ، ومحاجة العقل ، وتضمنه الشرائع العادلة في كل ما يسن ويشرع . هذا إلى تفوقه في بلاغته وصياغته ، فهى ليست كالبلاغة البشرية في نظامها القوى ، وفي أسلوبها الذى يفوق كل ما عدها .

لقد جاءت آيات القرآن قوية مزلزة لم يصمد أمامها فصحاء العرب ، واستسلم لها مفكرو العالم ومشرعوه على مدى تلك القرون المتطاولة ، فكانت كالرعد في قصفه ، وكالريح في عصفها ، وكالبحر فيما تحدته أمواجه المتلاطمة من رجفات ؛ فلم يقو أحد على الصمود أمامها ، أو محاولة معارضتها واحتدائها ، بل وقفوا مشدوهين لا يستطيعون قولاً . إن هذا الكتاب الكريم يقص بالحق أخبار الماضين ، من قوم نوح ، وعاد ، وإرم ذات العماد ، وكشف من أخبار إسرائيل ما يفضح دسائس القوم وحيلهم وما واجهوا به أنبياءهم ، كما ذكر ما كان في حرب الروم من نصر لهم مؤزر . وإلى جانب هذه الأخبار الصادقة تضمن من علوم الغيب ما حير العقول ، ومن العلوم الكونية والطبيعية ما أذهل الباحثين في شتى مجالات العلم الحديث ، من عقائد ، وطبائع النفوس ، وآراء المفكرين والفلاسفة ، من كل ما يؤكد خلوده ، ويبرز نواحي الإعجاز فيه ، إذ يشرع أرقق قوانين الحياة ، على أتم ما عرف من أحدث النظم .

هذا الكتاب الكريم حافظ رواته على نقله كما تلقوه عن رسول الله ﷺ ، فصحت روايته ، كما صح مبناه ، وتجاوز الباطل والضعف والخطأ ؛ فأصبح هو المصدر الدقيق الصادق لكل الأخبار والروايات وبذلك كشف التزييف في الأقاصيص المتداولة عن عيسى ، وبين مدى ما فيها

من تليفق أدخل عليها في العصور السالفة ، فمن شاء التعرف على حقيقة عيسى عليه السلام ، فليرجع إلى القرآن الكريم ، فهو وحده مصدر الحقيقة ، أما ما عدها فقد كذب بعضها بعضا ، إلا ما شذ من بينها مثل (إنجيل برنابا) الذي تضمن ما جاء به عيسى عليه السلام من تبشير بمبعث محمد ﷺ الذي يأتيها بالخبر الصادق عن قصة صلب عيسى بن مريم فكان هذا الإنجيل معجزة محمد ﷺ تضاف إلى معجزاته — على الرغم من أنه جاءنا من عندهم — وتقرر عظمة هذه المعجزات إذا ما قورنت بمعجزات سابقة من الرسل .

فالشاعر حين تعرض للحديث عن المعجزة القرآنية ، لم يجد بدا من عقد تلك الموازنة بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزة محمد ﷺ ، على ما نراه في قوله :

<p>إذ معجزات سوى (اختار) لم تدم والعدل شرعته في كل محتكم نظامها الجزل ، أو أسلوبها القصم^(١) كالبحر يرجف في أمواجه البهم^(٢) عن آية منه غلب القول بالكم ؟ من قوم نوح ، ومن عاد ، ومن إرم^(٣) قد دسه القوم فيها من فرى جُسم^(٤) على العدو ، فلم تخطى ، ولم تهم^(٥) لها العقول على عين ولا ندم^(٦) عجائب لم تبين يوما لدى فهم طباع النفس ، في التاريخ ، في الحكم ! مع الحضارات فيها غير مصطدم أتم ما يعرف الإمكان من نظم ! عن الملايين من حفاظه النجم كُتب في أعصر شتى على وهم من استقامة إسناد ، ولا دعم لدى النصارى ، فلم تقبل ، ولم تُرم</p>	<p>(المعجز الخالد) ، الباقي بجده العلم آيته ، والعقل حجته ، جاءت بلاغته ، لا كالبلغة في كالرعد يقصف ، أو كالريح تعصف ، أو من ذا يعارضها جهلا وقد رجعت يقص بالحق أخبار الذين مضوا وقص أيام (إسرائيل) يفضح ما وآية الروم إذ جاءت بنصرهم وكم به من علوم الغيب ما وقفت وكم جلا (العلم) في العصر الحديث له في الدين ، في الخلق ، في علم الطبيعة في يعلو الأماكن ، والأزمان متفقا يسن أرقى قوانين الحياة على صحت — كما صح مبناه — روايته فدع أقاصيص عن (عيسى) ملفقة مكذبا بعضها بلا أسس إلا (أناجيل) روح الحق عطلها</p>
---	---

(١) الجزل من الكلام : القوى الفصح الجامع ، القصم — بضم ففتح — : الذي يحطم كل ما يلقاه .

(٢) البهم — بضمين — : السود .

(٣) إرم — بكسر ففتح — : قوم منهم عاد ، وقيل : مدينة كبيرة لهم .

(٤) القرى — بكسر ففتح — : جمع القرية : الكذب ، الجسم — بضمين — : الأمور الجسام .

(٥) هام : خرج على وجهه الأرض لا يدري أين يتوجه .

(٦) الندم — بالتحريك — : الأثر .

و شاء ربك أن يقضى لحجته
مبشرا برسول الله ، يخبرنـها
الله أكبر هذى بعـد معجزة
كهذه ، فليكن المعجزات ، فما

تلكم هى معجزة القرآن الكريم التى خص بها سيدنا محمد ﷺ من بين رسل الله وأنبيائه ، لتكون ملائمة لمن أرسل إليهم من أبناء آدم فى المرحلة الخاتمة من مراحل تطورهـم .. أما المعجزات المادية التى صاحبت من سلف من رسل الله ، فلم يخل بعث محمد ﷺ من بعضها ، على الرغم من أن تلك المعجزات لم تكن إلا وسائل دعم مساعدة ، هياها الله لمحمد ﷺ إلى جوار المعجزة الكبرى ، لتؤدى دورها المؤقت المحدود ، فكان الإسراء والمعراج ، ونبع الماء من أصابع يده ، وتأثير حفنة الرمل التى رمى بها جمع المشركين ، وحنين الجذع شوقا إليه ، وإخباره ﷺ عن بعض الأمور الغيبية ، وغير ذلك مما حدث على يديه ﷺ عرضا ، تنبها إلى خصوصيته .
ومع أن هذه المعجزات لم تنبأ له ﷺ للتحدى بها .. قد رويت من طرق مؤكدة الصدق والدقة ، بخلاف ما روى من أحداث ومعجزات نسبت إلى سابقيه من الرسل ، فإنها قد زيفت بكثير من الإضافات ، التى تفتح أبواب الشك أمامها ، اللهم إلا ما ورد به الكتاب الكريم ...
على نحو ما قرر الشاعر فى قوله :

هذا على أن (طه) قد أتىـح له
مثل العروج ، ونبع الماء من يده
والجذع إذ حن ، والإخبار عن غيب
وغير ذلك مما جاء عن عرض
صحت أسانيدها ، لا كالتى رويت
ولا سـيل إلى آياتها بسوى

منهن شىء كثير ليس بالأهم^(١)
وهزم جيش برمل من يديه رُمى
بموتهم ثم ، والتكثير للـوْثُم^(٢)
لا للتحدى ، فشمس الحق لم تغم
عن سائر الرسل ، لم تثبت لهم
هذا(الكتاب)الكريم الشاهدالحكم!

خصوصية الإسلام الحمدي ،

ومن هنا .. خلص الشاعر ليتحدث عن الدين الذى أرسل به محمد ﷺ ، فذكر أنه أتى بدين قويم ، غير ذى عوج ، بل إنه فوق ذلك يوفر للمعوج ما يستقيم به إذا ولج بابه ، وأن هذا الدين يمنح تابعة سعادة الدنيا والآخرة ؛ فهو يعنى بتربية الأجساد ، عنايته بتربية الأرواح والنفوس ، ويدعو إلى الخير مهما كان مصدره ، وأيا كانت طبيعته ، كما يصد عن الفحشاء والمنكر ، وأنه دين يخلص الإنسان - فى علاقته بالله - من الوسائط ، فيفتح له الأبواب التى تصله بالله مباشرة ، كى يدعوه بما شاء ، من غير حجاب أو وسيط تحت أى شعار أو نعت ، فهو يخلص

(١) الأهم - بالتحريك - : اليسير القريب التناول .

(٢) الوْثُم - بالتحريك - : القلة بكسر القاف .

الإنسان من هيمنة الأحبار والقساوسة والرهبان. وأن هذا الدين يجعل الأصل في الأشياء الإباحة، فيحل للإنسان كل صنوف الطيبات، في غير تجاوز لحدود التوازن والاعتدال؛ فلا يحرم شيئاً - إذا حرم - إلا لمنع ضرر يصيب الإنسان من هذا الشيء. وأن هذا الدين لم يشرع الحرب إلا دفعاً لظلم، أو منعاً من عدوان على شيء من حقوق الإنسان الطبيعية، أو ردعاً عن استبداد. وأن هذا الدين عام للبشرية جميعها، شامل كل ما يأتي من عصور وأزمان، وما خص العرب بلغة القرآن ومقر الكعبة المشرفة، وابتداء الدعوة! إلا لأن أرض العرب وأمة العرب كانت أنسب المواطن والأهم لبدء الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن عند أمة العرب دين يحدد المعالم والمعتقدات والطقوس تلجأ إليه في شتى الأحوال؛ إذ ما كان لديهم - في عبادة الأوثان - لا يعدو الطقوس الساذجة، التي لا تعتمد على قواعد عقدية ثابتة تنضوى حولها القبائل المختلفة. وأن هذا الدين لا يعنى بجانب من جوانب الحياة على حساب غيره، فكما يدعو إلى العلم ويحض عليه، يرفع من شأن الأخلاق، ويعلى من أمرها، وكما يطلب الخضوع لله الخالق، يذر في نفوس المسلمين العزة والكرامة، حتى أصبح الإسلام قرين العز، فلا يجتمع ذل وإسلام في إنسان، كما لا يمكن اجتماع الماء والنار في كيان واحد في لحظة واحدة؛ إذ هما ضدان متنافران دائماً. وأن هذا الدين يسوى بين الناس جميعاً في أحكامه، فلا فضل لمخدوم على خادم؛ لأن كلا منهما يقوم بدوره في الحياة، فيكمل أحدهما الآخر؛ لأنه يقيم التفاضل على العمل والتقوى، لا على المال والأحساب، والأنساب، ونوع العمل، فالعبرة - عنده - بأثر العمل وإتقانه، لا بنوعه وهيئته، وأن هذا الدين يجعل الطهارة من أسمى شرائعه، ويفرضها مع كل نسك، بل إنه يفرض الصلاة مناجاة من العبد لله يطهر بها من الدنس، ويتخلص بها من أدران الحياة. ويفرض الزكاة دواء يطهر الإنسان ويخلصه من أزمات الحياة، سواء في ذلك من يزكى ومن يتلقى الزكاة، محققاً بذلك أمثل صور الاشتراكية والتكافل الإنساني، من غير أن ينشأ عنها ظلم أو كنود أو انحراف. ويفرض الصيام ترويضاً لنفس كل مسلم، وتدريباً لها على تحمل الصعاب والمشاق، وتمكيناً لها من مواجهة المغريات في قوة من غير تبرم أو ضعف، وفي الوقت نفسه يتيح للإنسان ما يقوم جسمه، وبقية الأمراض والعلل. ويفرض الحج في هيئة تتيح للمسلمين فرصة الالتقاء لعلمهم يتمكنون من تدارس أحوالهم، ويسعون للخلاص مما يصيبهم أو ينزل بهم، ويتبادلون الخبرات في مواجهة المشكلات. هذا هو الدين الذي أتى به محمد كما خدد الشاعر أبعاده، إذ يقول:

أتى بدين قويم غير ذى عوج متى يلج بابّه المعوج يستقيم
يولى سعادتي الدارين تابعه يُعنى بتربية الأجساد والنسم^(١)
يدعو إلى الخير مهما كان مصدره كما يصد عن الفحشاء واللمم^(٢)

(١) النسم - بالتحريك - جمع النسمه : كل كان حى فيه روح .

(٢) اللمم - بالتحريك - : مقاربة الذنب .

ويجعل العبد يدعو الله خالقَه
يُحل كل صنوف الطيِّبات بلا
لم يشرع الحرب إلا في مدافعة
وخصص العرب بالتضييق، متخذاً
إذ لم يكن عندها دين تلوذ به
يدعو إلى العلم، والأخلاق يرفعها
لا يلتقى الذل والإسلام في خلد
الناس كلهم في حكمه شرع
ولا تفاضل في مال ولا نسب
يرى (الطهارة) من أسمى شعائره
وفي (الصلاة) مناجاة تطهر من
وفي (الزكاة) دواء لامثيل له
(الاشتراكية المثلى) تتم به
أما (الصيام) فترويض النفوس على
وكم جلا الطب من أسرارهِ عجباً
(والحج) مؤتمراً للمسلمين به

بلا حجاب من الأحبار والثُّم (١)
تجاوز لحدود القصد للتخم
عن دعوة الحق، أو في كف مهتضم (٢)
ديارها معقلاً للمسلمين حمى
في الخير والشر، والسراء والنقم
ويذر العز في أتباعه الكُرم (٣)
أو يمكن الجمع بين الماء والضرَم (٤)
لا فضل فيه لخدم على خدم (٥)
وإنما الفضل بالأعمال والهمم
لا يقبل الله نسك الأغبر الدَّسم (٦)
نفس المصلى، وتوحيها لدى البُهم (٧)
لكشف ما حاق بالدينا من الإزم (٨)
بلا كنود، ولا حيف، ولا وغم (٩)
حمل الشدائد في صبر، بلا تبرم
يزيل ما عى عنه الطب من سقم
لو أن آذانهم خلص من الصمم

وبعد أن أشار الشاعر إلى خصائص الدين الذي جاء به محمد ﷺ، في أوامره ونواهيه،
وفيما أقام عليه المجتمع الإسلامي من علاقات، وفيما أرسى من تقاليد وأخلاقيات، وفيما فرض
من عبادات.. بعد تلك الإشارات تعرض بتفصيل نسبي لعلاقة الرجل بالمرأة في ظلال الإسلام
دافعاً بذلك مزاعم المبشرين والمستشرقين المغرضين أو محدودى المعرفة بالإسلام، فذكر أن محمداً
ﷺ قد ساوى - في الحقوق والواجبات - بين الرجال والنساء، إلا إذا اقتضت فوارق الخلق

(١) النهم - بضم نين - جمع النهام بضم النون وفتح الهاء الخفيفة : الراهب في الدير .

(٢) كله عن الأمر : منه وصرفه ، المهتضم : الظالم الغاصب .

(٣) الكرم - بضم كين - : صفة بمعنى الكرم للمفرد والجمع .

(٤) الخلد - بالتحريك - : البال والنفس ، الضرم - بالتحريك - : فب النار .

(٥) الشرع - بالتحريك - : السواء .

(٦) الأغبر : الذي علاه الفبار ، الدسم - بالتحريك - : الذي علاه الوسخ والقدر .

(٧) البهم - بضم ففتح - جمع البهمة : مشكلات الأمور .

(٨) الإزم - بكسر ففتح - جمع الأزمة : الشدة .

(٩) الكنود - بالضم - : كفران النعمة وجحودها . والحيف : الجور ، والوغم - بالتحريك - : الحقد .

والتكوين وغير ذلك - منها بذلك إلى أن ما قد يكون هناك من فوارق في الحقوق والواجبات ليس لذات الرجل أو المرأة، ولكنه استجابة لطبيعة كل منهما وفطرته - حيث كلف الرجل بأن يقوم بالإنفاق على زوجته، دون نظر إلى ما تملكه هي من مال، وأنه ﷺ - بمنطق الإسلام - يرى أن أنوثة المرأة هي أرقى فضائلها، فيوجه الرجل والمرأة معا إلى أن تحفظ عليها تلك الخصيصة، ولا تزال عنها تحت أى شعار، لما في ذلك من التزييف والخداع والتضليل؛ فالفطرة تقتضى أن تقوم المرأة بشئون البيت أولا، فهي فيه - باسم الإسلام - الأمرة الناهية، التى تعنى بتربية الأولاد؛ فتلك هي وظيفتها الفطرية التى أقام الخالق عليها كيان المرأة في مجتمعا، وأنه ﷺ - بمنطق الإسلام - قرر أن تكون لها شخصيتها المستقلة فيما تملك، فلها حريتها الكاملة في أن تتصرف في مالها كيفما شاءت، فسبق بذلك كل الأنظمة والشرائع الوضعية، حتى في تلك الدول العصرية التى تزعم أنها بلغت قمة التحضر، والمحافظة على حقوق الإنسان، فهامى - مثلا - فرنسا التى أعلنت بثورتها الحديثة مبادئ حقوق الإنسان، لم تحصل المرأة فيها على ما وفره لها الإسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان، وهامى المرأة في أوروبا قبل العصر الحديث تعامل معاملة المتاع في البيت، أو البهايم، بل لقد بلغ ببعض المجتمعات الأوروبية أن شغلت بالبحث في حقيقة المرأة، ونهض مفكروها يدلى كل منهم بدلوه في أمرها، حتى كان منهم من يرتاب في أن لها روحا مثل الرجال، ومنهم من يرتاب في إنسانيتها. تعرض الشاعر لهذه القضية في قوله :

ساوى النساء حقوقا بالرجال سوى	ما يقتضيه اختلاف الخلق والشيم
فكلف الرجل الأنثى القيام بها	ولو غدا مألها كالوابل الززم ^(١)
يرى (أنوثتها) أرقى فضائلها	فلا تزلها بأهوان ولا تُسم ^(٢)
تكون أمرة في البيت ناهية	تعنى بتربية الأولاد، بالرحم ^(٣)
هذى وظيفتها الفطرية ارتسمت	في سنة الله قبل اللوح والقلم!
تكون في مالها طلقاً مخولة	حق التصرف في بيع وفى سلم
فسل نساء فرنسا: هل حصلن على	حق التصرف بعد (الثورة) العمم؟!
أوهل تذكر (أوروبا) زمان ترى	نساءها كمتاع البيت والعجم؟ ^(٤)
ليالى اريب في الأنثى بها: أها	روح، وهل هي إنسان كقومهم؟

كما تعرض لقضية أخرى بتفصيل نسبي؛ هي موقف الإسلام من الرق؛ لأنها استغلت من المبشرين المستشرقين لتشويه حقيقة الإسلام، بعد تزييف الرؤية الإسلامية لتلك القضية، حتى

(١) الوابل : المطر ، الرزم - بفتح فكسر - : الغيث الذى لا ينقطع رعده .

(٢) الأهوان - جمع الهون بفتح فسكون - : الحقير .

(٣) الرحم : القرابة .

(٤) تذكر : تذكر ، العجم - بالتحريك - : البهايم .

قلبوا الأوضاع، وعكسوا الحقائق، لأن الإسلام قد سن للرق من التشريعات ما يكفل القضاء عليه نهائيا بطريقة متدرجة لا تحدث اضطرابا في المجتمع البشرى الذى يقيم كثيرا من نظمته الاقتصادية على وجود الرق؛ فقد حاط الإسلام الموالى بالحسنى، وعاملهم كالمالكين، مع التخفيف في آثار الجرائم، وشرع نظام المكاتبه للتحرير من الرق، كما دعا الناس ورغبتهم في الإعتراف، فجعل أجره في الآخرة من أعظم الأجور، وشرع قبول الفدية من أسرى الحرب، أو عتقهم بالمن، فقال:

وسَنُّ (الرق) ما يقضى عليه على مدى الزمان مع التدرج والسَّلم
حاط (الموالى) بالحسنى، وعاملهم كالمالكين، مع التخفيف في الجُرم
سَنُّ (الكتاب) لإطلاق الإِسار كما دعا، ورَغْب في الإعتراف للنَّسم^(١)
وسَنُّ في فك أسرى الحرب فديتهم بالمال، أو عتقهم بالمن والكرم

عظمة محمد كالشمس لا تنفيها فيوم المظللين .

ومن هذا العرض - بإيجازه وتفصيله - رجع الشاعر نظره إلى من حمل رسالة الخير والبر التي قدمت للإنسان أسباب الخلاص والأمن والاستقرار، مبديا تساميه ﷺ على أن يكون موضع شك أو ارتياب، فهو - بكل ما تقدم - كالشمس الطالعة، التي يلمس كل إنسان أثرها، فيسمو بها على شكوك الشاكين وأوهامهم، وما كانت عظمتة ﷺ وإجلال المحيطين به له لثراء، ولا لقوة أب، ولا لمقدرة علمية، فقد كان يتيما فقيرا، بدويا لم يعتمد على جاه أب، ولا حنان أم، ولا على علم يستوعبه من كتاب أو معلم، ولكنه شغف بكل عمل صالح منذ صباه، فاستغرقت الصالحات شببته، ولم ينخدع بما فيه الآخرون من تجبر أو سلطان، فلم يتطلع إلى رئاسة أو قيادة، فاعتزل هذه الحياة المعتادة، حتى إذا بلغ الأربعين، جاءه وحى ربه، فطلع على الناس بما أوحى إليه من الكلام المعجز، الزاخر بالعلم والحكمة، وواجه قومه وسائر الناس بما لا عهد لهم به في مجال العقيدة والأخلاق، مما تطلع إليه الفلاسفة والحكماء، فوقفوا دون الوصول إلى شيء منه، بل ولم يتبينوا حقيقة ما يرومون .. فقال:

الله أكبر! هل في الشمس طالعة؟ شك، وهل بعد رأى العين من وهم؟
فنى، يتيم، فقير، في البدواة جالت يدها على سفر، ولا قلم^(٢)
قضى شببته في الصالحات، ولم يبلغ الرئاسة يوما ما، ولم يرم
حتى إذا جاء سنُّ الأربعين أتى بمعجز زاخر بالعلم والحكم

(١) سن : شرع ، الكتاب : المكاتبه ، بأن يعاقد العبد مع سيده على أن يحرر نفسه نظير مال يقدمه له مما يحصل عليه من العمل ، الإِسار : الأسر ، النَّسم : التحريك - : النفوس .

(٢) السفر - بكر فسكون - : الكتاب .

أتى بما لم يُلْز يوماً على خلد من فيلسوف، ولا خَبْر، ولا حكم^(١)
وكيف يسبق ما لم يأت بعد سوى رب الزمان، إله الكون، ذى القدم؟!

والشاعر - في حديثه عن بعض مظاهر عظمته ﷺ - على ذكر مما يثيره بعض المبشرين والمستشرقين من مزاعم وأكاذيب مضللة حول شخصه ﷺ، وحول الرسالة والوحى، والقرآن الكريم؛ فهو - في الوقت الذى يذكر عن محمد ﷺ ما يعرف به - يحرص على أن يرد هذه المزاعم والمفتريات بطريق مباشر، أو بطريق الإيماء؛ فإذا كان أمياً لم يتصل بوسائل التعلم فلا مجال لمن يشكك في تنزيل القرآن عليه من ربه، وإذا كان لم يتطلع إلى رئاسة أو نحوها من مراكز الحياة العامة، فلا مكان للمزاعم التى تنكر نبوته، أو تشكك في نزول الوحى عليه، وإذا كان ما أتى به من بيان وفكر لم يمر بتفكير أحد، فهذا دليل واضح على أنه ليس من صنع مخلوق!

ومن هنا... يواصل الشاعر طريقه المبين، فيلفت النظر إلى دور واحدة من أخطر الحوادث التى اعترضت طريقه ﷺ، ليوضح ما انطوت عليه تلك الحادثة من أدلة على صدقه ﷺ... تلكم هى (حديث الإفك) الذى قصيد به الطعن في شرف أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها؛ فالشاعر بحسه المرفه، وصدق إيمانه، يلمح في تلك الحادثة ما يؤكد صدقه ﷺ في كل ما جاء به، وينفى كل ما أثير حول رسالته، ويرى أن وراءها تدبيراً سماوياً، لا تدركه أفهام المخلوقين، فلو أن هذا القرآن كان من صنع محمد - كما يزعم الزاعمون - لما طال انتظاره ﷺ تبرئة ساحة المتهم، أم المؤمنين، ولما امتد به زمن الشك الذى كان يعذبه ﷺ، والمسلمون من حوله في حيرة وإشفاق، وقلق وألم، لا يدرون ماذا يصنعون، وحتى أتى الوحى بالآيات التى تعلن براءة أم المؤمنين، وتكشف أبعاد المؤامرة، فأزاحت عن الصدور تلك الأثقال الكئيبة، وأسقطت عن المنافقين تلك الستر التى يتخفون وراءها، وهم يدسون السم في السمن للنبي ﷺ، وبعد أن عرفت حقيقتهم، ما كان ليقتلهم لأنهم يعتصمون بإعلان إسلامهم، وكل ما أمكن صنعه معهم.. هو تجنبهم فحسب..

إذن... فلا مجال لشك شاك، ولا ممارسة ممار في نبوته ﷺ، إلا أن يكون أعمى أصم، لا يرى الحق، ولا يسمعه! وفي هذا يقول الشاعر:

(محنة الإفك) برهان يدل على صدق النبى، وينفى سائر التهم
لله فيها - وطه في تبليله - من هوها - حكمة تسمو على الفهم^(٢)

(١) الخلد - بالتحريك - : البال والنفس، الحبر - بفتح الحاء وكسرها وسكون الباء - : العالم .

(٢) الفهم - بفتح فـ كسر - : الذى يحسن التصور .

لو كان من قلبه هذا الكتاب لما
يعذب الشك قلبا منه ممتلئا
فلا يست بأمر فيه وهو على
والمسلمون بحال لا شيء لها
حتى أتى الوحى بالآيات معلنة
زوج النبى، ابنة الصديق صاحبه
فأشرفت أوجه الأصحاب من فرح
(منافقون)، يراءون النبى ولا
يدرى النبى بهم، والمسلمون، ولا
أن لا يقال: ابن عبد الله يقتل في
ولو أراد لأفئدهم بما اجتروحوا
أبعد هذا عارى في نبوته

قضى زمانا طويلا، وهو في غَمٍّ^(١)
بالحب والظهر، مغيارا على الحرم
مثل الأسنة لم يبرىء، ولم يصم^(٢)
من التحير، والإشفاق، والألم
براءة الظهر، ذات القدس والعصم^(٣)
خير الورى، بعد خير الخلق كلهم
وجللت أوجه الأعداء بالسخم^(٤)
يألون يَمْنون بالسم في الدسم^(٥)
يقضى عليهم، وهم أعدى عدوهم
أصحابه (وهو أولى الخلق بالدم)
فهم أذل من الجعلان والحلم^(٦)
إلا أصم عن الحق المنير عمى؟!

وبعد أن يطعن الشاعر إلى قوة دفعه، ووضوح حججه .. يخلص إلى الحديث عن
خصائصه التى أهلت له المكانة، فذكر أن القرآن الكريم روح من الله، أوحاه إلى رجل لا مثيل
له بين الرجال، فقد فاق الجميع بأنه لم يهتم إلا بالفضل أو أسبابه، فإذا كان أتراه وأسلافه يسعون
إلى الشهرة عن طريق قول الشعر، فهذا الرجل لم يعرف عنه شيء من ذلك، وإذا كانوا يفتخرون
بما توارثوه من مفاخر، فهذا الرجل لم يأبه لشيء مما التزمه القوم وأغرموا به، ولم يتطلع إلى ما
يتطلع إليه الناس، فلم يكن ملكا ولا ساعيا إلى ملك، لكنه كان بشرا اشتمل على الفضائل
ومكارم الأخلاق التى جعلته يفوق الملائكة .. وليس غيره من البشر فحسب . لقد بلغ به سمو
خلقه درجة عالية، مكنته من التأبى على الرذائل والدون والصفات والأفعال، فأصبحت العصمة
الحقيقية واحدة من مناقبه البارزة. ومع كل هذا لم يسلم ﷺ من قالة السوء، وروايات
الآفاقين، وأخبار المتعجلين، فوصفوه - فى قوة تأثيره - بالسحر، ولو تأنوا وتدبروا الأمر لعرفوا
أنهم يفترون عليه كذبا، وزعم جماعة أنه ﷺ أصيب بسحر ساحر فذهل عن الحقيقة، وهو

(١) الغم - بضم ففتح - جمع الغمة : الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما حصل .

(٢) وصمه يصمه : عابه .

(٣) العصم - بكسر ففتح - جمع العصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليها .

(٤) جللت : غطيت ، السخم - بالتحريك - السواد .

(٥) لا يألون : لا يفترون ولا يضعفون ، يَمْنون - بفتح ياء المضارعة - : يتلون .

(٦) الجعلان - بكسر الجيم - جمع الجعل بضم الجيم وفتح العين : حيوان كالحنفساء يكثر فى الموضع الندية . والحلم - بالتحريك - جمع الحلمة : القرادة الضخمة أو الصغيرة ، ودودة تقع فى الجلد فتأكله ، فإذا دبغ تحرق وتشتق .

زعم باطل لا يثبت أمام شيء من التروى والنظر الناقد، لقد كان ﷺ هدفا للدس من الأعداء ومن سذج المسلمين الذين لم يتأنوا في الأمر، فلهجوا يرددون هذه الأكاذيب من غير وعى ولا إدراك لما يخترعه أعداء دين الله من البدع التي يلصقونها به بقصد الثأر للمكهم الضائع، ونفت السموم بين المسلمين، حتى يخدم بينهم الصراع، ويشغلوا عن الأجنى الذى يخطط لالتهم الأوطان الإسلامية، على ما يراه كل متأمل في شتى الأقطار الإسلامية اليوم.. وهذا قوله:

روح من الله أوحاه إلى رجل	لا كالرجال، بغير الفضل لم يهم
ما كان مشتهرا بالشعر، مفتخرا	باللمس، مثل بنى آباءه اللزم ^(١)
ولم يكن ملكا، لكنه بشر	فاق الملائك بالأخلاق والعظم
العصمة الحق من أدنى مناقبه	إذ كان من خلقه العلوى في عصم
ويستحيل وقوع السحر فيه كما	روى الرواة، بلا نقد ولا فهم
دُست عليهم، فراحوا يلهجون بها	والله يغفر عنهم زلة القدم ^(٢)
وكم لأعداء دين الله من بدع	قد ألصقوها به ثارا للمكهم
سمومها انتشرت في المسلمين فما	قاموا لأجنب للأوطان ملتهم ^(٣)

حال المسلمين اليوم :

ومن الحديث عن أعداء دين الله، وما دبروه من كيد للإسلام في حياته ﷺ، وما دسوه من سموم ليفتنوا المسلمين عن استقامة الإسلام.. يمثل أمام عينيه ما آل إليه حال المسلمين في العصر الحديث، فيتشبث برسول الله ﷺ، مستغيثا، مستنجدا، مقدما أطرافا من الصورة المعتمة التي أصبح عليها المسلمون، بعد أن سلمهم أسلافهم الدولة قوية الجانب، ممتدة الأبعاد والحدود، ممسكة بزمام كل حركة في العالم .

وكأن الشاعر يتوسم أن رسول الله ﷺ لن يصدقه فيما يحكيه عن الأمة الإسلامية، فيصدر حديثه بما يزيل شبهة الشك في صحة ١٠ يقول، فيقرر أن لو جاز لى أن أقدم غير الله فأقسم باسم أحد غيره، إذن لأقسمت باسمك أن أمة الإسلام حاق بها ما توقعته أن يحيق بها في آخر الزمان، حين ينصرف المسلمون عن أسباب القوة الإسلامية، فيصبحون غثاء كغثاء السيل؛ إن أمة الإسلام لم يبق فيها اليوم من الإسلام إلا اسمه، والمسلمون - بما أصابهم من سقوط - أصبحوا محجوبين عن جوهر الإسلام، حتى لكأن حجابا كثيفا يعزلهم عنه، فلم يعودوا يستمسكون من الإسلام إلا بمحاكاتك في صور الأعمال، دون ما قدمته لهم من قدوة في مضاء العزم، وعلو الهمة، وكمال النفس، وصدق الحديث، وعظم الخلق، والاجتهاد في كل

(١) اللزم - بضمم - جمع الزمة : الرجال الذين يلزمون الشيء فلا يفارقونه .

(٢) هج بالأمر - بفتح فكسر - : أولع به فخابر عليه واعتاده .

(٣) الأجنب : يقصد به العريب الأوربي المسعمر .

عمل، والارتكان إلى القوة الحقيقية، والأنفة من تقبل الضيم. بل إن الدستور الذى أنزله عليك رب العالمين هدى ونور، حوله عن مكانه، فلم يعودوا يقرعونه إلا سعيًا وراء اللحن المطرب، كأن وظيفة الكتاب محصورة فى أن يقرأ بمجلس شراب يتسلى به الحاضرون، أو على مقبرة يسترحم به الميتون. وأصبحوا فى المهام مشغولين بغير القرآن من كتب خادعة، لاهية فيها، ولكنهم يتوهمون أنها هى التى تناسب العصر، وتمدهم بالنور، فهم يكون عليها - مع خوائها - كما يكب الوثنى على الصنم؛ فهذه الكتب التى يكون عليها تشبه الأوعية الحجرية التى توضع فيها جثث الموتى؛ وهم - فى انحرافهم عن جادة الإسلام - قد أصبحوا كغيرهم يتعبدون بآراء المشايخ كما يتعبدون بنصوص الكتاب الكريم، ومن أى ذلك المسلك الشاذ، فر إلى ما هو أشد منه شذوذاً، فأسلموا عقولهم وعواطفهم لأبناء الغرب، فكما كفر الأوروبيون فى الغرب بالدين، واستبدلوا الفكر العقلى بالدين، كفر هؤلاء كذلك بالإسلام، وصنعوا صنيع أهل أوربا، منكرين بما خلف آباؤهم من أجداد يشهد بها - إلى اليوم - فحول العلماء والمفكرين فى أوربا.. وما أرادهم إلى هذا إلا الضعف الذى أصابهم فى كل مناحى حياتهم، إذ الضعف أصل كل فساد وتحلل.. وفى هذا كان قوله:

<p>أقسمت باسمك يا أعلى الورى شرفا لقد غدت أمة الإسلام واهلة لم يبق فيها من الإسلام - وأسفا - قامت حجابا كثيفا دون دعوته حاكتك فى صور الأعمال تبجها ولا كمال، ولا صديق، ولا مخلوق ولا تقوم إلى القرآن تقرؤه كأنما أنزلت آى الكتاب لكى تبدلوا منه كتباً لاهية بها تحكى نواويس موتى صُيرت زمنا عُدُّوا المشايخ أربابا يعدُّهم وآخرون أصاروا الغرب قبلتهم</p>	<p>لو جاز تقديس غير الله بالقسم منا القلوب، فأضحت (قصة الأمم)^(١) إلا اسمُه، وبها معناه لم يُسم بما إليه سقوط المسلمين نُمى وما اقتدت بك فى عزم، ولا هم ولا اجتهد، ولا عز، ولا شمم إلا أمانى بالألحان والفرغم^(٢) تلى على شرب راح، أو على رجم^(٣) كأنما عكفوا منها على صنم فلا ترى بين أجسام بغير دم^(٤) أقوالهم كنصوص الواحد الحكم فهم بها غير طواف ومستلم</p>
---	---

(١) واهلة : ضعيفة، ويشير بقوله (قصة الأمم) إلى ما جاء فى حديث (ثوبان) أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن

تدعى إليكم الأمم كما تدعى الأكلة إلى قصبتها ... » .

(٢) الرثم - بالتحريك - : رجع الصوت ، مثل الترم .

(٣) الشرب - بفتح فسكون - : القوم يشربون ويجمعون على شراب . الرجم - بالتحريك - : القبر .

(٤) النواويس - جمع ناووس - : حجر منقور توضع فيه جثة الميت .

رأوا (أوربا) فراحوا يكفرون - على
وأنكروا محمد آباء لهم شهدت
جهل - بدينهم الموروث والشيم
لها فحول رجال الغرب بالقدم^(١)
فالضعف أصل جميع البؤس والنقم

التوجه إلى الله بالابتهاال

وبعد أن شخص الشاعر أمراض أمته، وأوضح منشأ تلك العلل، وبين آثارها العاجلة والآجلة، اتجه إلى الله مبتها مستنجدا، طالبا منه الرحمة بأمة محمد ﷺ؛ التي غفلت واستسلمت للنوم، تاركة عدوها منتبها يستحوذ كل شيء، حتى لقد بلغ النوم بالعرب درجة جعلتهم يغفلون عما يهددهم في مستقبلهم، ولا يتعظون بما أصاب بعض أسلافهم في الماضي، حين غفلوا مثل تلك الغفلة. ومن أوضح مظاهر تلك الغفلة مانراه اليوم من الصراع المحتدم بين العرب بعضهم مع بعض تاركين العدو يقف على أبوابهم راصدا هذا الصراع، مشعلا نيرانه، مترقبا آثاره، حتى ينقض على الطائفتين بعد أن تضعف إحداها الأخرى، فيستولى عليها في سرعة خاطفة، كما صنع من قبل في الأندلس!

ويفسر الشاعر موقفه وحرصه على إنقاذ أمته، فيذكر أن سعادته مرتبطة بسعادة أمته، وأن مصابها يناله، وذلها يصيبه، لأنه واحد من أفرادها الذين تقوم عليهم وبهم.

ثم يواصل ابتهاله بربه صاحب العرش العظيم، الذي يملك أن يحيى ما درس من الأموات وبلى، بما بعث به محمدا ﷺ من هدى ونور، راجيا منه أن يجير أمة محمد من الدواهي التي أنزلها الغرب بها، وأن ينفخ فيها منه روحا تمنح أبناءها الحياة واليقظة والوعى، حتى تنهض مرفوعة العلم، تطهر الكون مما انتشر فيه من رجس وفسوق، ومن ظلم وجور؛ فقد وصل الداء بالأمة درجة لا ينفع معها الأدوية المسكنة، ولكنها تحتاج إلى الدواء الناجع القائم على هدى رسل الله! وذلك قوله:

يارب رحاك إن الغرب متبها
والعرب في غفلة عما يهددها
يا ويجهها تنعادي، والعدو على
والوقت أضيق، والأحداث في عجل
إنسى السعيد إذا ما أمتى سعدت
إذا أملت ففى آماها أملت
والشرق مشغول بالنوم والسأم
لم تعتبر بليالى يؤسها الدهم^(٢)
أبوابها يرقب الأحداث عن كتم^(٣)
بنى وهدم، والآفات كالديم^(٤)
حالا، وفي ذلها ذلى، ومهتضى^(٥)
وإن أملت فمن آلامها أملت

(١) القدم - بكسر ففتح - : السبق .

(٢) الدهم - بضمين - جمع الأدهم : الأسود .

(٣) يرقبه عن كتم - بالتحريك - : عن قرب مثل : عن كتب .

(٤) الديم - بكسر ففتح - جمع الديمة : مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق .

(٥) المهتضم : الظلم .

يارب، يا صاحب العرش العظيم، ومن
بما بعثت به خير الأنام أجر
ولقها منك روحا لا يغادرها
تطهر الكون مما فيه من رجس
فلا دواء له مما يكابده
تحى الإرادة منه دارسَ الرمم^(١)
يارب أمته من صمة الصمم^(٢)
إلا وقد نهضت منشورة العلم^(٣)
ومن فسوق، ومن ظلم، ومن أزم^(٤)
إلا هداية خير الرسل كلهم

ثم ينتقل من هذا اتعميم في رجائه .. إلى التخصيص، بادئا بنفسه؛ فيرجو الله أن يملا فؤاده
نورا من هداية محمد ﷺ، وأن يجعل توجيهاته ﷺ ممزوجة بدمه، وأن يقدر له الخير، وأن
يرزقه شفاعته محمد ﷺ في يوم يشتد فيه كرب النفوس، وأن يسقيه من حوضه ﷺ ما يزيل به
عن حلقه أثر الحرارة يوم الحشر، وأن يغفر ذنوب أبيه وأمه وزوجته، وذوى قرباه، وذوى
رحمه، وأن يصلى أزكى صلاة وأدومها على رسول الرحمة الكريم، وأن ينشر رضاه على الصديق
صاحبه في الغار، ذى البر والإشفاق والرحمة، صاحب المواقف الجليلة دفاعا عن الإسلام في
عصر النبي ﷺ، وبعد وفاته حين ووجه بالمرتدين من العرب، وأن يرضى عن عمر الفاروق
أول من جهر بالإسلام وصلى في الحرم على مرأى ومسمع من قريش، والذى قوض مملكتى
الفرس والروم، وأقام على أنقاضها دولة تطاول الأقطار والأنجم عزا ومنعة، وأن يرضى عن عثمان
ذى النورين، أخشع من تلا كتاب الله، والذى أنفق من أمواله ما يجهز جيشا بأكمله إرضاء لله
خالقه، وأن يرضى عن على أبى الريحانيين الحسن والحسين، الذى اتخذ خيرا لورى أخا له،
والذى خاض المعارك دفاعا عن الإسلام، وفدى المصطفى ﷺ بنفسه. ثم ختم ابنهاله بالسلام
على طه ﷺ وعترته وآله، وخص من العترة السيدة فاطمة وأبناءها وأزواجهم الأكرمين، راجيا
أن يجعل مسك الختام تحيات تفوح على محمد ﷺ، مادام هناك برق يومض في الظلماء، ومادام
هناك ريم يسعى بين البان والعلم. فقال:

واملا فؤادى نورا من هدايته
واقدر لى الخير وارزقنى شفاعته
وبل من حوضه حلقى إذا اتقدت
واغفر ذنوب أبى، فضلا، ووالدنى
واجعل عزائمه ممزوجة بدمى
فى يوم يؤخذ بالأنفاس والكظم^(٥)
نار الأوام، وكل العالمين ظمى^(٦)
وزوجتى، وذوى قرباى، والرحم

(١) الرمم - بكسر ففتح - جمع الرمة : العظام البالية .

(٢) صمة الصمم : داهية الدواهى ، ويعنى بذلك فتحة الغرب .

(٣) لقاء الشيء - بتضعيف القاف - : جعله يلقاه .

(٤) الرجم - بكسر ففتح - : القدر ، لغة فى الرجم بسكون الجيم ، الأزم - بالتحريك - : الشدة .

(٥) الكظم - بالتحريك - : الحلق ، أو القم ، أو مخرج النفس .

(٦) بله بالماء : نداء ، الأوام - بضم ففتح - : حرارة العطش .

وصل أذكى صلاة منك دائمة
وانشر رضاك على (الصديق) صاحبه
رب المواقف في عصر النبى، وفي
ثم ارض عن (عمر) الفاروق أول من
مقوَّض الفرسان والرومان شائدهم
وأرض (عثمان) ذا النورين، أخشع من
مجهز الجيش، إرضاء لخالفة
وعن (على) أبى الریحانين، أخى
سيف النبى، وفاديه بمهجته
ثم السلام على (طه)، وعترته..
على (البطل) على الكبرى، على (حسن)
واختم بمسك نحيات يفوح على
ما أومض البرق في الظلماء من إضم

على الرسول؛ رسول الرحمة القسم
في الغار، ذى البر، والإشفاق والرحم
وفاته، وحيال (الردة) العمم!
صلى برغم أنوف القوم في الحرم
ملكاً يطول على الأقمار والنجم
تلا الكتاب بدمع منه منسجم^(١)
في عسرة الجيش بالإبريز والقضم^(٢)
خير الورى، بطل الأبطال قطبهم
إمام كل صدوق في اللقاء كمي^(٣)
وآله قرناء (الذكر) في الحرم
على (حسين) على أزواجها العصم^(٤)
(محمد) خير مبدوء ومختتم
وما عطا الريم بين البان والعلم^(٥)

فالشاعر على أحمد باكثير في مدحته شاعر مهموم، تلفت حوله بحثاً عن وسيلة تخفف عنه
شيئاً من همومه، فلم يجد؛ لأنها ليست هموماً شخصية، بل هي هموم عامة، تحوج - في القضاء
عليها أو مواجهتها - إلى تجمع عام، ولكن هذا التجمع يبدو للشاعر بعيداً - إن لم يكن مستحيلاً -
صعب الإدراك، في ظل هذا التفتت الذى أصاب الأمة، وأطمع فيها العدو الغاصب الخالد،
المتربص بها كل سبيل!

ومن هنا... انطلق بمشاعره من مكة إلى رحاب المصطفى ﷺ. أملاً في أن يجد في هذه
الرحاب ما يذيب من قلبه تلك الهموم، وما يثلج خواطره، ويلهم فكره منفذاً للخلاص،
ويشرح صدره إلى مستقبل أمته!

ولذلك... وجدناه في كثير من المواقف - بل في القصيدة كلها - لا يملك إخلاص مشاعره
لمدح عهده ﷺ؛ فما يبدأ في معايشة إحدى شمائله ﷺ أو مواقفه، حتى يتوارد على ذهنه بعض
مصابه في أمته، فتمتزج في نفسه المشاعر الخاصة بالمشاعر العامة، على ما رأيناه في أفكاره المطولة!

(١) الدمع المسجم : السائل .

(٢) الإبريز - بكسر فسكون - : الذهب الخالص ، القضم - بالتحريك - : السيف .

(٣) الكمي : الشجاع المقدم الجريء كان عليه سلاح أو لم يكن .

(٤) البتول من النساء : العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله ، والسيدة مريم رضى الله عنها ، والسيدة فاطمة بنت سيدنا رسول
الله ﷺ ، وهى المقصودة هنا ، العصم - بضمين - جمع العصماء : الكريمة .

(٥) عطا الريم : رفع يده ، والشاعر يحم قصيدته بهذا البيت إيماء إلى مطالع البوصيرى والبارودى وشوق .

والشاعر - في اجترار أحداث أمته - لم يغيب عنه وعيه بتاريخها القديم ، ولاندت عنه ثقافته العامة ، خصوصا تلك الثقافة ذات المقومات الإسلامية ، من قرآن كريم وحديث نبوي شريف ، وتاريخ إسلامي مجيد .

كما يلاحظ الناظر في قصيدة باكثر تمكنه من اللغة ، وسعة قاموسه سعة لم تحوجه كثيرا إلى استنطاق المعاجم ليغطي تلك القافية برويها على مدى أكثر من خمسين ومائتي بيت ، فتميز - بذلك - عن سابقه ، على ماتشير إليه الحاجة إلى الترجمة اللغوية هنا وهناك .. ولاريب أن في هذا - إلى جانب التمكن اللغوي - مايوميء إلى مدى انطلاقه في قصيدته مع الدفقات الوجدانية ، التي فاضت بها نفسه في موقفه ، من غير حاجة إلى قطعها بمعاودة النظر في المعاجم .

وقد وضح تميز الشاعر - كذلك - في ابتهالاته التي ختم بها مدحته ، إذ تغلب عليها المسحة الوجدانية بشفافيتها .. حتى حين ضمنها بعض الأعلام والعلامات التاريخية ، من صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته !



— ٥ —

ميشيل الله ويردى^(١) فى قصيدته (وحى البردة)

فى لقائنا السابق مع على أحمد باكثير ، رأينا الشاعر تشغله هموم الأمة الإسلامية ، فتفيض على جنبات نفسه ، حين توجه وهو فى رحاب الكعبة المشرفة إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، راجيا أن تكون قصيدته المطولة رسولا بين يدى هذا التوجه باثا فيها شكواه مما ألم بالأمة الإسلامية ، فأبعدها عن المسار المستقيم ، راجيا أن تنال من شفاعة رسول الله ﷺ ما يخلصها مما ران عليها ووقعت فيه من غفلة وضلال .

وكان اشتغال الشاعر بهذا وراء تجاوزه منهج أسلافه فى مقدمتهم الطليعية التى بدأوا بها قصائدهم ، فلم نجده مشبها ولا ناسبا كما صنعوا ، ولكن قدم لقصيدته بإيماءات إلى معاناته الفعلية ، فكان أقرب إلى الواقع . !

ونحن — هنا — مع الشاعر (ميشيل الله ويردى) فى وحى البردة — على مدى خمسة وعشرين ومائة بيت — ، نراه فى التمهيد لمدحته لا يستطيع الفكاك تماما من أسر البوصيرى ومعارضيه — البارودى وشوقى وعبدالمطلب — كما صنع باكثير ، ولكنه يستقل عنهم بعض الشيء ، فيخالفهم فى المنهج الطللى فحسب ، وذلك بنقضه ما ذكروه فى مطالع قصائدهم ،

(١) القصيدة نشرت كاملة فى مجلة الرسالة القاهرية ، العدد (١٠٠٥) الصادر فى ١٠/٦/١٩٥٢ ك . وفى العدد (١٠٠٦) من الرسالة ص ١١٥٨ الصادر فى ١٣/١٠/١٩٥٢ ذكر الأستاذ جمال مرسى بدر تعليقاً على القصيدة ، أشار فيه إلى أن كلمة (الله ويردى) لقب تركى ، تعريفة (عطية الله) ، وفى العدد (١٠٠٨) من الرسالة الصادرة فى ٢٧/١٠/١٩٥٢ ص ١٢١٣ نشر الأستاذ عزيز خانكى تعليقاً يفيد أن عائلة (الله ويردى) عائلة أرمنية مسيحية كالوليكية ، لها صلة قرابة بعائلة المرحوم يعقوب أرئين باشا ابن المرحوم أرئين بك ، أحد وزراء محمد على الكبير .

داعيا إلى وجوب الانصراف - أمام رسول الله ﷺ - عن التشبيب بالنساء ، فالموقف أجل ،
والعواطف الجياشة نحو الممدوح أقوى وأوضح من أن يحتاج معها الشاعر إلى وسائل ؛ فأنوار
هادى الخلق جميعهم في دراسة العلم شغلت عن ذكر جيران بذى سلم ، وأرسلت نغم التوحيد
التي تلقاها عن رسول الوحي ، فكانت كالروح التي تمنح الحياة وتبثها في كل ما تصادفه من
كائنات ، وكانت كالزهر المبتسم الذي تهش له النفوس ، وتجد فيه راحتها .

ومن هذه الرؤية المبكرة ، يتجه الشاعر إلى نفسه بالخطاب ، حتى ينأى بها عن مسلك
سابقه ، ويقنعها برؤيته هو ، فيوضح أن مزج روح الواقع بباب المصطفى ﷺ بالروح التي
ازدهرت ببعثه يغنيه عما فعله أسلافه من مزج الدمع الساجم بالدم ، وأن شمه العطر الفواح من
روضة الرسالة المحمدية ، ألد من عشق ريم القاع والأكم ، وهذا ليس بعجيب ولا غريب ؛ فإن
من أحب عظيما اتحد معه في الرأي والفكر ، قبل أن يتحد معه في الشكل والفناء ؛ لأن الحب
صنوان ، خيرها حب الروح ، والثاني حب الماديات ، والعامل الذي لا يهتم بحب الماديات . !

ومع تقرير الشاعر هذه الحقيقة ، ينحى على نفسه باللوم ، ويتندم على انحرافه عن الطريق
المستقيم في الهوى ، ويتمنى أن لو لم يضيع أحلام عمره بالاستسلام إلى ذلك الحب المادى
وحده ، فإنه ينشئ قصرا من الأوهام سريع الفناء والانهدام ، ويتمنى أن لو لم يهم إلا بمن عرفوا
برقة القلب ، بدلا من حب من يوسمون بالظلم والعقم ؛ فإن كثيرا من الأحباب يجازون بالصد
من يختلف معهم في أفكارهم ، قبل أن يتجاوزوا ذلك إلى البحث وراء التهم التي يلصقونها بهم ،
لقاء اختلافهم معهم ، ولا ريب في أن من يصحب حبيبا لتوافق على شرب ، أو مجلس غناء ،
مآله الندم والتحسر .

ولا يقف الشاعر - مع نفسه - عند حدد اللوم والتندم ، ولكنه يسعى لقيادتها إلى
الاستقامة ، فيتوجه بالأمر إلى نفسه ، ليقبها الانهيار من الألم ، ويقب حسنه السوء من الملل ، وما
ذلك إلا بأن يخلص هواه لرسول الله ﷺ ؛ كي يضمن شفاعته له يوم الحساب .

ويسقط عن نفسه المخاوف والريب ، فيغريها بأن تلزم رسول الهدى ، كي ترشف من
ورده العذب من الرحمة والشفقة ما ينقع ظمأها ؛ فقلبه ﷺ ينبوع رحمة ، يقبل على كل إنسان
بالفرح والبشر ... ففي مطلع قصيدته قال :

أنوار هادى السورى في دارة العلم	رفت على ذكر جيران بذى سلم ^(١)
وأرسلت نغم التوحيد عن ملك	كالروح منطلق ، كالزهر مبتسم
فمزجُ روحك بالروح التي ازدهرت	يفنيك عن مزج دمع ساجم بدم ^(٢)
وشمك العطر فواحا بروضتها	ألد من عشق ريم القاع والأكم

(١) الدارة من القمر : حالته ، والدارة : ما أحاط بالشئ . رف النور : تالأ .

(٢) الدمع الساجم : السائل .

ومن هم بعظيم يتحد معه
والحب صنوان ، حب الروح خيرهما
يا ليت أحلام عمرى لم تضع بدداً
وليتى لم أهم إلا بمن عُرفوا
فكم حبيب إذا خالفت فكرته
ومن يساق حبيبا صد تحمرته
فاربأ بنفسك أن تنهار من ألم
واجعل هواك رسول الله تلق به
هذا رسول الهدى ، فارشف على ظمأ
كأثما قلبه ينبوع مرحلة

بالرأى والفكر ، قبل الوسم والأرم
فلا تكن للهوى الفانى بملتزم
بحب قصر من الأوهام منهدم
برقة القلب ، لا بالظلم والعقم
جازاك بالصد قبل البحث فى التهم^(١)
وسحر أخانه ، يندم وينفطم^(٢)
واربأ بحسبك أن يكمد من سأم^(٣)
يوم الحساب شفيها فائق الكرم^(٤)
من ورده العذب عطفاً شاق كل ظمى
مستبشر بالرؤى ، جدلان بالنسم^(٥)

واقع محمد صلى الله عليه وسلم من أروار عظمتة .

ويرى الشاعر أنه بتلك المقدمة ، قد هيأ نفسه لمخاطبة رسول الله ﷺ ، ليخاطب في شخصه الناس أجمعين ، ليكشف بعض خصائصه ﷺ ، التى تميز بها من سائر البشر فى واقع حياته ، تاركاً لخيال من يتلقى شعره أن يضع الخط فى موقعه المناسب حتى تكتمل صورة المصطفى ﷺ ، ملتزماً - فى ذلك - بنهج سابقه الذى يقوم على أن أصدق المدح وأروع هو ذلك الذى يقوم على حسن تصور الواقع الحى للمدوح ، ما دام هذا الواقع كله أمارات عظمتة ، ودلائل تفوق وفضل . !

ومن هذا المنطلق نسمع صوت الشاعر - وهو يستحضر صورة المدوح أمام بصره وبصيرته - يناديه ﷺ ، فى قوة صوت تنبئ بمدى ثقته ، فيتخير من أدوات النداء ، أعلاها صوتاً وأنداها ... يا أيها المصطفى المبارك طالعه ، إن بركتك ليست خاصة بك ، ولكنها للبشرية كلها ، فقد اصطفاك الله ليطلع منك نورا يبدد به ظلام الجهل الدامس ، وأبرز مظاهر هذا النور أنك وحدت ربك ، ولم تشرك به ، ولم تسجد لصنم كما كان يصنع قومك ، لرفضك أن تشرك بالله مالا حول له ولا طول ، ولا يستطيع أن يرد الروح إلى الميت ، فعادت أهلك فى رفضك هذا ، وفى قيامك لتحطيم بدعهم ، وصمدت أمام عداوتهم ، حتى لكأنك وحدك الذى خلقه الله ليدفع عن الناس غشاوة الجهل ، ويعتصم بالحق .. وذلك قوله :

يا أيها المصطفى الميمون طالعه قد أطلع الله منك النور للظلم
وحدت ربك ، لم تشرك به أحداً ولست تسجد بالإغراء للصنم

(١) الصد : الهجران .

(٢) ينفطم : ينصرف .

(٣) ربأ بنفسه ونزهها ، الكمد : التغير وذهاب الصفاء .

(٤) الجدلان : الفرحان .

وكيف تشرك بالبرحم آلهة لا يستطيعون رد الروح للبرحم
 عادت أهـلك في تحطيم بدعتهم من ينصر الله بالأصنام يصطـلـده
 كأن ربك لم يخلق لدولتـه سواك من مرسل بالحق معـتـصـم
 وينطلق الشاعر مع انطلاقة المصطفى بالرسالة ، فيبرز أن أثر الرسالة في الناس قد انعكس
 على أجناد إبليس الذين ضجوا من بأسهم ومللهم وأساهم ؛ إذ بدا عجزهم واضحا ،
 وأصبحت جهنم تشكو الجوع ؛ لأنها لا تجد حطبا يلبي حاجتها ، بعد أن استجاب الناس لدعوة
 السلام في الأشهر الحرم ، حتى لكأن أحد قد كبل أجناد إبليس بالأصفاد ، فلم يتمكنوا من
 مباشرة وسواسهم ، وارتدوا مقهورين نادمين ، وما ذلك إلا لأن هذا النبي الطاهر الشيم قد
 أسس شرعه الذي قدمه للعالمين على أقوم الأركان ، فغذى عقول الناس جميعا بأوضح الأفكار ،
 وأصدق المبادئ ، حتى أتاح لهم عيش النعيم ، ونقاهم من الذنوب والآثام ، وعلم العرب ،
 فنهض بهم حتى ساد أبنائهم ، وتسمنوا أعلا الممالك ، فوجد الناس في كنفهم الأمان والعدل
 والسماحة ، وكانوا في تطبيقهم شرع الله جادين مخلصين ، كأن هذا الشرع جزء من نفوسهم ،
 فاشتبهوا بالأمانة والعدل والصدق ، والوفاء ، ولم يعودوا في حاجة إلى تأكيد وفائهم بالقسم ،
 فكانوا مبرزين أعلاما في كل أحوالهم من غير خلط بين متطلبات الحرب ، وواجبات السلم ،
 فهم في الحرب جبابرة ، ولكنهم في السلم عدل مجسم ، وبذلك مكنوا لملكهم من النفوس ومن
 التاريخ ، بينما زال من الممالك ما شيد على الطمع .. حيث يقول :

أدى الرسالة ، حتى ضج من سأم أجناد إبليس ، واشتد الأسى بهم
 وأفلست - بعد إقبال - جهنمهم ولم تجد حطبا في الأشهر الحرم
 كأن أحد بالأصفاد كبلهم فارتد جيشهم المقهور بالسـدـم^(١)
 شرع على أقوم الأركان أسسه للعالمين نبى طاهر الشيم
 غذى عقول الورى حتى أتاح لهم عيش النعيم ، ونقاهم من الآثـم^(٢)
 وعلم العرب حتى ساد نسلهم هام الممالك ، وارتاحت لعدولهم
 كأنما الشرع جزء من نفوسهم فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم
 (قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة) فإن هم قسّموا أرضوك بالقسم
 وخلدوا ملكهم ريان مؤتلقا وكل ما شادت الأطماع لم يدم

صورة الإنسان الكامل ،

وعندما يصل الشاعر إلى هذه الدرجة من البيان ، يتوقف مع تأملات عالية الصوت ،
 يقدمها للمتلقين في أبيات تضم الخبرة الواعية والحكمة الصافية الخالصة ، كاشفا من أسرار الحياة

(١) السدم - بالتحريك - : هم أو الغيظ والحزن .

(٢) الآثم - بالتحريك - : الوقوع في الإثم .

ما أبرز الإسلام قيمته ، فيذكر أن الممالك التي تشاد على الجشع لا تدوم طويلا ، وأن أثر تسلط المال على النفوس قوى عنيف ، حتى إن الشيب قد يجعل الفتى يمل من مآربه ، بينما عبيد المال لا يملون من كثرتهم ؛ فإن حب المال يصنع في الإنسان ما تصنعه النار المشتعلة في وقودها ، إذ لا تشبع حتى تقضى على كل الوقود ، كذلك حب المال يظل يدفع محبه حتى يقضى عليه ، دون أن يحصل شيئا ، ولو أن كل إنسان أدرك أن المال لا يبقى ، لما أبقي على علاقة تقوم على رابطة المال ، وكذلك حال العاشق الوهان .. لو أدرك أن العشق مهما بلغت حرارته ، فمآله إلى السلو والنسيان .. إذن لما عنى نفسه بهذا الأمر .. وكذلك حال الإنسان مع أمور الدنيا كلها ، تبدو ذات بريق خلاب ، فإذا سيطر على الإنسان رغبته فيها تحولت إلى سم قاتل ، فليس أنما من إنسان يزهد هذه الأمور ، ولا يطلب منها إلا بقدر حاجته الضرورية .. إنه بذلك يضمن لنفسه راحة الفكر من المتاعب ، وينأى بها عن السقوط في تلك الهاوية التي يكاد لا ينجو من تأثيرها إلا القلة النادرة ... عبر عن ذلك في قوله :

إن الممالك إن شيدت على جشع	تُفَرَس ، ولا خير في الحيتان للبلم ^(١)
وقد يمل الفتى بالشيب من أرب	ولا يمل عبيد المال من بشم ^(٢)
أثون نار زفور جد محتم	والمال يهوى بخلق جد مزدحم ^(٣)
لو أدرك المرء أن المال تاركه	لمل صحبة خوان الوداد عمي
ولو درى العاشق الموتور كيف سلا	أحبابه ، لم يبت يوما بقرهم ^(٤)
كفاك هما ، فأهواء الدنى غصص	تودى بصفوك ، مثل السم في الدسم
والزهد راحة فكر من متاعبه	فإن دعابا وأهملناه ينتقم
همننا بفانٍ ، فأغرانا وأذهلنا	رأى قلب محب الأرض لم يهم ١٩

والشاعر - كما نرى - بتأملاته تلك لم يقطع نفسه عن موضوعه ، ولا جمد الموقف - كما قد يتبادر إلى الذهن - ولكنه وظف تلك التأملات في إبراز مقصده - وهو تصوير ما كان عليه المصطفى ﷺ من تميز وتفوق - فبعد أن قدم من تأملاته صورة الإنسان - في عمومه - إزاء تلك المغريات المادية الخادعة ، كيانا ضعيفا ، أحمق ، لا ينتفع بتجارب الآخرين ، ولا يستغل ما حياه الله به من وسائل التأمل في كشف الحقيقة ؛ فهو دائما عبد رغباته الدليل ، على الرغم مما تفعله بكل واحد تحت سمع الباقيين وبصرهم ... بعد ذلك قدم الصورة المقابلة لتلك الصورة الضعيفة ؛ فأرانا المصطفى ﷺ إنسانا متأبيا على الخضوع لتلك المغريات ، فلديه من قوة النفس ما يمكنه من التحكم في أهوائه تلك ، من غير شطط .

(١) تفرس : - بضم فسكون - قتل وهلك . البلم - بالتحريك - : صغار السمك .

(٢) البشم - بالتحريك - : الإكثار من الطعام حتى يتخم .

(٣) الأثون - بفتح المهملة وتضعيف التاء وقد تخفف - : الموقد الكبير ، زفرت النار : سمع لاحتقادها صوت .

(٤) الموتور : الذى قتل جميعه .

وتبلغ المقابلة بالشاعر درجة تشخص أمام عينيه صورة محمد ﷺ ، فيتوجه إليه بالنداء ،
مبرزاً أحد مظاهر هذا التميز - وهو الزهد - ليكشف أثره في تعامله مع الأهواء البشرية ، حيث
يراه ﷺ أزهد الناس في الدنيا - على الرغم من تمكنه منها - فهو ليس زهد العاجز الذي يزهد
فيما لا يملك ، ولكنه زهد القوى ، المتمكن مما يرفض ، فقد زهد في الدنيا ، وتحت يده
خزائنها ، وطوع أمره كل من حوله من الناس يلبون له ما يطلب ؛ فكان ﷺ - في ذلك
الزهد - مثار الدهشة والتعجب ؛ إذ كيف يعانى إنسان آلام الجوع راضياً بالدون الذى يقيم أود
الإنسان ، في الوقت الذى يستطيع فيه أن يستمتع مما تحت يده بما يصيبه بالثخمة ، وكيف
يتمكن إنسان مما تمكنت أنت منه ، ولا تهتم بأن تكون ملكاً متوجاً ، كما يفعل كل من يصل به
السلطان قريباً من تلك الدرجة ... بل إنك أشققت على هؤلاء وأولئك وتوجهت إلى الله راجياً
منه أن يجبرهم من عمايتهم ، ناثياً بنفسك عن ذلك إلى موارد الصفاء والنقاء ، بينا القوم حولك
يتضحكون - بجهلهم - مما تفعل من أجلهم ، هازئين بك ، ساخرين منك ، حتى أضعفهم
الجهل والوهم ، وقادهم إلى موارد التهلكة ، فكأن أفكارهم - تلك - ألقت بأرواحهم في هوة
الجحيم ... حيث يقول :

يا أزهد الناس في الدنيا ، وفي يده	خزائن الملك ، والأنصار كالخدم
عجبت .. كيف تعانى الجوع مرتضياً	حظ الفقير ، ولم تلتذ بالثخيم
ولم تبال بتيجان مرصعة	ولم تكن للألى ضلوا بمرسم ^(١)
تقول : رى أجرحهم من عمايتهم	وتصرف النفس نحو المورد الشم ^(٢)
فاستضحك القوم هزءاً ، واستبد بهم	وهم فصيرهم لحماً على وضم ^(٣)
كأن أفكارهم من طول ما شقيت	ألقت بأرواحهم في وهدة الحطم ^(٤)

عندئذ يعقب الجواب بآريج محمد الزاهد في مغريات الحياة ، الحريص على هداية قومه ، غير
المبالى بما يقابلون به حرصه ذاك من هزء وسخرية ﷺ ، فتصفو نفس الشاعر ، ويناله من هذا
العقب نفحات ، تسمو بمشاعره ، وترقى بفكره ، وتكشف أمام بصيرته وبصره ما يخفى على
الكثيرين ، فينطلق لسانه بتلك الحكم المتدبرة ، ليبين قيمة تلك الحياة ، ومصير الإنسان ،
ومدى إفادته مما تغص به من بهارج وزخارف ؛ إذ يرى أن النار الحقة إنما هى تلك التى تصيب
النفس حين تندم على ما سلف منها ، فليس أشد على الإنسان من أن يستسلم لأهوائه ، ولا
يستطيع أن يكبح عنها جماح نفسه ، فليس أفضل للإنسان من أن ينقذ نفسه ويلبى حاجتها
الحقيقية التى لا تكون إلا برضا الله الخالق ، والحياة نفسها تؤكد ذلك ، فليس هناك طعام - أيا

(١) ارتسم خطاهم : لم يتجاوزها .

(٢) المورد الشم - بفتح فكسر - : البارد .

(٣) الوضم - بالتحريك - : كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير .

(٤) الحطم - بضم ففتح - كالخطة : التران الشديدة ، واسم لجهم .

كان نوعه - ينقذ الإنسان من مصابه ، وليس هناك ثوب - مهما بلغت قيمته - يقيه شدة النار وويلاتها ، بل إن القصور المشيدة - مهما بلغت قوتها وارتفاعها - لا تقى الإنسان من الموت ، فالموت ينال ساكن القصر كما ينال ساكن الخيمة من غير تأثير لهذا ولا لتلك . والموت إنما يأتي على الإنسان الذى انهمك فى الملاذ ، وشغل بها عن المآثر التى تبقى على الزمان حاملة اسمه ، فتقيه الفناء ، على الرغم من موته وانتقاله إلى القبر . والعمر مهما طال إنما يعادل يوما ، فإذا انقضى هذا اليوم ، فلن يمكن رجوعه ، فما على العاقل إلا أن يهتئ الزاد الحقيقى الباقى ، قبل فوات الأوان ، وحلول الشيب والهرم .

ثم ينتقل الشاعر من الحديث المتأمل - أو من التأمل بصوت مرتفع - إلى الحديث عن نفسه ، ليبين أثر تلك التأملات فيها ، فيعلن أنه - نتيجة تلك الرؤية البصيرة - أسلم أمره لله ، لأنه وحده هو الذى يحفظنى ، كما يحفظ الأزهار فى الحقول ، والأطيار فى الجبال .! وكيف لا يصل الإنسان إلى تلك الحقيقة التى ما غابت عن الكائنات الأخرى ، على الرغم من أن خالق الكون جل وعلا قد فضل هذا الإنسان على سائر الكائنات ، وحلاه بالحكمة ؟!

ولو تصورنا أن الجاهل يبلغ بالإنسان درجة تجعله يغفل عما يجب أن تقوم عليه الحياة من رحمة ، فإننا لا نستطيع أن نتصوره بعكس الحقائق ويرى أن فى الألم والشقاء ما يتطلع إليه من مكاسب ؛ إذ لا يصدق عاقل أن الروح المعلقة بالتراب يمكن أن تسمو وهى على حالتها تلك ، كما لا يصدق أن يعلو كائن ضعيف على الآساد فى الآجام .! وفى ذلك قوله :

والنار حرقه نفس من ندامتها	يا بؤس من لم يجد عن شر مغتسم !
فأسلم بنفسك .. إن الروح يعوزها	رضا الذى علم الإنسان بالقلم
فلا طعام من البأساء ينقذنا	ولا لباس يقينا شدة الضرم
وهل تفيدك أبراج مشيدة	والموت فى القصر مثل الموت فى الخيم
والمرء يفنى إذا لم يبق مآثرة	تحيا إذا باتت الأجساد فى الرجم
والعمر إن طال يوم لا رجوع له	فهتئ الزاد قبل الشيب والهرم
أسلمت لله أمرى فهو يكلؤن	كالزهر فى الحقل ، والأطيار فى العلم
ألست أيها الإنسان أفضلها	وبارىء الكون قد حلاك بالحكم ؟!
فإن يغب عنك أن العيش مرحلة	فكيف تدرك أن الفوز بالألم ؟!
وكيف تسمو بروح بالثرى علقت ؟!	وكيف تعلو على الآساد فى الأجم ؟!

من مظاهر العظمة فى الهدى المحمدى ،

ويخلص الشاعر من تلك التأملات ، ليعود إلى ما شرف به من قبل ، حيث توجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ثانية مقررا له إعجابه بما أثمره بره من خير ونعمة ، فقد قدم للإنسان من التوجيهات ما لو التزموا به لما كان للجهل ذلك الأثر الفتاك ، ولما أصيب الناس بالعوز والفاقة ، ولما وقع الناس فريسة تلك الأحكام والفلسفات التى تقودهم إلى الهلاك ؛

فقد أغرق الناس في خضم زاهر من المذاهب المتناقضة ، التي أحدثت في الأرض من البلبلة ما قاد الناس إلى الحروب المتوالية ، والأزمات المتراكمة ؛ فلقد أغنيت أهل الأرض عن ذل الحاجة بما قدمته بتشريع الزكاة وغيرها من أنظمة المال التكافلية ، التي توطن العلاقة بين الأغنياء والفقراء . حتى يخيل للمتأمل أنك - حين قدمت هذه التشريعات - كنت تبصر ما سوف يصل إليه العالم في عصرنا ذلك ، قبل أن تصيب الناس تلك الويلات والكوارث .. أو أنك تنبأت - على هذا البعد الزمني - بما وصل إليه مفكرون في العصر الحديث من تخبط عقدي انتهى بهم إلى الإلحاد .. قاتلا :

إن نبوتك ما أنكرها إلا من حارب الله ، وإلا من روع الناس بالتعذيب والظلم .. !
فيا نبى الهدى حياك الله على ما اتسمت به من طهر ، وما نهضت عليه من عدل .. لقد أحبيت دينك لما نشرته به من مساواة بين الناس ، وجعلت التقوى معيار التمييز ، ولما أسست عليه نظام الحكم ، ولقولك أنك مرسل لهداية الناس جميعا من غير تخصيص ولا تمييز ، ولا اعتمادك في دعوتك على الإقناع بالحوار ، دون اللجوء إلى العنف ؟ !
إن في دينك السمع يذوب الاعتزاز بالجنس والعرق ، وتلاشى حواجز الدول والممالك ، فكل إنسان يربطه بالآخرين روابط الأخوة ، حيث ينهض الجميع معنيين أن الله وحده هو الأكبر ، وأن كل شيء من المخلوقات إلى فناء ، فمن اعتر بشيء منه فقد اعتر بزائل ، ولا عزة إلا لمن يلوذ بجلال الله ، فهو وحده الذى بيده الملك كله ، وإليه وحده مرجع الجميع يوم البعث ..

إن الشاعر في وقفته تلك أمام رسول الله يتجاوز - في حديثه معه - فيض العواطف وتحليق المشاعر ، ونبض القلوب ، ليسلك كل ذلك مع رؤية البصيرة ، وإفراز العقل في نظام واحد . هو ذلك العقد الذى ربط فيه بين إعجابه بسلوك المصطفى ﷺ ، وإعجابه بما تضمنه الإسلام من مبادئ تقود الإنسان إلى الهدى والنور في شتى مجالات الحياة .. وذلك قوله :

آيات برك من خير ومن نعم
لم يفتك الجهل والإعواز بالأثم
في الإجتماع ، تلقّيمهم إلى العدم
وأورثنا بلايا الحرب والإلزام
أهل الغنى للألى ماتوا من السقم
من قبل أن فاض بالويلات والنقم
سادت به فكرة الإلحاد والنهم
وروع الناس بالتعذيب والحمم
بالطهر متسم ، بالعدل مدعم

أقول للمصطفى : أعظم بما ابتدعت
لو يتبع الخلق ما خلّدت من سُنن
ولم ير الناس أحكاما وفلسفة
مذاهب أحدثت في الأرض بلبلة
أين الزكاة ، وأين العشر يحمله
هل كنت تبصر ما أودى بعالمنا
أم هل تنبأت عما تم في زمن
نبوة .. حارب الجبار مُنكرها
فيا نبى الهدى حييت من علم

أحببت دينك لما قلت : أكرمكم
وقلت : إني هدى للعالمين ، ولم
في دينك السماح لا جنس ولا وطن
الله أكبر ، والأكوان فانيّة
سبحان من يديه الملك أجمعه
أتقاكم ، وتركت الحكم للحكم
تلجأ إلى العنف ، بل أقنعت بالكلم
فكل فرد أخ ، يشدو على علم !
ومن يلد بجلال الله لا يضم !
ويرجعون إليه يوم بعثهم !

كيف نهض محمد بأمة .

فالشاعر أمام إعجابه بما قام عليه الإسلام من مبادئ وقيم جردت الناس من أسباب العنف والجور ، وخلصتهم من عوامل الحقد والحسد ... لا يملك إلا أن يقدم التحية والتعظيم لمن جاء بهذا الدين ، دون أن يفصل بين الإسلام ورسوله ﷺ ، منها بين الحين والآخر إلى أن صلته بالقرآن الكريم وطيدة ، على ما تبديه إشاراته الكثيرة إلى بعض المضامين القرآنية .. !

ولكنه لا يغفل عن مقصده الأصلي - وهو مدح النبي ﷺ - فيقود متلقيه من لقاء الرسول ﷺ لتحيته ، إلى الوقوف أمامه من قرب ، للاستمتاع بالنظر إليه ، مستجلبا بعض شمائله وصفاته ؛ فهو ﷺ عبقرى الورى - على الرغم من أميته - الذى تفرد بين العرب بما دعاهم إليه من الوحي المتوازن ، فقدم إليهم وحى ربه فى آيات كريمة غراء ، لا يمكن لخلق أن يأق بمثله ، واستطاع بهذا الوحي أن يسترد شاردهم ، ويلم متفرقهم ، ويجمعهم من شتات ، فصنع منهم لحنا جميل الإيقاع ، متناسق التوزيع ، حيث وضع كل واحد فى مكانه المناسب ، كما استطاع أن ينقذهم من ظلام الجهل ، وينتشلهم من براثن العادات المردولة ، ويظهر عقولهم من الحق والخط الذى قادهم إلى وأد بناتهم ، وتمسكهم بكثير من النظم البالية التى لا تمدهم إلا بما يفتك بهم ؛ إذ جاء محمد ﷺ فرد من ضلوا إلى الصواب ، وعلمهم أن المرأة كالرجل لها حقوق وعليها واجبات ، فاستنقذ النساء من الهلاك المحقق . !!

ويزداد إعجاب الشاعر بمحمد ﷺ حين يتأمل بعض شمائله ، فيصيح معلنا أن محمدا بما قدم كان فخراً لكل عربى ، يتيه به على كل إنسان ، أيا كان موقعه من الأرض .
وأنه ﷺ - بتشريعه الذى أخذ به الناس - كان سيد المصلحين ، من عرب ومن عجم ؛ فقد كرم المرأة بصيحاته السديدة الواقعية ، التى أعلن بها الناس علاقة المرأة بالرجل ، ونبه فيها إلى أنها لا تقل عن الرجل أهمية ، فهى التى تمد الأمة بالأبناء الصالحين ؛ إذ تقوم عليهم بالرعاية والإعداد ، والتربية ؛ فكان أول من أيقظ الناس من غفلتهم ، ولفتهم إلى واقعهم الذى طالما غفلوا عنه ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وعلى الرغم من ذلك .. نرى أهل الغرب فى عصرنا الحديث يتوهون أنهم هم الذين كشفوا تلك الحقيقة !

وأنه ﷺ ، ما خاطب الناس بطريقة واحدة ، ولكنه كان يخاطبهم على قدر عقولهم ، وكان أرف بالمسكين من هؤلاء الذين يرفعونها شعارات براءة ، ولكنها لا تتجاوز الشعارات ، فهم فى

سلوكهم يرون الفقراء أسراباً من الغنم الضعيفة ؛ فكان ﷺ الطبيب البارع المخلص الذى عالج الأرواح ، ودأوى النفوس ، من غير تمييز ، فأولى اليتيم والأرملة رعاية وحيطة ، كما رعى النفوس التى ذلت تحت وطأة الشر والظلم ، فنشر الخير والعدل والوفاء . ! وفى ذلك قال الشاعر :

يا عبقرى الورى الأمسى هل سمعت
آياتك الفر إعجاز تنزهه عن
كأنما الناس آلات مبعة
من علم الجاهلى الفر مكرمة ؟
محمد رذ من ضلوا ، وعلمهم
يا فخر أمتنا فى الأرض قاطبة
عززت كل فتاة ، حين صحت بنا :
فأنت أول من نادى بمأثرة
خاطبت كل ذكى حسب قدرته
وكننت أرف بالمسكين من دول
إن كان ينجع طب الناس فى جسد
ترعى اليتيم ، وترعى كل أرملة
من قبلك العرب وحياء جد منسجم
ند ، وليس دعى الحب كالسديم^(١)
أخرجت منها جيل اللحن والنغم
وأذ البنات أم البالى من النظم ؟
حق النساء اللواتى كن كالرمم
وسيد المصلحين ، العرب والعجم
ما أولد العز غير السادة الحشم^(٢)
يظنها الغرب من آلاء بعضهم
ولم تكن بغى القوم بالرم
رأت بأمثاله سرباً من الغنم
فأنت تفعل بالأرواح كالحم^(٣)
رعى الأب المشفق الباكي من اليتيم

حاجتنا اليوم إلى مانع بأمتنا أس .

ومن هنا ... يتوجه الشاعر إليه ﷺ بالدعاء ، أن يخلصنا اليوم من أشباه ما خلاص منه الإنسان قبل ، من الأمراض الجسمية والنفسية والاجتماعية ، تلك التى أصابتنا حين انصرفنا عن دين الله .. فيرجوه ﷺ أن يرعى النفوس وينقذها من الدل الذى أصابها من ظلم الطغاة الجبابرة ، حتى أفقدوها أبويها الكريمين : حب الخير ، والشمم ، وحتى صيروها يتيمة ضعيفة ، لا تستطيع المقاومة .. ويتمنى أن يهبنا مبدأ حيا ، ويمنحنا قوة نستطيع بها أن نقدم على التضحية ، كما صنع هو من قبل ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

عندئذ .. تتراعى للشاعر صورة المجتمع الإسلامى الذى صنعه محمد ﷺ منذ وطئت قدماء ترى مدينة يفر ، فيتمنى أن لو انتشر بيننا فى هذه الآونة ما نشر هناك من إحاء ، ظلت راياته ترفرف فى سماءها من غير انقطاع .

ويقرر الشاعر أن ما يتمناه ليس بالمتعذر ، ولا المتعسر ؛ فالإنسان هو الإنسان ، والقلوب هى القلوب .. إذا ألفت ائتلفت ، لأن الود كالحبل ما دام لم يقطع . إذ يقول :

(١) العاشق السدم - بفتح فكسر - : شديد العشق فى الحب .

(٢) الحشم - بضمين - : ذور الحياء التام .

(٣) حسم الداء بالدواء : قطعه .

فأرع النفوس التى ذلت ، ویتّمها
وهب لنا مبدءاً حيا ، وتضحیة
ليت الإخاء الذی فی یثرّب انتشرت
إن القلوب إذا ألفتها اتلّفت
فقد الکریمین : حب الخیر ، والشّمم
بها تفرّدت بین الناس من قدّم
رایاته .. ظل فینا غیر منقصم
والودّ حبّ ، فإن تصرّمه ینصرم

واقع السلمین القائم یؤكد حاجتنا إلى الهدی الحمدي ،

وهنا ... تبدو لعینی الشاعر ، حقیقتنا القائمة ، التی تبین ما آل إلیه أمرنا الیوم ، حیث یری الشر مستشریا ، والخطر عظیما ماحقا ، یکاد یتعصی علی العلاج ، فیتساءل بحثا عما یمکن أن یطهرنا الیوم من الاختلاف والقطیعة التی علقت بالأرواح کأنها الوشم فی علوقه بالأجساد ، ویتعجب مما ران علی الناس ، فاستبدت بهم الجفوة ، وسیطر علیهم الطمع ، کأنما أصابهم صمم ، فلم یسمعوا صوت الحق والعدل الذی أطلقه محمد عالیاً قویاً . ١

لقد أسمعنا وأرشدتنا .. ولكننا نسینا وغفلنا ، واستسلمنا لأهوائنا ، ففقدنا التوازن ، وأمسی العزیز بیننا ذلیلا ، وأصبحنا فی حاجة ماسة إلى أن تنفخ فینا - من جدید - روح نخوة تعیدنا إلى التوازن وتجمع أواصرنا ... وأن تبعث فینا همة تنهض بها ، کما نهض بها من قبل أبائنا ، وفی ذلك کان قوله :

ماذا یطهر قومی من تناذهم
أجفوة ورعاة غرهم طمع
أسمعنا فنینا ، واستقل بنا
فانفخ بنا نخوة تجمع أواصرنا
والصد یعلق بالأرواح كالرشم^(١)
کأنهم عن نداء الحق فی صمم
هو ، فأمسی عزیز القوم كالخطم
وابعث بنا همة یباعث الهمم

الموازنة بین ما یتیه به السابقون و بین الهدی الحمدي ،

وهنا یقوم الشاعر بعقد مقارنة بین ما قدمه محمد ﷺ ، وما قدمه السابقون مما یعترفون به ویتهیون فخرا ، علی الرغم من أن ما قدموه لم یمکن له من تأثیر فی بناء النفوس ، والسمو بالأرواح ، فهم لم یتجاوزوا الشكل المادی ، أما أبناء بابل فقد أفنتهم مآثمهم ، وأما الفراعنة فإنهم لم یخلفوا إلا الهرم ، وكذلك صارت حدائق أهل تدمر وبساتینهم خرابا ، فلم یبق شیء یدکر بهؤلاء وأولئك إلا تلك الآثار البالیة ، ولا ریب أن الفارق شائع بین من یدکر الخیر به ، ومن لا یدکر به إلا الأطلال والمبانی الدارسة ، ولو أن من اعتمدوا فی تسجیل أمجادهم علی المبانی المشیدة رأوا ببصیرتهم مآل تلك المبانی لما اعتمدوا علیها ، فقد زالت أمجادهم ولم یمکن منها سوى أطلال بالیة ، والتاریخ خیر شاهد علی صدق هذا ... بیننا نجد المصطفی ﷺ قائما حیا فی الناس بما قدم لهم من قیم وأخلاقیات ومبادئ ، حتی أصبح کل لسان یلهج بالثناء علیه ، علی نحو ما یقرره فی قوله :

(١) الرشم : الوشم .

أبناء بابل أفنتهم مآثمها
وتدمر ومغانيا غدت خربا
يا ليت من شيدوها للفناء رأوا
زالوا وزالت مع الآثار عزتهم
والمصطفى خالد في الناس ما بزغت
أم النجوم ، ومدوح بكل فم

ويخلص الشاعر من تلك المقارنة المدعومة بالحجج ، التي تقفنا على بعض مناحي العظمة
الحمدية ، ذات التأثير الإنساني ، فلم تكن عظمته ﷺ عظمة ذاتية شخصية فحسب ،
ولا كانت عظمة فردية أو إقليمية كذلك ، ولكنها عظمة شملت الإنسان في شتى بقاع الأرض
بالخير ، وأمدته في مختلف العصور بالنور والهداية ، فلا يملك الشاعر إلا أن يتوجه - بصيخته -
إلى العرب الذين انبثق في أرضهم وبينهم هذا النور ؛ موقظا همهم ، منها غافلهم ، لافتا
أنظارهم إلى ما كانوا عليه حين اعتزوا بدينهم ، واقتدوا بهدى نبهم ، وإلى ما آل إليه حالهم حين
تنكبوا الطريق ، وخدعوا بمظاهر الأشياء ، فشغلوا عن لبابها !

والشاعر - في صيخته تلك - ينادى في العرب أمجادهم الماثورة ، ليتذكروا حقيقة كادوا
يغفلون عنها ، وهي أن المجد لا يفوز به إلا الشعب الموحد ، ويستنكر أن يقلبوا - بتخاذلهم -
الأمور ، فيصبح الخير شرا ، ويترك الميدان للأشرار ينبهون خيرهم وأمنهم . ويذكرهم بأن
الكرامة تأتي عليهم أن يستسلموا للذل ، ويدفعوا ثمن جرائم لم تصدر منهم !

دعوة المسلمين والنصارى إلى التمسك بهدى محمد صلى الله عليه وسلم :

ومن هنا .. يتبهاً المقام لأن يطلب إليهم أن يستجمعوا أمرهم معتزين بالله الذي وحدهم ،
حريصين من المكر والدهاء الذي كان وراء ما آل إليه أمرهم من شتات وفرقة ، ويذكرهم
بما نالوه بشرية أحمد من تهذيب ، ومانشرتة بينهم من حب وعدل وسلام ، وذلك قوله :
يا أيها العرب الماثور مجدهم
أصبح الخير شرا من تخاذلنا ؟
إن الكرامة تأتي أن نذل ولم
فاستجمعوا أمركم ، فالله وحدهم
وشرع أحمد بالقرآن هذبكم
ثم يتوجه بالنداء إلى المسلمين مذكراً إياهم بأن الفخر فخرهم ، وأن النصرى العرب
إخوانهم باللسان والعلم فوحدة اللغة والوطن ، تربط النصرى بالمسلمين ، وهذا يوجب على
المسلمين أن يؤيدوا دينهم بالفعال الكريمة ، وقيموا حياتهم على أعظم القيم الإنسانية وهو
الحب ، فهذا هو الدين الحق . وفي ذلك يقول :

يا أيها المسلمون الفخر فخركم
فأيدوا بالفعال الغر دينكم
ولنح إخوانكم بالنطق والعلم
فقيمة الحب عندى أعظم القيم

ما الدين إلا هوى في نفس عاشقة ومن يح باهوى يوم النوى يلم
وتصل هذه الرؤية البصيرة بالشاعر إلى وقفة متأنية يسترجع في أنائها ما توصل إليه من
توجهه إلى رسول الله ﷺ ، ونظرة في الإسلام وواقع المسلمين في ماضيهم الزاهر ، وحاضرهم
الكئيب ، فإذا بالحكمة تتوارد على لسانه ، مصورا بها خلاصة الموقف ، فقد رأى أن عالم الفناء
الذى ينتظر كل إنسان يتساوى فيه من نال في دنياه مآربه ، ومن مات قبل أن تتحقق آماله ،
وذكر أن هذه الرؤية أملاها عليه لحظة صفاء ، تمكن خلالها من إدراك الحقيقة من غير زيف ،
وكانت تلك الرؤية الصوفية دافعا لانصراف نفسه عن الدنيا ، لأن من يسعى إلى المعالي يتحمل
في سبيلها كل عناء . ومن يدرك هذه الحقيقة ، يجب عليه أن يستهدى في الكون بهدى الله جل
شأنه ، وأن يكون حبه - كحب الملائكة - مقصورا على حب الله ، وأن يلزم الاستقامة ،
ويتجنب سبيل من قصروا هواهم وحبهم على الدنيا ، فإن حب الحسان يخلف المحب عيلا دامى
المهجة ، من غير سأم ولا ملل . وذلك قوله :

سيان - يا قوم - من يقضى بلا أمل
عن الدنيا ، ومن يهوى العلى يصم
فاستهد بالروح في الأفلاك ، واهو - كما
أما اكتفيت من الدنيا بمجه ؟

حب الشاعر محمداً وأثر ذلك فيه ،

ويندفع الشاعر - بعد التعرض لتلك التجربة الإنسانية على تباينها - مصورا أثر حبه محمداً
فيه ، فيذكر أنه أصيب في فؤاده بسهم الحسن ، حتى أصبح ثبات قدمه مثار دهشة وتعجب ،
إذ كيف يقوى على الوقوف من أصابه مثل هذا الجرح البالغ . ولكن الذى مكننى من تحمل هذه
الأثار إنما هو ما جرى على لسانى من أناشيد أذكر فيها تجربتى ، فقد رطبت تلك الأناشيد
صدرى ، وأطفأت نيران لوعتى ، ففرجت عنى مصابى ولو أن فؤادى بخل على فلم يسعنى بما
أخلد به حبى هذا فأولى بنفسى أن تبحث لها عن كهف ببطن الأرض يطويها . وإنى بهذا الشعر
الذى أخلد فيه حبى إياك لأرجو أن تخلد ذكرى ، فأكون كمن نسيه الموت وتركه للخلود ..
فيقول :

رمت فؤادى بسهم الحسن فاتنة
نذت أناشيدَه نيرانَ لوعته
إن لم يخلد فؤادى الحب فالتسى
علَّ النسيئة تنسانى ، كما نسيت

فاعجب لصب جريح ثابت القدم
ففرجت عن عليل بالجمال رمى^(١)
يانفس كهفا ببطن الأرض واعتصمى
عراس البحر صيد النسر في القمم

(١) قضى فلان : مات .

(٢) ندى المطر الشجر : أصابه بالبلل .

ولا يطيل الشاعر وقوفه مع التأمل والحكمة وحديث النفس .. ولكنه يترد سريعا إلى مشافهة محمد ﷺ بما يراه عليه ، ليكمل ما بدأه من تصوير شخصي ، يبرز صورته ﷺ المستقرة في مكنون نفس الشاعر - ممهدا بذلك لخم مدحته - فيرينا محمدا نفحة من جنان الخلد ، شرفت بها الأرض ، فعطرت أرجاءها ، واجتذب أريجها المشرق والمغرب ، ثم يقدم نفسه إلى ممدوحه - وفي الوقت نفسه إلى متلقيه ليزيل من نفسه ما قد يكون من شبهات - بأنه محب يربطه بمحمد ﷺ من وشائج الحب الفطري الخالص ، ما جعله يتجاوز فوارق الأنساب والأرحام ، فإن ارتباط الحب بالأنساب والأرحام ثمرة زعم كاذب ، لاحقيقة له ، لأن الناس من عهد آدم جميعهم رباط وثيق من محمد ، فقامت على هذا شرعة الحب الحقيقية بالالتزام .

ثم يقرر أنه أحب في محمد صفات متميزة خصه بها الخالق جل شأنه - من جمال الوجه ، وظرف الطبع ، والوفاء بالعهد - فكلما يعشق الشاعر في الغيد جماهنا ، فيمنحه وحيا شعريا ، يكتب له الخلود .. فكذاك حالي معك ، فقد منحني حبك هذا الوحي الذي عاد على بالخير العظيم ، فكنت مثل نجم منير استمد من نوركم نوره .. وفي ذلك كان قوله :

يا نفحة من جنان الخلد سارية	كالدرد يلثم في الأسحار من أم
إني محب ، ومحبوب .. ولوزعموا	أن الخبة بالأنساب والرحم
فالناس من آدم بالمصطفى اجتمعوا	وشرعة الحب أم الناس فأتم
يا أجل الخلق سيماء ، وأظرفهم	طبعاً ، وأوفاهم بالعهد والذم ^(١)
عشقت منك صفات ، جل مبدعها	كالغيد ، تفتن لب الشاعر الفهم
يرنو ، فيمنحه وحياً يخلده	ورب حب مثير جاء بالعظم
ورب نجم منير يستضيء بكم	«فأنتم الشمس لم تدرك ولم ترم»

وهكذا .. يمهّد الطريق للحديث عن تلك المدحة التي أفاضها عليه هذا الحب ، فيذكر أن ما في هذا الشعر من حسن إنما أنت مصدره ، فهو قبس من شمسكم ، ولولا ذلك لما كان هذا الشعر . وما كنت أنت في حاجة إلى شعر تمدح به بعد أن حياك ربي في كتابه الكريم ، وبما أجرى على يديك من آيات ، لكن ما أقدمه هنا إنما هو تصوير شعري لشخصكم الكريم ، قصدت به أن تحيرني حين أخلع من عالم الأحياء . حيث يقول :

وحسن شعري بكم من شمسكم قبس	والنبع ما سال ، لولا صيب الدِّم ^(٢)
فإن أجدر هذا الطل مدحككم	فكل معنى بكم كالهطل العرم ^(٣)

(١) السيماء : السيماء والعلامة .

(٢) الدِّم - بكسر ففتح - جمع الدِّمة : المطر يدرم ، الصيب : المطر .

(٣) العرم - بفتح فكسر - جمع العرمة : المطر الشديد .

حيّاك ربي بآيات مفصلة والناس أعجز عن إدراك ربهم
لكنها صورة بالشعر أرسمها لأستجير بها إن بت كالحلم

يبدأ حديثه عن شعره في مدح المصطفى ﷺ ، لا يشغله طويلا عن ممدوحه ، الذي يجد راحة النفس في الحديث عنه ، وذكر اسمه ، وتمثل شخصه بالنداء .. فيعاود الوقوف أمامه - بعد استحضاره بالنداء - مردداً بعض خصائصه ، مستشفعا به ، مقسما عليه بحق ترديده التوحيد في الحرم ، راجيا الله أن يصلي عليه حيا في قلوب من أنار لهم طريق الحياة ، وأن يصلي عليه ثاويا ما كان على الأرض حياة ، وأن يصلي عليه ذكرى محمودة ممدوحة إلى أن يقوم الناس يوم البعث ومحمد ﷺ إمام الصلاة فيه .. وذلك قوله :

يا هادي الفكر أهدها إليه	عباده منة من فضله العمم
إن يمدحوك بآيات منمقة	فأنت تفرق قلبي عن قلوبهم
تبـارك الله ، لو شاءت مراحمه	لشع نورك بين الناس كلهم
إن لم تكن بوكيل فاشفعن لنا	بحق ترديدنا التوحيد في الحرم
صلى إليه على عيّاك في مهج	تحيا بها كحياة النور في السدم ^(١)
صلى إليه على مثواك ما صدحت	ورقاء أو هيمنت عطرية النسم
صلى إليه على ذكراك ممتدحا	حتى تؤم صلاة البعث بالأمم

فالشاعر (ميشيل الله ويردي) في مدحته شاعر مهموم كذلك ، أثقلته هموم أمته ، فلم يملك - على الرغم من نصرانيته - إلا أن يتجه إلى من قام بالدور نفسه في إنقاذ العرب والإنسان على وجه العموم مما حاق به في ظل الجهل والطيش ، وما خلفه ذلك من فساد وظلم واستبداد !

يبدأ إن الشاعر - هنا - يختلف عن (باكثر) في المنهج ، فبينما نجد الهموم تستغرق باكثر ، فيسلط عليها أضواء شعره ليبرز أخطارها ومضاب الإنسان بها ، مؤكداً بذلك الحاجة الشديدة إلى إعادة العصر النبوي بماساده من علم ، ونور ، واتزان ، وعدل .. نجد (ميشيل) أكثر تركيزا على استحضار السلوك النبوي ، وشمائله ، وقيم الإسلام الذي أوحى إليه ، ليسقط - من خلال ذلك - من واقع الأمة ما آل إليه أمرها في ظل هذا الضياع والتفكك الذي استشرى بكل بقعة من بقاعها !

أى إن الشاعر (باكثر) جعل استيحاء واقع أمته وسيلة لاستيحاء العصر النبوي وما قدمه المصطفى ﷺ لأمته فيه من أسباب الإنقاذ . أما (ميشيل) فقد جعل استيحاء العصر النبوي ، والوقوف أمام فعال المصطفى ﷺ وسيلة لاستيحاء همومه وهموم أمته .

(١) السدم - بضمين - جمع السديم : مجموعة نجوم بعيدة جدا تظهر كأنها سحابة رقيقة ، ومنه المجرة .

ومع هذا .. نلاحظ أن هما آخر يثقل كاهل الشاعر (ميشيل) أبداه على حياء ، أو بدا منه عن غير قصد .. وذلك هو الهم الناشئ عن حاجته إلى أن يعادل بين ما يفترضه فيه الكثيرون من أبناء دينه (النصارى) ، حيث يشعر بأنهم يفترضون فيه أن يكون معاديا للإسلام ولرسوله محمد ﷺ ، متغافلين - أو غافلين - عما بين الإسلام والنصرانية من عرى وروابط تجمع الناس - على خير الناس - ولا تفرق ؛ فرأيناه بين الحين والآخر ينبه إلى منطلقه في مدحه ، تارة بالتصريح وأخرى بالتلميح والإيماء .

والقصيدة - مع هذا وذاك - تكشف عن الأبعاد الثقافية للشاعر ، وتحزم بمدى تأثيره بالثقافة الإسلامية - على اختلاف ألوانها ومظاهرها - خصوصا آيات القرآن الكريم ، وتاريخ المصطفى ﷺ .

وفي ابتهالات الشاعر واستشفاعه ندرك جهده في محاولة التغلب على همومه الناشئة من الصراعات الطائفية ، حيث كرر الدعاء بالصلاة على المصطفى ﷺ ، شافعا كل دعوة بحالة من خواصه ﷺ .

وكما وضع تميز بالكثير في غلبة النزوع الوجداني على قصيدته ، نلمس هذا التميز كذلك في مدحه (ميشيل الله ويردى) !



الدكتور حسن إبراهيم^(١) فى قصيدته (محمد رسول الله)

وعلى منهج (باكثير) ، و (ميشيل الله ويردى) فى تجاوز الالتزام بالمقدمة الطللية .. يطالعنا الدكتور حسن إبراهيم على مدى أربعة وعشرين ومائة بيت فى قصيدته (محمد رسول الله) ، لكنه فى عدم التزامه ذلك لم يستطع أن يخلع نفسه تماماً من المنهج السلفى فى الوقوف على الأطلال تمهيداً لتقديم موضوعه ، حتى ليبدو أنه متردد فيما اعترمه ، أو أن سلطان هذا المنهج التقليدى بلغت سيطرته على الشاعر درجة لم يتمكن معها من التخلص من كل آثاره ، ولكنه واقع بين قوتين متضادتين تتنازعانه ، هذه تفرض عليه تجاوز المقدمة الطللية ، وتلك تملأها عليه إملاء ، فلم يستطع إلا أن يكون وسطاً بين الوجهتين ، فمهد لمدحته بمقدمة ينفى فيها عن نفسه الوقوع فى حب الغانيات - كما وقع أسلافه - ويقرر أنه اتجه مباشرة بقلبه إلى ربه ، وإلى ممدوحه المصطفى ﷺ دون الحاجة إلى التوسل - فى ذلك - بمحركات عاطفية أو فنية مصنوعة .. فإذا

(١) الدكتور حسن إبراهيم ، العالم الطبيب ، الأديب ، ابن الدكتور على إبراهيم ، نابعة الجراحة ، وأحد الرواد ، الذين هدفوا إلى إحياء لغة الطب العربى ، منذ مطلع القرن العشرين ، والدكتور حسن من مواليد سنة ١٩١٤ ، تخرج فى كلية الطب سنة ١٩٣٧ ، ونال إجازة الماجستير المعادلة للدكتوراه فى ذلك الحين سنة ١٩٤١ ، ثم نال زمالة كلية الجراحين الملكية فى إنجلترا سنة ١٩٤٦ ، ومنحته هذه الكلية لقب أستاذية هنتر على بحث فى سرطان المثانة الناشئ عن البلهارسيا سنة ١٩٤٧ ، وتدرج فى مناصب هيئة التدريس فى كلية الطب بجامعة القاهرة ، حتى عين أستاذا للجراحة التجريبية سنة ١٩٦٢ ، ثم عين عميدا للكلية سنة ١٩٧١ ، ولما بلغ السن القانونية للمعاش سنة ١٩٧٤ عين أستاذا متفرغاً للجراحة ، واختير عضواً فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٩ . وقد ألقى الشاعر هذه القصيدة فى الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية ، فى الدورة الخامسة والأربعين الثلاثاء ٣٠ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٧٩ ، ونشرت فى مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الثالث والأربعين جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق مايو سنة ١٩٧٩ .

كان البوصيرى يردد أمره بين تذكر جيران بذى سلم وبين هبوب الريح عليه من جهة الأرض التى ولد فيها النبى ﷺ ، ليرجع الأخير .. وإذا كان شوق يعلن أنه وقع أسير ريم على القاع بين البان والعلم ، وإذا كان كعب بن زهير - من قبل - لم يتالك نفسه أمام فراق سعاد ؛ إذ أصاب قلبه التبل .. فإن الدكتور حسن إبراهيم ينفى عن نفسه هذا وذاك ، فلا هو - فى تهيئه لمذح المصطفى ﷺ ثائر العاطفة ، باك ، يبحث عن سر بكائه - كما صنع البوصيرى - ولا هو عاشق استهواه العشق ، وملك عليه أقطار نفسه ، كما صنع كعب وشوق ... ولكنه يقظ واع لما هو مقبل عليه ، فهو يتجه إلى غرضه مباشرة ، من غير حاجة إلى تمهيد تشبىي ، ولا حاجة إلى ما يتخلص به لموضوعه ... وما تنبه أنه - إذ ينفى ذلك عنه - وقع فيه من غير أن يدري ، غاية الأمر أنه تشبىي سلبى ، ينفى فيه عن نفسه أنه ذاب شوقاً لجيران بذى سلم ، ويقرر أنه لم يأرق لذكر أطلال الأحباب وديارهم ، ولا أباح لحسناء القاع أن تسفك دمه فى أى وقت ، ولا وقع فى أسر سعاد وحبا ، حتى إن بينها عنه لا يخلف تلك الآثار التى خلفتها فى كعب بن زهير ...

ويخلص إلى موضوعه الأصيل بتفسيره ذلك التأبى على حب الحسان ، بأنه يرجع إلى اشتغاله بحب أعظم منه ، وأعمق أثراً فى القلب وفى النفس ؛ فقد اتجه بتلك العاطفة إلى الله بآرثه ، وإلى رسوله المصطفى راجياً شفاعته من المؤاخذه على ما وقع فيه من آثام ؛ فقد هيانى المشيب لأن أفق عاطفتى ووجدانى على ذلك ، متندماً على ما كان منى فى سالف أيام عمرى ... وذلك قوله :

ما ذبت شوقاً لجيران بذى سلم	ولا أرتق لذكر البان والعلم
وما أبحت لريم القاع سفك دمسى	فى الأشهر الحل ، أو فى الأشهر الحرم
وما سعاد إذا بانت بمبتلة	منى الفؤاد ، فإن القلب فى شمس ^(١)
إنى اتجهت بقلبى نحو بارئه	من مطلع الفجر ، حتى غيب الظلم ^(٢)
وسيدى المصطفى ، أرجو شفاعته	وهو الشفيع لنا من زلة القدم
إن المشيب علانى ، فاتعمظت به	وكم أرتق لوزرى غيرة النائم

منشؤه صلى الله عليه وسلم :

ومن هذه المقدمة الموجزة يخلص الشاعر إلى محمد ﷺ ، الذى اتجه إليه راجياً شفاعته ، فبدأ الحديث عنه مؤرخاً كاشفاً بعض ما مر به فى حياته من مشقات ومتاعب ، كان له أثر كبير فى إعدادة ، ليكون الإنسان الجدير باصطفاء ربه واختياره لأخطر مهمة ، فتناول يتمه قبل مولده ، وموت أمه فى طفولته ، وقيام جده على تربيته حيناً ، ثم انتقاله إلى كفالة عمه بعد موت جده ، ورعيه الغنم حين شب ، وسفره بالعر متاجراً ، واشتاره - فى أثناء ذلك - بالأمانة

(١) أتبله الحب وتبله : أسقمه وذهب بعقله ، الشيم - بالتحريك - : برودة القلب ، وقلة حسه .

(٢) الغيب من الليل : الشديد الظلمة .

والصدق حتى كنى بهما ، ورفضه ما عليه قومه من عبادة الأصنام ، واتجاهه إلى الخلوة ، والتأمل بحثاً عن الحقيقة ، بعد أن أثار تعجبه عكوف قومه على ما توارثوه من صنع الأصنام ، ثم السجود لما صنعوا في خشوع وخشية ؛ فتساءل - مستنكراً - عن مدى قدرة هذا الحجر الصلد ، الذى لا عقل له .. على إحكام تسيير الكون ، بما يشتمله من أجرام ومجرات ، أو على خلق إنسان ، هو نفسه الذى خلق هذا الصنم بما في يده من آلات ؛ ولذلك كان موقفه من عبادة الأوثان واضحاً حاسماً ، فرفض أن يشارك قومه في عبادتها ، أو تقديم القرابين إليها ، ولم يستطع إزاء ما عليه قومه جميعهم من استسلام وخضوع للأوثان ، إلا أن يختار لنفسه مكاناً تطمئن فيه وإليه نفسه ، يقيم فيه الليالي والأيام متأملاً ، فتصفو نفسه من أوشاب مجتمعه ، وتتخلص من تلك الأثقال المضنية .. حيث تعلن حركة الأفلاك الكونية - بنظامها الدقيق البديع - عما وراءها من تدبير وإحكام ، يفرض وجود مديبر حكيم ، هو وحده رب الكون وما فيه ومن فيه .. حيث قال :

من الشقاوة والنعمى ، ومن خُثم
وفى الطفولة عانى شقوة اللطم^(١)
لعمه ، والعمى موصولة الرحم
كل النبين ، قد هشوا على الغنم
وهو الأمين على قوم ومالهم
فصار يكنى أميناً ، وهو خير سى
توارثوه عن الآباء من قدم
ويسجدون خشوعاً ، خشية الصنم ؟

مسيرة الكون ، والأجرم والسدم ؟
إنساً ، وقد خلقته الإنس بالقدم^(٢) ؟
ولم يشارك بقربان ولم يهم
وكم تغيب نجم وهو لم ينم !
وكيف تحيا موث الأرض بالديم
دفع الحياة ، ويسرى البدر فى القسم^(٣) ؟
فراحت شهب الأفلاك من شم
سدى ؟ وماذا وراء الموت من حكم ؟

محمد عرك الدنيا بما حَفَلت
جاء الحياة يتيماً قبل مولده
فعاش مع جده حياً ، وفى كف
وحين شب رعى للقوم شاتهم
وسار بالخير والأموال متجراً
وهو المصدق فى قول ، وفى عمل
وصار يَغْجِب من قوم ؛ فدينهم
أينحت الناس من أحجارهم صنماً

وكيف يحكم صلد لا جَنان له
وكيف يخلق هذا المسخ مقتدراً
فما تعبد فى يوم إلى وثن
بل راح للغار يصفنو فى تأمله
تأمل الفجر يبدو ، والحياة معاً
وتشرق الشمس للأحياء جالبة
وهذه الشم من أرسى دعائمها
من خالق الروح والإنسان ؟ هل خلقا

(١) اللطم : من يموت أبواه وهو صغير .

(٢) القدم - بضمين - جمع القدم : آلة للنجر والنحت .

(٣) القسم - بالتحريك - : القطعة من السحاب فى السماء .

ومن هذه التساؤلات التي تمثل ما كان يدور بخاطر المصطفى ﷺ في خلوته .. كانت الإجابة التي حملها إليه رسول الوحي من ربه في جنح الليل فزلزلت بها العروش ، حيث طلع فجر الحياة ، فبدد ظلمات الجهل والظلم والضلال ، وقد دار في هذا اللقاء حوار بينه وبين جبريل عليه السلام ، إذ قال له : اقرأ ، فقال له : كيف اقرأ وأنا لم أعلم من قبل ، فضمه جبريل حتى غطه ، ثم أعاد عليه طلبه ، فأعاد محمد جوابه ، حتى كان ذلك تمهيداً لأول تنزيل من الكلام ، فانسال الهدى من تلك اللحظة يسرى في كل ناحية ، كالنور ينتشر فيبدد ظلام الليل ، أو كالدواء يسرى في الجسم فيزيل السقام .. هذا الهدى الذي رد الإنسان إلى إخلاص العبادة لله رب الخلق ، وفاطر الكون من العدم ، الواحد الذي لا شريك له في الملك والتدبير ... بهذا - في إجماله وتفصيله - تردد الوحي بالآيات المنزلة ، حتى تكاملت ، فكانت هذا الكتاب الكريم المحكم ... أبرز الشاعر هذه اللحظة في قوله :

جاء الجواب مجنح الليل فاختلفت	له العروش ، وكان الفجر للأهم
جبريل في الغار قال : اقرأ مدوية	فقال : كيف ، وما غلّمت بالقلم ؟
فغطه ، ثم قال : اقرأ ، فرددها	فكان أول تنزيل من الكلام
وأصبح الهدى يسرى كل ناحية	كالنور في الليل ، أو كالبرق في السقم :
أن اعبدوا الله رب الخلق كلهم	وفاطر الكون ، والدنيا من العدم
الواحد الفرد عال لا شريك له	في الخلق ، والملك ، والتدبير ، والقدم
تردد الوحي بالآيات منزلة	فسطرت كنظيم الدر والثوم ^(١)

من مظاهر الإعجاز القرآني :

ومن هنا ... انطلق الشاعر مع القرآن الكريم ، مستعرضاً بعض مظاهر إعجازه ؛ فقد جاء الكتاب الكريم عجيباً في بلاغته ، وفيما تضمنه من نظم وتشريعات ، فلم يستطع أحد محاكاته ، ووقف الإنس والجن أمامه عاجزين ، فكلما تقدمت بالإنسان الحياة ، وكشف شيئاً من أسرارها ، عاد بالنظر إلى القرآن الكريم فوجده قد سبقه إلى ذلك ؛ إذ فيه ما يلائم الأفهام في كل بيئة ، وما يلبي حاجة الإنسان في كل زمان ومكان ، ففيه الهداية للدنيا والآخرة ، بما يتضمن من سبل الإيمان والتقوى ؛ تحذيراً للنفوس بتصوير سعي جهنم ، وإغراء بفعل الخير بتصوير الجنة وما تضم من أسباب الراحة والسعادة ، وتوجيها إلى التمييز بين الخير والشر بما يقدمه من مواعظ وقصص ، تحرك العقول للتأمل والنظر ! . وذلك قوله :

جاء الكتاب عجيباً في بلاغته	وما حواه من التقنين والنظم
فما استطاع محاكاة له أحد	فالإنس والجن عان إثر منفعهم ^(٢)

(١) الترم - بضم ففتح - جمع التومة : اللؤلؤة .

(٢) العاني : الذليل ، المنحزم : العاجز أمام الحجة .

في كل يوم يريك العلم آيته
فيه الهداية للدينا وآخره
ذكر السعير ثهاب النفس صورته
به الروائع من وعظ ومن قصص
فاليوم يكشف ما قد غاب عن فهم
فيه الطريق إلى الإيمان والعصم
أما الجنان فمشوى كل ملتزم
فيه التأمل في سبع وخلقههم

بيد إن الشاعر يعود سريعاً إلى الحديث عن محمد ﷺ ، وقيامه - في إصرار - على دعوة قريش للهدى ، على الرغم من عنادهم ، ومقابلتهم إياه بفاحش القول ، وإصمام الآذان ؛ فقد عميت قلوبهم فأصبح صعباً شفاؤها مما ران عليها ، ولم يستجب لدعوته إلا قلة ، بينما جنح أكثرهم إلى معاداته والتفنن في إيذائه وإيذاء من استجاب له وتابعه ، فكان قوله :

وصار يدعو قريشاً للهدى فأبوا
غشاوة العين قد تُشفى ، وإنَّ عمى
فقلة آمنت ، والجل قد جنحوا
وقابلوه بهجر القول والصمم^(١)
يغشى القلوب لداءً غير منحم
إلى العداء ، وإيذاء ، ومصطدم^(٢)

حادثة الإسراء والمعراج ،

وبهذه الإشارة مهد السبيل للحديث عن حادثة الإسراء والمعراج التي كانت من أبرز معجزاته ﷺ ، حيث شاء الله تعالى أن يسرى عنه مصابه في قومه بعد أن مات عمه أبو طالب ، وزوجه خديجة ، فأسرى به ليلاً بقدره الله التي مكنته من قطع الصحراء والوصول إلى بيت المقدس في سرعة خاطفة لا تدانيها سرعة الأنيق القوية ، فاجتمع حولك الرسل والأنبياء لتصلي بهم إماماً وهم من خلفك ، ومن هناك ارتفعت لعرش ربك مجتازاً السماوات ، حتى بلغت مكاناً لا يقرب منه مخلوق سواك ، فتجلى لك الرحمن ، وتلقيت من فيض نوره شريعة الإسلام ... وفي ذلك قال :

سريت في الليل تطوى اليد مرتجلا
حتى نزلت بيت القدس فاجتمعت
ثم ارتفعت لعرش لا يقاربه
وقد تجلى لك الرحمن ، وانبلجت
بقدره الله ، لا بالأنيق الرُسم^(٣)
من حولك الرسل ، من خاش ومؤتميم^(٤)
إلا محمد ، دون الخلق كلهم
من نوره سنن الإسلام والذم^(٥)

النهوض بالدعوة رغم العناد ،

ويواصل الشاعر مسيرته مع محمد ﷺ في مواجهات قومه إصراره على أن يصدع بأمر

(١) الحجر - بضم فسكون - الهديان والقيح من القول .

(٢) الجبل - بضم الجيم - من كل شيء : معظمه .

(٣) الأنيق - جمع الناقة - : الأنثى من الإبل . الرسم - بضمين - جمع الرسوم - بفتح الراء - : الناقعة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطئ .

(٤) الخاشي : الخائف بتعظيم ومهابة .

(٥) انبلج الصبح : أسفر فأنار .

ربه ، ويدعوهم إلى دين الله ، متتبعاً - في ذلك - الأحداث البارزة التي وقعت قبل حادثة الإسراء والمعراج ، وبعدها ، منطلقاً في ذلك من حديثه عما كان منه ﷺ بعد عودته من رحلته تلك ، مستحضراً شخصه ﷺ ليتوجه إليه بالخطاب قائلاً له : لقد عدت من رحلتك تلك تدعوقومك للإسلام ، فزادوا من عداوتهم ، وجمعوا عليك وعلى من معك صنوف العدوان والتعذيب ، من ضرب ، ورجم ، وتجويع ، وسب ، وإبعاد من آمنوا بالتشريد وسفك الدم ، حتى اضطروهم إلى المهاجرة والخروج من موطنهم طالين يثرب ليأووا إليها ، ويعتصموا بها ؛ فقد ماتت خديجة وارتحل الأعمام ، وأصبحت مكة من بعد فقدهم موحشة ، ولم يعد فيها لرسول الله أحد يحتوى فيه أو يحيره من هؤلاء العتاة الغلاظ ، مما شجع هؤلاء على إعادة النظر في أمر محمد ، والإقدام على التفكير في قتله ، حيث دبروا طريقة يضييع بها دمه بين القبائل ، فلا تخص واحدة بتحمل تلك الجريمة ، فانتخبوا من كل قبيلة شاباً يقوم بحصار محمد في منزله ، حتى يضربوه جميعاً بضربة واحدة ، ولكن النوم كان أحد جنود الله ، فغلبهم جميعاً وهم وقوف ، حتى تمكن ﷺ من الخروج مغادراً منزله ، دون أن يروه أو يشعروا به ... وذلك قوله :

وعدت تدعو ، فزادوا من عداوتهم	وعدت تدعو ، فزادوا من عداوتهم
وصد من آمنوا بالله ، واعتصموا	وصد من آمنوا بالله ، واعتصموا
فهاجر القوم ترى ، من ديارهم	فهاجر القوم ترى ، من ديارهم
ماتت خديجة ، والأعمام ، وارتحلوا	ماتت خديجة ، والأعمام ، وارتحلوا
ولم يعد لرسول الله من أحد	ولم يعد لرسول الله من أحد
فدبروا قتله ليلاً بزمرتهم	فدبروا قتله ليلاً بزمرتهم
حل السبات بهم جمعاً ، فلم يره	حل السبات بهم جمعاً ، فلم يره

الهجرة إلى يثرب :

ولم يكتف الشاعر بالاشارة إلى هجرته ﷺ ، ولكنه ذكر - بتفصيل نسبي - أحداث هجرته ، حيث حل ﷺ في الغار ، مع الصديق مختبئين ، بينما المشركون يلاحقونه بخيولهم وسيوفهم ، ولكن العنكبوت نسج في مدخل الغار نخيلاً متفرقة منتشرة ، وأقام الحمام في حركته الدائبة ، فعميت قريش عند مدخل الغار ، ولم يتصوروا أن أحداً دخل الغار وهو على حالته تلك ، فأيقنوا خلوه ، وعادوا أدراجهم ، ليجددوا البحث عن محمد وصاحبه في كل فج وواد ، بينما أخذ الرسول طريقه مع الصديق مرتحلاً نحو المدينة ، على الرغم من شدة الحر ، حتى إذا وصل يثرب أناخ رحله في قباء بعد ما لاقى من مشاق ، وقد استقبله يثريون فرحين مهللين .. حيث يقول :

في الغار حل مع الصديق مختبئاً ولاحقوه ببيض الهند والدهم

في مدخل الغار خايط العنكبوت شعاً
أعمى إليه قريشاً عند مدخله .
وأوبوا ليعيدوا عنه بجثهم
سار الرسول مع الصديق مرتحلاً
وفي قباء أناخ الرحل بعد ضنى
وحطت الورق في وكر ولم نجم^(١)
وأيقنوا أنه خاو من النسم
في كل فج ، وفي الوديان والقمم
نحو المدينة والأجواء في ضرم
وقوبل الركب بالتهليل والنغم

ويواصل الشاعر مسيرته مع المصطفى ﷺ ، مسجلاً أبرز ما صنعه عقب وصوله يثرب ،
فذكر أنه ﷺ بدأ أعماله في يثرب بتأسيس المسجد ، ليكون أول بناء يقام ، ومن هذا المسجد
واصل دعوته ، فاستجاب لدعوته كثير من القبائل ، واندفع الناس لطاعة الله متراحمين في حشود
مجتمعه ، وذلك قوله :

وخط فيها رسول الله مسجدها
وفي المدينة أرسى أصل مسجده
هوت قلوب إلى الإسلام واندفعت
فكان أول ما ينسى لمؤتم
وصار يدعو لرب الكون والأئم
لطاعة الله في حشد ومزدهم

في مواجهة التآمر والتخالف :

ولكن المشركين لم يشاؤوا أن يتركوا محمداً وشأنه بعد مهاجرته من مكة ، فقد حاولوا أن
يبدوا شهرهم إليه في المدينة ، بتدبير المؤامرات ، وعقد الأحلاف ، فجاء إذن الله تعالى بالقتال
دفعاً للظلم ، عندئذ دعا الرسول إلى مناوشة قريش في طريق سفرهم بالتجارة إلى الشام ؛ حتى
يستشعروا الخوف ، ويرتدعوا عن متابعة المسلمين في المدينة بالكيد ، ولكنهم فروا بالتجارة ،
وسلكوا طريقاً آخر ، بينما تسربت الأنباء إلى المشركين في مكة ، فخرجوا في جيش قوى
لاستنقاذ قافلهم التجارية ، وقبل أن يصلوا المدينة جاءتهم الأنباء بفرار القافلة ، فقال بعض
حكمائهم : علينا أن نعود إذن ، مادامت الأموال قد سلمت ، ولكن أبا جهل وزمرته رفضوا
الانصياع لهذا القول ، وأصروا على مواصلة السير لمهاجمة المسلمين في المدينة ، وخدعهم كثرتهم
النسبية ، وعدتهم ، فساروا عازمين على الخلاص من محمد وصحبه ، حتى التقى الجمعان عند
ماء بدر ، فكان المسلمون بالنسبة للمشركين قلة ، بيد إن نصر الله إياهم ، وقوة إيمانهم
وعلو همهم جعلهم يبدون أكثر من المشركين ، فقد أرسل الله ألفاً من الملائكة يقاتلون معهم ،
فأنزلوا بالمشركين هزيمة منكرة ، جللتهم بالعار والخزى ، حتى سارت بذكر هزيمتهم الركبان ،
وتناقل الرواة أخبار تلك الهزيمة في سخرية ... ولكنهم لم يفيدوا من ذلك ما يجعلهم يعيدون النظر
في موقفهم من الإسلام والمسلمين ، ويتخففون مما تنطوى عليه نفوسهم من شرور ، وصنعوا

(١) الشما - بضم الشين - : حصل الشعر المتفرقة ، الورق - جمع الأوراق - : الحمامة ، الزكر - بفتح فسكون - : عش
الطائر ، وجم - بالتحريك - : سكت على غيظ .

صنيع الأفاعي ، حين تنطوى على نفسها انتظاراً لفرصة موأية ينفثون فيها سموهم من جديد ..
وقد صور الشاعر ذلك الموقف فى قوله :

وحين آن أذى قوم بما كففروا
هـبوا لحرب قرىش فى تجارتها
فى يوم بدر أهاب الكفر ، فاجتمعوا
وقال عاقلهم : لا حرب ، فاتعدوا
فلم يعرفه أبو جهل وزمرته
ألفا بفرسانهم ، وأخيل مسرجة
والمسلمون ببدر قلعة ، كثرت
وأرسل الله ألفا من ملائكة
فحاق بالكفر كل الخزي ، إذ دحروا
وصارت العرب تروى عن هزيمتهم
فهل تأمل أهل الشرك واتعظوا
إن الأفاعي قد تندس قاتلة

دعا الرسول إلى بدر لمتقم^(١)
فأفلتت عيرهم من غير ملتحم^(٢)
من كل شاك بخطئى ، وكل كمي^(٣)
إن اللطيمة قد مرت ولم تضم^(٤)
أذنا ، وشدوا إلى بدر بجمعهم
والقـلب فى ضرم بالشر متسم
بنصرة الله ، والإيمان ، والهمم
يقاتلون خفاء ، والوطيس حم^(٥)
وفرقوا ، بين مقتول ومنهم
وصار أمرهم هزءا بكل فم
وهل تخلت نفوس الشر عن سدم^(٦)؟
طئ الجحور ، إذا لم تؤذ بالثرم^(٧)

وأسلمه الحديث عن موقعة بدر إلى الحديث عن معركة أحد؛ فأشار إلى دوافعها ، وما انتهت إليه ، مبينا أن مشركى مكة جمعوا شملهم وعادوا بعد عام ، إلى يثرب ، قاصدين أن يقوضوا دعوة الله بما تنشره من قيم وأخلاق سوية ، فهب المسلمون فى المدينة ليدفعوهم ، حيث التقى الجمعان عند جبل أحد ، وقد أحل الرماة من المسلمين بطل منيع لينعوا المسلمين من هجوم خالد وفرسانه ، وقد أمرهم محمد ﷺ بأن يلزموا أماكنهم على التل ، ولا يبرحوها ، حتى لو رأيتهم مصابا ، وكان عليهم أن ينفذوا أوامره ﷺ لأنها مثل أوامر الله واجبة التنفيذ ، ولذلك .. فإنهم حين عصوا أمر رسول الله كان درسا بالغ الألم ، نتج عنه استشهاد سبعين رجلا من المسلمين ، حتى الرسول ﷺ لم يسلم من الإصابة ؛ فبعد أن كانت الحرب لصالح المسلمين ، وفر المشركون تحت وطأة السيوف الإسلامية ، حتى تناثرت فوق الأرض أشلاؤهم .. ترك هؤلاء الرماة أماكنهم فرحين ، ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، كرَّ خالد بفرسانه من جديد على المسلمين من

(١) المتقم - بفتح القاف - : الانتقام .

(٢) العير - بكسر العين - : ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير .

(٣) أهاب به : دعاه للعمل أو لتركه . الشاكى : تام السلاح كامل الاستعداد ، الخطئى : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح . الكمي : لابس السلاح .

(٤) أتاد فلان : تأنى وتجهل ، اللطيمة : العير التى تحمل التجارة .

(٥) حى الوطيس : اشتدت الحرب .

(٦) السدم - بالتحريك - : الهياج .

(٧) الثرم - بالتحريك - : تكسير الأسنان .

خلف ظهورهم، وتمكن المشركون من إعادة جمع صفوفهم، واشتعلت المعركة من جديد، فقتل حمزة، واضطرب جيش المسلمين، فلما تحصنوا بسفوح الجبل، استطاعوا أن يصمدوا أمام العدو، حتى أصاب المشركين اليأس من تحقيق النصر عليهم، وأصابهم الإرهاق والكلال، فأدبروا، ونجا المسلمون من هزيمة محققة، حيث عادت قريش والغيط يكاد يقتلها، لأنهم لم ينالوا من الإسلام ما قصدوا إليه.. وذلك قوله:

فبعد حول أعادوا جمع شملهم
وكل همهم تقويض دعوة مَنْ
وفي المدينة هب المسلمون إلى
ساروا إلى أحد.. أما الرماة فقد
درءا لخالد والفرسان إن هجموا
محمد قال: لا تخلوا أماكنكم
وطاعة الرسل- مثل الله- واجبة
سبعون من أهلهم في الدين قد قتلوا
لما رحي الحرب قد دارت لصالحهم
وقد تناثر فوق الأرض زادهم
فكر خالد بالفرسان، فاجأهم
ومات حمزة في أوج الوغى، ومضى
ما شاء ربك للإسلام منتكسا
تحصنوا بسفوح الطود فامتنعوا
وحل يأس وإرهاق بمن كفروا
آبت قريش بغيط كاد يقتلها

يغون يشرب، والأرواح في خدم^(١)
يدعوا إلى الله، والأخلاق، والقيم
صد البلية بالخطي والخدم^(٢)
حلوا بتل منيع غير مقتحم
والسهم يدرأ بأس الفارس القرم^(٣)
وابقوا على التل، حتى لو أريق دمي
لما عصوا كان درساً بالغ الأثم
حتى الرسول، فلم يسلم من التلم^(٤)
وأدبر الشرك تحت الصارم الغلم^(٥)
فاتوا أماكنهم مَنغاة مقتسم
والمشركون أعادوا جمع صفهم
من ضربة الغدر، لا من لهدم البهم^(٦)
فالمسلمون غدوا كالأسد في الأجم
على العدو، وأردوا كل مقتحم
فأدبروا ونجا الإسلام من قحم^(٧)
فما بنوه لهدم الدين لم يقم

وينتقل الشاعر من تصوير ما حدث في معركة أحد، إلى الحديث عن غزوة الأحزاب، فيذكر أن مشركي قريش لم يتركوا محمداً وشأنه بعد ما كان، ولكنهم راحوا يستنفرون القبائل في

(١) الخدم - بالتحريك - : الاتقاد والالتهاب .

(٢) الخطي : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين ، تسب إليه الرماح الخطية لأنها تباع هناك ، الخدم - بالتحريك - : الإسراع ، والسماحة وطيب النفس .

(٣) القرم - بفتح فكسر - : من اشتدت شهوته إلى اللحم ، والقرم - بفتح فسكون - : السيد العظيم .

(٤) التلم - بالتحريك - : كسر السن .

(٥) الغلم - بفتح فكسر - : من اشتدت شهوته للجماع ، ووصف السيف به على طريق المجاز لإظهار اشتداد رغبته في القتل .

(٦) اللهدم - بفتح فسكون - : كل شيء قاطع ، البهم - بضم ففتح - جمع البهمة : الشجاع يستبهم أمره على قرنه فلا يعرف وجه غلبته .

(٧) القحم - بضم ففتح - جمع القحمة : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

شتى أرجاء الجزيرة ، حتى كونوا جيشاً ضخماً يضم أكثر قبائل العرب ، وزحفوا جميعاً إلى يثرب منتهزين ما كانت فيه يثرب من برد قارس ، وقلة في الغذاء ، ليضربوا المسلمين ضربة قاصمة ، ولكن الخندق الذي أقيم حول المدينة صدهم عن مقصدهم ، وحال بينهم وبين ما أرادوا ، حيث اضطروا إلى الارتداد من حيث أتوا بعد حصار دام شهراً ، وكانت إقامة الخندق بمشورة سلمان الفارسي ، الذي رسم الخطة لإقامته ، فنهض المسلمون مع النبي لحفره ، على الرغم مما كانوا يعانونه من الجوع ونقص المؤن .. وذلك قوله :

واستنفروا العرب أديانهم وقاصيهم فاستنفر الجبل في مد ، وفي دعم
جاءوا ويثرب في قُـرْ ، وفي سَعْب في كثرة لو دنت أدت لختهم^(١)
فصدهم خندق عن نيل بغيتهم فأؤبوا بعد شهر ، دون مغتـم
سلمان خط ، فهب المسلمون مع السنبلي للحفر ، رغم الجوع والحَزْم^(٢)

ثم أخذ في سرد الأحداث التي لا بست صلح الحديبية ، فذكر أن الرسول ﷺ ، حين نهض مع المسلمين لأداء العمرة اعترضت قريش سبيلهم ، ولما أوضح محمد ﷺ أنه ما قصد إلا زيارة الكعبة المشرفة ، أسقط في أيدي قريش لما سترتب على منعهم المسلمين من آثار تهيج نائرة العرب جميعاً ، فاضطروا إلى عقد صلح مع محمد ﷺ ، رأى بعض الصحابة في بعض شروطه ما ينتقص من كرامتهم ، فضجوا يعارضون إبرامه ، ولكن محمداً ﷺ - بما جلالة الله تعالى لبصيرته - أصر على إنفاذ ذلك الصلح بتلك الشروط التي تبين فيما بعد أنها كانت فاتحة الخير ، وأنها مهدت الطريق لفتح مكة . وبناء على شروط الصلح عاد المسلمون أدراجهم ، على أن يأتوا العام القابل ليؤدوا عمرتهم ، بعد أن تخلى مكة من أهلها .. فقال :

قام الرسول مع الأتباع معتمراً فأوقفهم قريش دون قصدهم
وتم إبرام صلح في حديبية فضج صحب ، وما أخفوا من البرم
إلا الرسول جلا المولى بصيرته فكان يصرف فتح البيت من أمم
وبعد حول أتموا فرض عمرتهم وقد خلت مكة من كل ذي نسم

ومن الحديث عن صلح الحديبية وعمرة القضاء ، انتقل إلى الحديث عن غزوة خيبر ، فذكر أن محمداً ﷺ ، سعى لمواجهة اليهود في خيبر ، لما تكشف له ما بيته أهلها من نقض ما أبرموا من عهود مع المسلمين ، واستعداد للقيام بغزو شامل ليثرب ، ولما وصل خيبر لم تصمد حصونها تحت وطأة المسلمين ، على الرغم من استعدادهم وتأهبهم هناك ، فقد رمى الله حصن خيبر بالمسلمين ، فانهارت معاقلهم ، وشردوا في شتى البقاع ، فنالوا جزاء غدرهم الذي طبع عليه أهل الكفر منذ وجدوا ، والغدر أسوأ ما يصيب نفوس البشر .. وذلك قوله :

(١) القر - بضم القاف وفتحها - : البرد ، والسغب - بالتحريك - : الجوع مع تعب .

(٢) الحزم - بالتحريك - : غصة الصدر .

سعى لخير لما أن تكشف ما
قد جاء خير، لا حصن لعصمه
رمى به الله، فانهارت معاقلهم
الغدر شيمة أهل الكفر، مذ وجدوا
وكما كان الغدر هو الدافع لغزو خير، كان الغدر كذلك هو الدافع لفتح مكة، فقد تجاوز
مشركو قريش عهودهم مع رسول الله ﷺ، واعتدوا على حلفائه من أهل خزاعة فكان ذلك
نذيراً بنقض عهودهم، فلم يكن أمام محمد ﷺ إلا أن يهب بجيش عظيم يؤدب به أهل مكة،
ويردهم عن عدوانهم على حلفائه، فكان أن فتح الله مكة فتحا مبينا، بعد أن أضعف الله
سلاحهم، وشعروا بعدم قدرتهم على المقاومة، كما يشعر ظلام الليل بعدم قدرته على مقاومة نور
الفجر، ولكنه ﷺ لم يستغل ضعف أهل مكة عن مقاومته استغلالاً سيئاً، فهو لم يأت قاصداً
التنكيل بهم، بل دفعه عن ذلك رجاء أن يهتدوا؛ فإذا تحقق مقصده فليس إلا الغفران والرحمة، حتى لقد
شمل عفوه ﷺ وحشياً قاتل حمزة بن عبدالمطلب، كما شمل هندا التي أوعزت إلى وحشى بقتل
حمزة، والتي لاكت كبده بأسنانها، بل لقد كرم أبا سفيان غريمه، وجعل منزله كالحرم في
الأمان.. عندئذ انطلق المسلمون يحطمون ما كان حول البيت من أوثان، فخلصوا البيت لله
وحده، وعلا بلال الكعبة مؤذناً، ثم أم المصلين رسول الله، رسول الخير والرحمة، وأسلم أهل
مكة جميعهم، مؤكدين مبادئ الأخوة الإسلامية وروابطها.. وفي ذلك قال الشاعر:

أرذوا خزاعة غدرا، رغم حلفهم
هب الرسول بجيش جحفل لجب
قل السلاح، وما استطاعوا مقاومة
ما جاء مكة تنكيلا بمن كفروا
مغتال حمزة غدرا، نال مفقرة
حتى الغريم أبو سفيان كرمه
وهشموا كل ما في البيت من وثن
بلال أذن بالبيت العتيق، وقد
وأسلمت مكة، والمسلمون غدوا

مع النبي، فخانوا نص عهدهم
لفتح مكة فتحا غير منصرم^(٣)
من ذا يقاوم زحف الفجر في الظلم
بل جاء للهدى والغفران والحرم
وهند آكلة الأكباد لم تسم
وصار منزله في الأمن كالحرم
فالبيت لله، لا للمسح والقدم^(٤)
أم الصلاة رسول الخير والرحم
في الدين إخوة أهل الدين واللحم^(٥)

(١) الحرم - بفتح فكسر - : السيل الذي لا يطاق .

(٢) العصم - بضم فسكون - جمع أعصم عصماء : الحيوان في ذراعيه أو إحداهما يياض، وسائر أو آخر . الأطم -

بضمعين - : الحصن ، أو البيت الكبير .

(٣) الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل . اللجب - بفتح فكسر - المضطرب ، ذو الصوت المرتفع .

(٤) القدم - بالتحريك - جمع القدم بفتح فسكون : الغليظ السمين الأحمق الجاق .

(٥) اللحم - بضم ففتح - جمع اللحمة : القرابة .

وما أن فتح الله مكة للإسلام، حتى توالى وفود القبائل على رسول الله ﷺ، معلنين
إذعانهم، ودخولهم الإسلام، فيحداً عدا هوازن التي أبى الإذعان، وأصرت على معاداة المسلمين،
فكان لقاء حنين فيصلاً، حيث دحروا رغم ما أعدوه من كائن.. وقد صور الشاعر ذلك في
قوله:

أتت حشود إلى الإسلام ماثلةً إلا هوازن، لم تمثّل، ولم تُـرْم
فكان يوم حنين بالقنا دُحروا رغم الكمائن من أمواج ملتطم

ثم انتقل الشاعر ليحدثنا عن حجة الوداع، حيث نهض هو وأتباعه للحج، وفي مكة كان
الوداع الخالي من الدموع والآلام؛ فلم يعد هناك مكان للدموع والآلام، بعد أن تمكن الإسلام
من نفوس العرب جميعاً - خصوصاً في مكة وفي يثرب - ليشمل أرض الجزيرة كلها.. وذلك
قوله:

حج الرسول مع الأتباع حجتهم كانت وداعاً، بلا دمع، ولا ألم
وكيف تدمع عين بعد أن بصرت بالهدى يطفى مكان الكفر والعُدْم
وحل يثرب، والإسلام مزدهر فوق الجزيرة، والإيمان في عمم

ولم يكن بد من مواجهة مع الروم الذين أصابهم الملح لانتشار الإسلام هذا الانتشار،
ففرضوا بسلوكهم على المسلمين الدخول في حرب كانت بدايتها، غزوة تبوك، بيد أن سنة الله لم
تكن لتتخلف مع محمد ﷺ، فهو بشر، خاضع لما يخضع له كل البشر من السنن الكونية؛ كما
خضع له من قبل سائر الرسل، فلما حان الحين، لاقى ربه بعد أن أدى رسالته، وقام صرح
الإسلام شامخاً ثابتاً.. ذكر ذلك في قوله:

وفي تبوك جرى الرومان في هلع قبل اللقاء، وصار البهم كالبهم^(١)
كل إلى الله ماض في مسيرته والموت غاية من يسعى على قدم
وما محمد باقٍ، إنه بشر من قبله الرسل، قد عادوا لربهم
لاقى الإله، وقد أدى رسالته وقام للدين صرح غير منهدم

ومن هنا.. يجد الشاعر أن الفرصة أصبحت مواتية له ولغيره ممن يتلقى هذه المدحة - ممن
يتاح لهم أن يزوروا الأرض المقدسة - كي يخلص نفسه من الحياة الدنيا وأوزارها، ويصنع
ما يتقرب به إلى الله، مقتدياً برسوله محمد ﷺ؛ مستشرفاً أن يتحقق ذلك الأمل له، بأن يسم
صوب الكعبة المشرفة التي أصبحت مقصد الناس جميعاً؛ لأن إبراهيم عليه السلام أباً إسماعيل هو

(١) البهم - بفتح فسكون - جمع البهية: الصغير من الضأن، والبهم - بضم ففتح - جمع البهية: الشجاع يستهم على قرنه
وجه غلبته.

الذى شيدها ، واستجاب الله دعاءه ففجر فيها مصادر الخير من كل لون ؛ فإذا أنعم الله عليك بذلك ، كان عليك أن تطوف بها سبعا مبتهلا لله ، مهللا كلما شارفت الركن خاشعا لله ، مقبلا الحجر ، كما قبله رسول الله ﷺ ، فإن لثمة من نعم الله على عبده .

أما في المدينة المنورة ، فعليك أن تزور قبر رسول الله ﷺ ، وأترك دمعك الساجم في هذه المواقف الجليلة ، فإن البكاء في تلك المواقف من نعم الله على عبده ؛ واذكر أنك أمام قبر من هداك نهجا سديدا ، ووصلك بطريق الحق ، ودعاك إلى التزامه ، واتجه إلى الله راجيا رضوانه ومغفرته ، مهما جلت ذنوبك وعظمت ، فإن أخطر الذنوب عند الله الرحيم الرحمن لا تشد على العفو والغفران .

ويحتم المدحة بدعاء خاص يرجو فيه ربه أن يعفو عنه ، ويعفو له خطايا البشرية الكثيرة ؛ فإنها مهما كثرت وعظمت لن تعظم ولن تكثر على واسع كرم الله الغفور الرحيم .. ذكر ذلك في قوله :

إن جئت مكة يمم نحو كعبتها	وكعبة الناس من عرب ومن عجم
يكفيك أن أبا إسماعيل شيدها	وفجر الله فيها ورد كل ظمى
وطف بساحتها لله مبتهلا	سبعا ، وهلل لذاك الركن ، وألثمت ^(١)
واخشع ، فإن رسول الله قبله	فإن لثمت فدا من وارف النعم
وفي المدينة زر قبر الرسول ولا	تمسك الدمع من هام ومنسجم ^(٢)
هداك من في الثرى نهجا وموعظة	وقال : هذا طريق الحق فاستقم
واطلب من الله رضوانا ومغفرة	إن الخطايا لدى الرحمن كاللحم
سألتك العفو ربي ، إننى بشر	جم الذنوب ، وأنت الواسع الكرم

فالشاعر (الدكتور حسن إبراهيم) في مدحه محمدا ﷺ ، صحب بمدوحه - من خلال ما قدمه كتاب السيرة النبوية - وهو واع بكل ما يلفظ من قول ؛ بحيث ينتقى من سيرته ﷺ ، ما استحوز على تفكيره ، تجاوبا مع أحداث عصره ، وتفسيرا لبعض ماثموره أمته ؛ وردا على بعض مايثيره المبشرون والمستشرقون حول الرسالة والرسول ... بيد أنه في رحلته تلك لم يصرح بشيء من ذلك ، وقصر رحلته على عرض بعض لوحات مصورة لمدوحه ، تبين مكانته منذ كان جنينا في بطن أمه ، إلى أن لحق بربه ، مركزا على أطراف من مواجهة المشركين لدعوته ، وإصرارهم على مناوئته ، في مقابل إصراره ﷺ على هدايتهم ، ليظهر الملقى على نجاحه في تحقيق ما أصر عليه ، وتحمل في سبيله المشقات ، وكأني بالشاعر يهتف بما قدمه في أمته : أن لا يأس مع الإيمان ، وأن مصابنا اليوم - مع الإصرار على اجتيازه - لن يصمد طويلا .

(١) التمت المرأة : شدت اللام ، والشاعر يريد هنا : اللثم بمعنى الثقيل .

(٢) الدمع الهامى : السائل ، والمنسجم : المنصب .

خاتمة :

وبعد .. فتلكم ست قصائد طوال - وإن كانت متباينة الطول - لسته من شعراء العربية المعاصرين ، التزموا فيها قالب البوصيرى فى قصيدته .

ومع وحدة الموضوع ، ووحدة القالب الفنى .. رأينا أن لكل شاعر وجهة فى مساره التفصيلى !.

ومع وحدة المقصد عند الشعراء السبعة ، رأينا أن صورة محمد ﷺ ، اختلفت من شاعر إلى شاعر ، بحيث يمكن للدارس أن يرى فيما قدمه كل واحد منهم لوحة تقدم قطاعا بعينه من قطاعات الصورة ؛ فإذا ضمت هذه إلى تلك ، وجدنا أنفسنا أمام لوحة تعرض بعض ملامح شخصيته ﷺ ، المادى منها ، والنفسى ، والفكرى ، والخلقى ، والسلوكى ، واليقينى .. إلى غير ذلك من مقومات الكيان الإنسانى فيه !.

ومن هنا .. يتقرر أن شخصيته ﷺ هى إحدى معجزاته التى جعلها الله جل شأنه دليلا يؤكد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ بدليل أنه لابس كيان من حاولوا معايشته بعد موته بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، كما لابس كيان من عايشه ممن عاصروه وصاحبوه ، منذ نهض بأمر ربه داعيا إلى صراطه المستقيم ، بينما لم يبق ممن سبقه من رسل الله وأنبيائه إلا معالم محدودة ، لا يستطيع أحد أن يقف منها على صورته .. ولا أن يتعرف من خلالها على شخصه !

ولسوف يظل الميدان واسعا فسيحا ممتدا أمام كل من يريد أن يسير على الدرب .. ويلتزم القالب البوصيرى نفسه ؛ لأنه سوف يجد لديه ما يصبه فى هذا القالب ... ناهيك بمن يمدحه ﷺ مستقلا فى قالبه الفنى .. فهذا أمر آخر لا يتسع له ميدان القول هنا .

ويتأكد هذا الذى أذهب إليه إذا حاولنا تتبع الشعراء منذ قدم البوصيرى برده ، وأفسحنا لنظرنا كى يتأمل من احتذوه بالمعارضة ، والتشطير ، والتخميس .. وغير ذلك من ميادين القول الفسيحة .. فإننا سوف نجد أنفسنا أمام ثروة ضخمة من اللوحات المصورة كلها تقدم صورة سيدنا ومولانا محمد ﷺ .. وعندها لائتمك إلا أن نحمد الله تعالى أن جعلنا من أمته ، وأن نظل نردد - بكل ذرة من كياننا - صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك وسلم ياسيدنا يارسول الله !

والشاعر - بذلك المنهج - متأثر بالبارودي تأثراً كبيراً، في التزامه المسار التاريخي، ولكنه وقع دونه؛ إذ لم يكن في التزامه دقيقاً، فلم يقدم إلا بعض الأحداث التاريخية، ومع ذلك.. نراه في كل حدث، لا يلتزم الدقة في الترتيب الزمني، كما رأينا في حديثه عن موت عمه وزوجه، الذي ذكره بعد الإسراء والمعراج، وكما رأينا في الأحداث التي لا بست هجرته ﷺ، وهجرة المسلمين، فقد ذكر هجرة المسلمين إلى المدينة، دون أن يشير إلى ما كان قبل ذلك من هجرتهم إلى الحبشة.!

ويبحث المتلقي عن البصمة الوجدانية في القصيدة من مبتدئها إلى منتهاها، فلا يكاد يعثر على شيء من مظاهرها، وإن هو صادف شيئاً من ذلك، وجد آثار الفكر والعقل غالبة عليه، تكاد تخفيه حتى في ختام القصيدة مع توجهه للابتهاال إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.. نجد الشاعر واقفاً كامل الوعي يوجه توجيهاته ونصائحه للمتلقى بما يجب أن يكون عليه حين تتاح له فرصة الذهاب إلى مكة، وما يصنعه حين يذهب إلى المدينة، بل وما يطلبه من الله جل شأنه حين يتوجه إليه بالابتهاال.!

ويبدو أن الشاعر في مدحته تأثر بحياته العلمية، فكان في مساره العالم المفكر!



فهرس الكتاب

الصفحة

٥ مقدمة
٩	أولاً : البوصيرى فى بردته :
١٤ النفس البشرية مأنى الشيطان
١٥ مع الشمائل النبوية
١٨ مولده وما لابس من أحداث
١٩ من المعجزات التى واكبت مولده ﷺ
٢١ المعجزة القرآنية
٢٣ الإسراء والمعراج
٢٤ موقف المشركين من البعثة
٢٧ غاية البوصيرى من مدحته
٢٩ البوصيرى بين الأمان والخوف
٣٠ التقرب إلى رسول الله ﷺ بالدعاء لصحابته
٣٣	ثانياً : شعراؤنا المعاصرون فى معارضاتهم :
٣٥	١ - محمود سامى البارودى فى قصيدته (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) .
٣٨ محمد ﷺ من أصوله
٤٠ مولده وما واكبه من أحداث
٤٣ محمد فى صباه وشبابه
٤٧ البعثة وما استقبلت به من قريش
٥١ من معجزاته ﷺ
٥٣ الصمود أمام محاولات قريش
٥٥ الهجرة إلى مدينة يثرب
٦١ محمد ﷺ فى المدينة المنورة
٦٣ غزوة بدر وما تلاها من غزوات
٦٩ غزوة الخندق وما ترتب عليها
٧٣ فتح مكة وأسبابه
٧٨ استقبال الوفود ، والتهيؤ لبناء الدولة
٨٠ محمد ﷺ فى وجدان البارودى

الصفحة

٨١ الاعتزاز بقربه منه
٨٣ بين الرجاء والاستعطاف والشكوى
٨٥ الاعتذار عن التقصير في المدح لسمو الممدوح
٨٧ الرغبة في زيارة الحرم النبوي والتوجه إلى الله بالرجاء
٩١	٢ - أحمد شوقي في قصيدته (نهج البردة) :
٩٤ الحديث مع النفس
٩٦ التقرب إلى الله بمدح المصطفى
٩٧ المدح بذكر بعض الصفات
٩٨ المدح بذكر بعض الأحداث التاريخية
١٠٠ المدح باختصاصه بالمعجزة القرآنية والبيانية
١٠١ ملايسات مولد محمد ﷺ
١٠٢ معجزة الإسراء والمعراج
١٠٣ حادثة الهجرة وما لابسها من معجزات
١٠٤ من مظاهر عظمته ﷺ
١٠٧ محمد ﷺ داعي السلام ورائد الحضارة
١١٤ ابتهاج ورجاء
١١٧	٣ - محمد عبد المطلب في قصيدته (ظل البردة) :
١١٧ الشكوى مما آل إليه حال المسلمين
١١٩ حال العالم قبيل مبعثه ﷺ
١٢٢ اصطفاء محمد من أشرف الأصلاب
١٢٤ من شمائله ﷺ وآثاره
١٢٥ تميزه منذ الصغر بين أترابه
١٢٧ بدء الوحي وأثر الدعوة في قومه
١٢٨ الإقبال إلى الإسلام ، وتمادى قریش في العداوة
١٢٩ الهجرة إلى يثرب
١٣٠ الإذن بالجهاد دفعاً للظلم
١٣٥	٤ - علي أحمد باكثير في قصيدته (نظام البردة) :
١٣٨ واقع الأمة العربية
١٤١ الدعوة لزيارة المسجد النبوي

الصفحة

١٤٣	اجترار طرف من سيرته ﷺ
١٤٤	من شمائله وصفاته
١٤٥	المرأة ودورها البناء في الإسلام
١٤٦	السلوك الحمدي يقدم الصورة الصادقة له
١٥٠	المعجزة الخالدة
١٥٣	خصوصية الإسلام الحمدي
١٥٧	عظمة محمد كالشمس لا تخفيها غيوم المضللين
١٦٠	حال المسلمين اليوم
١٦٢	التوجه إلى الله بالابتغال
١٦٧	٥ - ميشيل الله ويردي في قصيدته (وحى اليردة) :
١٦٩	واقع محمد ﷺ من أسرار عظمته
١٧٠	صورة الإنسان الكامل
١٧٣	من مظاهر العظمة في الهدى الحمدي
١٧٥	كيف نهض محمد بأمته
١٧٦	حاجتنا اليوم إلى ما نهض بأمتنا أمس
١٧٧	واقع المسلمين القائم يؤكد حاجتنا إلى الهدى الحمدي
١٧٧	الموازنة بين ما يتيه به السابقون وبين الهدى الحمدي
١٧٨	دعوة المسلمين والنصارى إلى التمسك بهدى محمد ﷺ
١٧٩	حب الشاعر محمداً وأثر ذلك فيه
١٨٣	٦ - الدكتور حسن إبراهيم في قصيدته (محمد رسول الله) :
١٨٤	منشؤه ﷺ
١٨٦	من مظاهر الإعجاز القرآني
١٨٧	حادثة الإسراء والمعراج
١٨٧	النهوض بالدعوة رغم العناد
١٨٨	الهجرة إلى يثرب
١٨٩	في مواجهة التآمر والتحالف
١٩٦	خاتمة

10
29

Blotches Alexandria



0226636

مطابع الأوقست
بشركة الإعلانات الشرقية